الفيصل

مجلة ثقافية شهرية - العدد ٢٧٢ - صفر - ١٤٢٠هـ - مايو/ يونيو ١٩٩٩م
ALFAISAL MAGAZINE - No. 272 - MAY./JUN. 1999



العقيق اليماني: فصوص السلا والبهجة

أشيقر: بلد العلماء والنخيل والأوقاف

كونديرا ولحظة بدء العولمة

غياب الأب وأثره في الطفل - الغوريلا: غول الأدغال الخجول - أطول محاكمة في التاريخ

في جميع مساعيها

حرصت الفيصلية على تكريس جل جهودها وإمكاناتها لتحقيق هدف واحد. هو كيفية تطوير سبل الحياة في شتى ميادينها والإرتقاء بها إلى أفضل المستويات. ولتحقيق هذا الهدف فقد أقامت الفيصلية شراكات راسخة مع بعض من أشهر الماركات التجارية في العالم.

ففي منازلنا. نجد سوني SONY قد ساعدتنا في تعزيز أسلوب حياتنا اليومية على نحو أكثر متعة وإثارة. بينما نجد ميجاستار أكبر شركات الموسيقى في الشرق الأوسط قد منحتنا البهجة والسعادة بما تقدمه لنا من فنون أصيلة وموسيقى راقية. أما في مكاتبنا ومدارسنا ومنازلنا. فنجد أن HEWLETT PACKARD تواصل باستمرار تقدمها لتحقيق التميُّز النوعي في مجال أتمتة المكاتب. والتعليم والثقافة والمعرفة. والإستفادة القصوى من تقنية المعلومات بواسطة الكمبيوتر. كما نجد أن مئات الآلاف من الأسر في كافة أرجاء المملكة العربية السعودية تفضل حليب ومنتجات الصافي AL SAFI الطبيعية التي توفرها لهم أكبر وأضخم مزرعة ألبان متكاملة في العالم. وفي محلات السوبرماركت والزهور نمدكم بأرقى أنواع الورود والزهور الطبيعية والخضروات الطازجة التي يتم زراعتها بواسطة مؤسسة الفيصلية الزراعية. وفي مجال وقود السيارات نجد شركة Ethyl الرائدة عالمياً في صناعة المواد الكيميائية تقوم بانتاج المواد المضافة ذات الجودة العالية التي يتم استخدامها في تحسين وقود السيارات. كما نجد أن المستشفيات والمستوصفات الطبية تعتمد بدرجة كبيرة على كفاءة أجهزة TOSHIBA Medical Systems الطبية في أغراض التشخيص وغيرها من الأمور الطبية. فمن أجهزة التسلية وأنظمة الكمبيوتر والصناعات الكيميائية إلى منتجات الألبان الطازجة والخضروات والزهور الطبيعية. كرسنا جهودنا وسخرنا إمكاناتنا لنحقق التميُّز والهدف المنشود.

مجموعة الفيصلية
Al Faisaliah Group

شارع العلياء العام - مركز النمر التجاري. ص . ب ١٦٤٦٠ الرياض ١١٤٦٤ المملكة العربية السعودية - هاتف: ٤٦١٠٠٧٧ - فاكس: ٤٦٤٠٤٩٨

مـجلة ثقـافـيـة شـهـرية ـ السنة ٢٣ ـ العـدد ٢٧٢ ـ صـفـر ١٤٢٠هـ ـ مـايو/ يونيـو ١٩٩٩م

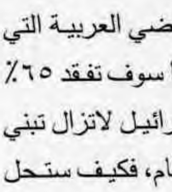
ALFAISAL MAGAZINE - No272- MAY./JUN. 1999

المحتويات



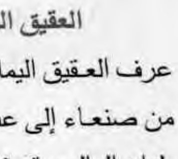
إسرائيل ولعبة بنوك المياه في المنطقة العربية

إذا انسحبت إسرائيل من الأراضي العربية التي احتلتها في عام ١٩٦٧م، فإنها سوف تفقد ٦٥٪ من مواردها المائية، ولكن إسرائيل لاتزال تبني المستوطنات، كما يزداد عدد سكانها عامًا بعد عام، فكيف ستحل مشكلة المياه؟



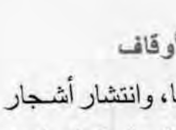
العقيق اليماني: فصوص السلا والبهجة

عرف العقيق اليماني منذ قديم الزمان، فكان ينقل من صنعاء إلى عدن، ليتم تصديره إلى مختلف بلدان العالم، وقد شاعت عنه بعض الأساطير، أما الحقائق فتوضح أنه أكثر جودة من العقيق الهندي والإيراني.



أشيقر: بلدة العلماء والنخيل والأوقاف

أشيقر بلدة عرفت بكثرة علمائها، وانتشار أشجار النخيل فيها، وتفرد خصائصها المعمارية، كما تعد الأوقاف فيها مقومًا رئيسًا لازدهار مظاهر الحياة، وعاملاً من عوامل متانة العلاقات الاجتماعية، فكيف بدت أشيقر في هذا الاستطلاع الذي يبحر بنا إلى الماضي؟



خان الخليلي: تذكارات قاهرة المعز في أشهر أسواقها

خان الخليلي أكثر أحياء القاهرة شهرة، ومن أقدمها تاريخًا، وهذا السوق الشعبي الذي يرجع تاريخه إلى القرن الثامن الهجري، والذي يعج بأنواع مختلفة من السلع والتذكارات التي يقبل عليها السياح عربًا كانوا أم عجمًا، ليس إلا «تربة القصر» التي شيدها المعز لدين الله الفاطمي لتضم رفات الخلفاء من قبله ومن بعده.



كونديرا يحدد الحرب الأولى لحظة بدء العولمة!!

ميلان كونديرا الروائي التشيكي الذي غادر بلاده إلى فرنسا في السبعينيات بعد معاناة من اضطهاد طويل، يرفض تصنيف أعماله تحت لافتة بعينها، وإن كان يرى أن التساؤل التأملي هو القاعدة التي بنيت عليها رواياته، وهذا رأي من بين آراء أخرى كثيرة طرحها في حوار صحفي مطول أجري معه.



الاحترار والتغير العالميان

إذا كان غاز ثاني أكسيد الكربون يسمح لأشعة الشمس بالمرور من الغلاف الجوي وتسخين الأرض ماصًا الأشعة تحت الحمراء المرتدة من سطح الأرض، ومانعًا لها من المرور، فإنه يحفظ التوازن والثبات في درجات حرارة الأرض، ولكن ما نتائج ازدياد تركيزات ثاني أكسيد الكربون على مستوياتها الطبيعية؟



الموسوعات العربية والإسلامية تاريخًا واقعًا

مثّل نزول القرآن الكريم بداية المرحلة الكتابية في تاريخ الأمة الإسلامية، التي لم تعرف في بدء ازدهار حضارتها كتبًا على النمط الموسوعي. ومع تطور العلوم واستقلالها عرفت التصنيف الموضوعي المتخصص للكتب، ولكن متى كان صدور أول موسوعة عربية بالمفهوم الحديث، وكيف تطورت الموسوعات العربية والإسلامية؟



إمبراطوريات الرياح الموسمية

عناصر الجغرافيا ممثلة في الرياح الموسمية حسمت مصير مليارين أو أكثر من البشر في المحيط الهندي في الماضي، وستتحكم الجغرافيا في مصيرهم في المستقبل، هذا جوهر رأي ريتشارد هول الذي ارتحل في أرجاء المحيط الهندي، وتخصص في تاريخه، فما الأسانيد التي اعتمد عليها في إطلاق هذا الرأي؟



الغوريلا: غول الأدغال الخجول

الغوريلا هي نفسها الغول الذي نسجت حوله القصص والأساطير، التي كانت تحكيها الجدات، وتتناول توحشه وبطشه بالإنسان، وهن لم يصدُقْنَ في هذا الوصف، لأن الغوريلا على قدر ضخامتها ومنظرها المخيف إلا أنها حيوان خجول، بل الإنسان هو الذي يأكل لحومها حتى أصبحت مهددة بالانقراض.



غياب الأب عن الأسرة وأثره في شخصية الطفل

الأب أساس الأسرة، والمظلة التي تستظل بها الأم والطفل، وقد أثبتت الدراسات العلمية أثر تفاعل الطفل مع أبيه في تحقيق نموه العقلي على نحو متزن. فما أثر غيابه عن الأسرة لسبب من الأسباب في شخصية الطفل؟



الدراسات الإسلامية والشرق أوسطية في اليابان

كانت أزمة النفط في عام ١٩٧٣م قد حدت بالحكومة اليابانية والقطاع الخاص أن ينظرا بجدية إلى العالم الإسلامي، حفاظاً على التطور الاقتصادي الياباني، فكان أن انعقدت مؤتمرات تبحث في شتى شؤون العالم الإسلامي، وقامت الجامعات والمعاهد التي تهتم بالدراسات التي تتعلق به.



مانيه: رائد الفن الحديث

كان مانيه من الفنانين الذين تمردوا على التلقين، ورفضوا القواعد والأنماط الجامدة في الفن، فهزت أعماله الفن التقليدي، وأثارت عليه هجمات النقاد والجمهور، ولكن عند وفاته تراجع أولئك الذين اتهموه بفحش التعبير وإهدار القيم، وأشادوا بفنه، وهذا ما توقعه صديقه زولا.



أطول محاكمة في التاريخ

أصدر البابا يوحنا بولس الثاني في ديسمبر/كانون الأول ١٩٩٧م قراراً برفع الحكم الذي صدر على جاليليو بالزندقة والهرطقة في عام ١٦١٦م، عندما أيد فكرة كوبرنيكوس القائلة بأن الشمس مركز الكون، لتكون بذلك محاكمة جاليليو هي أطول محاكمة في التاريخ.

الفيصل

الناشر: دار الفيصل الثقافية

الموضوعات التي تنشر في المجلة تعبر عن آراء كتّابها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.

المراسلات للتحرير والإدارة:

ص.ب (٣) الرياض ١١٤١١ ـ المملكة العربية السعودية

هاتف: ٤٦٥٣٠٢٧ ـ ٤٦٥٢٢٥٥

ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

الاشتراك السنوي:

١٥٠ ريال سعودي للأفراد، ٢٥٠ ريال سعودي للمؤسسات، أو ما يعادلهما بالدولار الأمريكي خارج المملكة العربية السعودية.

السعر الإفرادي:

السعودية ٨ ريالات ـ الكويت ٦٥٠ فلس ـ الإمارات ٧ دراهم ـ قطر ٧ ريالات ـ البحرين ٧٥٠ فلس ـ عُمان ٧٥٠ بيسة ـ الأردن ٥٠٠ فلس ـ اليمن ٦٠ ريالاً ـ مصر جنيهان ـ السودان ١٥٠ جنيه ـ المغرب ٨ دراهم ـ تونس دينار واحد ـ الجزائر ١٠ دنانير ـ العراق ٤٠٠ فلس ـ سورية ٣٠ ليرة ـ ليبيا ٨٠٠ درهم ـ موريتانيا ١٠٠ أوقية ـ الصومال ٢٠٠٠ شلن ـ جيبوتي ١٥٠ فرنك ـ لبنان ما يعادل ٤ ريالات سعودية ـ الباكستان ٢٠ روبية ـ المملكة المتحدة جنيه إسترليني واحد.

إدارة التحرير:

رئيس التحرير: **يحيى محمود بن جنيد**

مدير التحرير: **عبدالله يوسف الكويليت**

رقم الإيداع في مكتبة الملك فهد الوطنية ١٤/٠٥٤٢
ردمد ٠٢٥٨ ـ ١١٤٠

انتقادات ليست في محلها!!

لقد قرأت في العدد الأخير انتقادات بعض القراء للتعديلات التي أجريتموها على المجلة من حيث إلغاء الأبواب الثابتة. وإنني لأستغرب ذلك. فقد أرهقت المجلة كثرة الأبواب الثابتة حتى أمست تلك الأبواب حملاً ثقيلاً يرهق المجلة، ويعيق حيويتها، وقدرتها على استقبال النتاج المتجدد لكتّابها.

كما قرأت اعتراض أحد القراء على غياب المقالات القصيرة (الساندويتشات، على حد قوله) عن المجلة، ويقول: إن هذه المقالات موجودة في بعض المجلات الأخرى. أقول للأخ القارئ: إن مجلة الفيصل تتميز بمقالاتها الدسمة الغنية بالمعلومات، ولكن الطريقة والسهلة الهضم في الوقت نفسه. وهذا ما ينبغي أن يميز أية مجلة عربية رصينة. أما المقالات القصيرة فمكانها الصحف والمجلات الإخبارية، وهي كثيرة. وأما عن قوله إن المجلات الأخرى تفرد مكانا لهذه المقالات، فهذا صحيح فقط بالنسبة إلى النتاج الإبداعي الأدبي كالقصة، والقصيدة، والخاطرة - ويمكن أن يكتشف ذلك بسهولة بمراجعة المجلات الأخرى كالمجلة العربية مثلاً.

كل هذه الأمور تبرز ذكاء هيئة التحرير الجديدة لمجلة الفيصل وخبرتها من خلال ترك كل ما كان يرهق المجلة والتزام كل ما كان يميزها، ثم إضافة ما يزيدها بهاء وانتشارا. هنا أريد أن أشكر لكم الإخراج الجميل جدا للمجلة، والاستطلاعات الجميلة التي تتحفوننا بها.

ولكم بالغ شكري وتقديري ووفقكم الله.

نجمة موسى

ص.ب ٤٩٤٤ - حلب - الجمهورية العربية السورية

ماذا أقول؟

فاجأنا طاقم التحرير الجديد بعد استلامه لشؤون المجلة بنسف كل ما بناه سعادة الدكتور زيد الحسين، وقيامه بعمل حلاقة لجميع مواد المجلة المتميزة، وكأنها أصيبت بموت الفجأة ومنها: زاوية البريد، والبريد الثقافي، وتباشير، وعناوين، وبين القارئ والقارئ، وردود سريعة، والاستراحة، فضلاً عن الأبواب الكبرى مثل: الحركة الثقافية في شهر، ودائرة المعارف، وتجربتي، ولقاء مع، ومناقشات وتعليقات، والفتاوى، والطريق إلى الله، وعلى موعد، وإطلالة، وقصة قصيدة.

فماذا أقول؟ وماذا يقول محبّو الفيصل الذين يتسمّرون عند بوّابات المكتبات كل شهر للفوز بالعدد الجديد كل شهر؟.

إن هذا العمل ليس تجديداً؛ وإنما هو من «التبديد» والهدم للبناء السابق الذي أصبحت به الفيصل مدرسة أدبية وفكرية ونقدية و...

ألا تظنّون أن تجاهلكم لرغبات الكثير من القرّاء سيؤدي إلى هجر مثل هذا المنفذ الثقافي وربما على أقل تقدير عدم الرغبة في التفاعل مع ما يطرحه مستقبلاً؟

إن من الإنصاف أن نقول: أحسنتم باستحداث باب قراءات الذي يقوم بتوثيق الصلة بين القارئ للمجلة، والكتاب.

وكذلك أحسنتم بإعلانكم إصدار مجلة متخصصة في الدراسات اللغوية.

ولكن هذين الإحسانين لا يستطيعان مقاومة الإساءة الكبيرة التي وجهتموها للزوايا المحذوفة ومحرّريها وقُرّائها.

كما أن لي عتبًا شديدًا عليكم؛ وذلك لقيامكم بالاستغناء شبه التام عن الخطّ العربي الذي تبدعه يد الخطّاط أكثر مما يهرطق به «الحاسوب»، ولا أظن الخطّاط يوسف إلا قد انهار هو أيضًا فجأة بعد قراركم تخريب جمال مجلته التي اشتهر من خلالها، وقطع الرابط بينه وبين إبداع لمساته الفنية على صفحاتها.

وختاماً تقبلوا مع هذا العتاب الحارّ عزاءً بوفاة مجلة الفيصل التي كُنّا نعرفها، ونسأل الله أن يعوض المحبّين لها خيرًا منها وممن خلف على تحريرها.

وبعد كل ما سبق أرجو منكم السماح على شدة هذه اللهجة التي استخدمتها، لكنها ردة الفعل التي لا أستطيع كتمها، وأعانكم الله على إصلاح ما أفسدتموه.

وأتمنى أخيراً أن أحصل على عدد رجب ١٤١٨هـ، مع كشاف ذلك العام، وكذلك عدد رجب ١٤١٩هـ مع الكشاف المرفق به أيضًا.

ولكم جزيل الشكر.

عبده بن علي حسن الفيفي - ص.ب ٤٢ - فيفا - جازان

التحرير: سوف يرسل لك العددان والكشافان التي طلبتهما.

سرني وساءني

أطلعت في العدد ٢٧٠ الصادر في ذي الحجة ١٤١٩هـ على باب رسائل القراء في الصفحتين الرابعة والخامسة.

أولا: سرني انتشار مجلة الفيصل في أصقاع المعمورة، وتلهف القراء عليها، وطلبهم ما يفوتهم من أعدادها والمشاركة بالكتابة (نصحاً وعتابًا) وهذا يدل دلالة واضحة على قيمة المحتوى كلمة وصورة، حيث يبدو جليًا استقطاب هذه النخبة الطيبة كتابًا وقراءً على أينع ثمار الغرس المبارك إن شاء الله، لاسيما أن هذه النخبة المثقفة في بلدان تعج بنشر مختلف المطبوعات داخليًا وخارجيًا، أضف إلى ذلك الوسائل الإعلامية الأخرى مرئية ومسموعة، وندوات تقام بين حين وآخر.

ثانيا: ساءني عدم نشر ردود القراء من داخل مملكتنا الحبيبة في هذا العدد فهل هذا عزوف عن القراءة والملاحظة وإبداء الرأي، أم إن المجلة تقوم بنشر الرسائل من الخارج، وتغفل رسائل الداخل طمعاً في الصوت الخارجي والداخلي مضمون؟!
ثالثا: أفادت ردود القراء بأن أبواب المجلة في السابق أفضل: نودُّ سماع رأي المجلة.
تساءل بعض القراء عن أن إدارة التحرير الخلف تقوم على إزالة معالم السلف: ونقول هم خير خلف لخير سلف: ونشر الإشادة والعتاب خير دليل على توخي إدارة التحرير الحالية معرفة الأفضل هذا ولكم تحياتي والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

تركي بن شجاع تركي الخريم
الدمام

تأخر في التوزيع وقلة في الكمية

أشكر لكم هذا القالب الجديد لمجلة الفيصل الدسمة الموضوعات ذات المنابع الغزيرة، ولعل عظمة أي مجلة تأتي من استمراريتها، ولعل الخليج العربي قد اكتسب عظمته من مجلتيه الفيصل السعودية والعربي الكويتية وغيرهما.
ولكني أود أن أشير إلى تأخر التوزيع في سورية، فالعدد ٢٧٠ وزِّع اليوم ٢٥أبريل/ نيسان١٩٩٩م حتى ليظن القارئ أن العدد لن يصل، فهناك تأخر في التوزيع وقلة في الكمية، وتراني أضع بين أيديكم هذه المشكلة ولكم الحل والربط.

د. أحمد محمد سليمان
ص.ب ١٦٧٣ ـ حمص ـ سورية

الجائزة لم تصل!!

أنا من قراء مجلة الفيصل الغراء من عددها الأول حتى الآن، فأرجو من الله العلي القدير أن تكون هذه المجلة دائمة الرقي. وأبعث إليكم برسالتي لأعرفكم أنني فزت بالمسابقة في العدد (٢٣٧) والعدد (٢٤٠) جمادى الآخرة ١٤١٧هـ/ أكتوبر ـ نوفمبر ١٩٩٦م بمجموعة كتب من إصدارات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، وحتى الآن لم تصلني قيمة الجائزة.
لذا أرجو التكرم من سيادتكم إرسالها لي في أقرب وقت ممكن؛ لأنني في أشد الحاجة إليها أسوة بزملائي الذين فازوا من قبل بالمسابقة.

زمزم أبو الوفا إسماعيل
شارع الشقيرات ـ الأقصر ـ مصر

التحرير: حولت رسالتك إلى القسم المختص لاتخاذ اللازم.

ردود سريعة

الأخ عبدالله أحمد ـ كوماسي ـ غانا :
ستصل إليك بعض إصدارات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، وبعض أعداد المجلة، ، نحيي اهتمامك بأمور دينك، وحرصك على اللغة العربية.

الأخ محمد ثويب ـ أندونيسيا:
يبدو أنك أخطأت العنوان، لأن خطابك موجه إلى «الوعي الاسلامي»، وعموماً، المجلة تعتذر لقرائها جميعاً من عدم استطاعتها منح اشتراكات مجانية، لكثرة الطلبات التي ترد إليها، وتقديراً منها لحرصكم على الاستزادة من الثقافة العربية، سوف تصل إليك بعض أعداد المجلة.

الأخ منير فكري عطية ـ سوهاج ـ مصر:
صدرت الطبعة الثانية من الموسوعة العربية العالمية في هذا العام، وتقع في ثلاثين مجلداً ومن المتعذر على المجلة أن تبعث لقرائها بمثل هذه الأعمال الكبيرة، وإننا لنعتذر لكم وللأخوة القراء الذين لديهم طلبات مماثلة من عدم استطاعة المجلة تلبيتها، شاكرين لكم ثقتكم في المجلة، وداعين الله لكم بالتوفيق إن شاء الله.

الأخ محمد ذيب ـ ولاية مرداس ـ الجزائر:
نشكر لكم إطراءكم، وما قدمته لك المجلة ليس إلا جزءاً من واجبها الثقافي، ونأمل أن تجدوا في مجلتكم دائماً كل ما ينفع ويفيد، ونحن في انتظار آرائكم وآراء الإخوة القراء من أجل تطوير المجلة إلى الأفضل.

الأخ رأفت شهير محمد شهاده ـ البارحة ـ إربد ـ الأردن
نشكر لك اهتمامك بالاطلاع على المجلة، وإشادتك بها محل تقديرنا، أما ما كتبته عن مناهج التعليم، وأساليب التدريس فهو يستحق التناول، وقد سبق للمجلة أن ناقشت كثيراً من قضايا التعليم بكل مستوياته في أعداد سابقة، وليتك تستطيع تعميق الأفكار التي أشرت إليها، من واقع المعايشة، بوصفك طالباً جامعياً وتناولها في مقالة لتعم الفائدة.

الأخ السباعي عبد الرؤوف وهبة ـ طنطا ـ مصر:
ليس حلماً أن ترى موادك منشورة في المجلة؛ لأنها ترحب بمقالات جميع القراء، وتحتكم إلى معايير موضوعية للنشر، وإذا استوفت أية مقالة الشروط، فإنها تأخذ طريقها إلى النشر، فلا داعي لليأس وتمسك بالأمل في الوصول إلى الشاطئ ـ حسب تعبيرك ـ، متمنين لك التوفيق إن شاء الله.

الأخ زيدان الميلودين عبدالقادر ـ ولاية الشلف ـ الجزائر:
نأسف على عدم قدرتنا على تحقيق طموحاتك في أن تكون لاعباً كبيراً مثل مارادونا، وأن تنتمي إلى أحد الأندية السعودية، ومثل هذا الطريق يبدأ بانتمائك أولاً إلى أحد الأندية في بلدك لإبراز إمكاناتك، ثم تأخذ طريقك إلى الشهرة التي نأملها. ومثل هذا الطموح لا يتعارض مع الدراسة، فالعلم سلاح للإنسان في أي مجال؛ لأنه يفتح المدارك، ويزيد الإنسان فهماً للحياة، فاجتهد في دراستك، ومارس هوايتك، ولعلك تحقق ما تصبو إليه من شهرة في مجال الرياضة أوغيره.

الغوريلا
غول الأدغال الخجول

كارم السيد غنيم

إنها «الغول» الذي حُكيت عنه الحكايات، وشاعت حوله الأساطير على مرِّ السنين بين كثير من الشعوب، وهي الحكايات والقصص والأساطير التي تؤكد ضخامة هذا العملاق وتوحشه وبطشه بالإنسان.. أما إنها عملاقة وقوية وضخمة ومنظرها مخيف من على بعد، فهذا صحيح، وأما إنها متوحشة، وتبطش بالإنسان وتهاجمه وتقتله وتأكل لحمه وعظامه، كما كانت تحكي لنا جداتنا في الماضي، فالغوريلا بريئة منه براءة الذئب من دم ابن يعقوب.

نعم إن الغوريلا أضخم قرد معروف حتى الآن في العالم؛ إذ يتجاوز ارتفاع جسمها عند الانتصاب والوقوف، وهو الوضع غير المعتاد في الحياة اليومية لها، متراً وخمسة وخمسين سنتيمتراً إلى متر وخمسة وسبعين سنتيمتراً، وإذا استقامت الركبتان فإن الارتفاع قد يصل إلى مترين ونصف المتر.. ويصل باع الذراعين مفتوحتين من مترين إلى مترين وخمسة وسبعين سنتيمتراً، ويصل محيط الصدر العريض القوي، ولاسيما الذكر إلى متر وخمسة وسبعين سنتيمتراً.

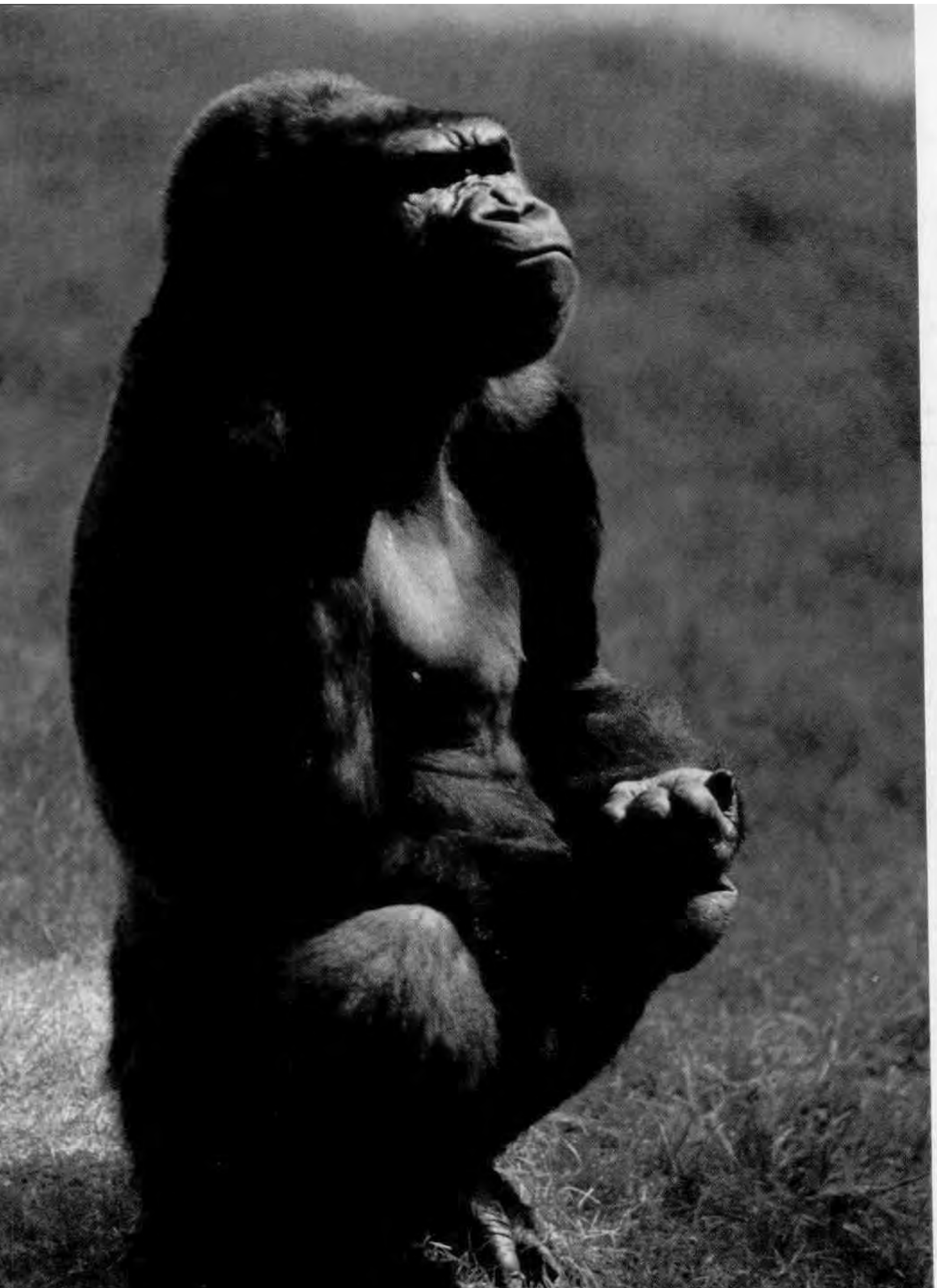


تيمور هو أول (قرد أنابيب) استطاع العلماء والأطباء أن يحصلوا عليه بالتلقيح الصناعي لبويضة من مبيض الأم تحت المجهر، باستعمال حيمن (حيوان منوي) حصلوا عليه من الأب

الغوريلا الذكر أكثر طولاً وأثقل وزناً من الغوريلا الأنثى، فوزن الذكر مثلا يراوح بين ١٣٥ ـ ٢٧٥ كيلو جراماً، (حسب عمره). وقد يصبح بديناً عند حجزه في حدائق الحيوان، فيصل وزنه إلى ٣٢٠ كيلو جراماً، بينما لا يزيد وزن الأنثى على ٢٠٠ كيلو جرام.. وتعيش الغوريلا ٣٠ ـ ٤٠ سنة، وأطول عمر ذكرته السجلات لها هو ٥٠ سنة، سواء في حياتها البرية أم في حياة الأسر captivity.

وإضافة إلى الصدر العريض ذي العضلات القوية، فإن الغوريلا تتمتع بأكتاف كبيرة، وقد تصل المسافة التي يبلغها الكتفان مترين أو يزيدان. ويكسو الجسم فراء fur يتنوع لونه من البني إلى الأسود الفاحم، حسب العمر، وحسب النويع.. أما الذكور فإن فراءها (أو شعرها) يتحول لونه عند بلوغها مرحلة النضج الجنسي sexual maturity إلى الفضي، ولاسيما منطقة الظهر وما حولها، حتى لَيُسَمَّى حينئذ: صاحب الظهر الفضي silvery backed male.

أما الذكور الأقل سناً، والأضعف قوة، فتكسو ظهورها شعور سوداء، ويُسمى الذكر فيها: صاحب الظهر الأسود» black - backed male. وللاختصار، يسمَّى الأول «الظهر الفضي»، والثاني «الظهر الأسود».



قد تنتصب الغوريلا نصف انتصاب كما في هذه الصورة

لا توجد لحية beard للغوريلا، ولا يوجد شعر على الوجه، أو الأيدي أو الأقدام، وكذلك لا يوجد شعر على صدور الذكور المسنَّة (الكبيرة السن).. صوان الأُذن صغير ear pinna، فتحتا الأنف nostrils محاطتان بانتفاخات -bulg es ضخمة، أما العيون فصغيرة، وتقع تحت أعراف فوق محجرية -supra orbi tals واضحة.. والرقبة قصيرة فيبدو الرأس وكأنه خارج من الصدر، والأرجل أقصر من الأذرع، وغالبًا ما تمشي الغوريلا على قوائمها fours الأربع، لكنها تنتصب نصف انتصاب تقريباً، وتمشي على رجلين في حالات الهجوم أوالدفاع لمسافات قصيرة.

أنواعها ومواطنها الطبيعية في العالم

لا توجد الغوريلا إلا في قارة إفريقية فقط، إضافة إلى قرود الشمبانزي التي لا توجد أيضاً إلاّ في هذه القارة فقط، وهي تسمى أحياناً «طغموس».. والغوريلا نوع واحد يسمى باللغة اللاتينية غوريلا غوريلا gorilla gorilla، ويقع في جنس غوريلا gorilla، يتبع فصيلة بونجيدي family pongidae من رتْبة البشرانيات (أيْ أشباه البشر): suborder anthropoidea في رتبة الرئيسات order primate. ويضم نويعين subspecies هما:

- غوريلا السهول والمنخفضات: lowland gorilla واسمه اللاتيني -G. goril la gorilla، وقد يسميها بعضهم (غوريلا غرب إفريقية). وهي تنتشر في المناطق المحيطة بنهر الكونغو، وتعيش في أعماق الغابات الاستوائية المطيرة في الجابون، وزائير، وجمهورية إفريقية الوسطى، وجنوب شرق نيجيريا، ومنطقة البحيرات الإفريقية الوسطى.

- غوريلا الجبال والمرتفعات -moun tain gorilla، واسمها اللاتيني g. gorilla beringei وقد يسميها بعضهم غوريلا شرق إفريقية، لكن الأصح أن نسميها غوريلا وسط إفريقية. وهي تعيش على جبل كاهوزي kahuzi، ومناطق براكين فيرونجا virunga volcanoes، فيما بين بحيرة إدوار lake Edward وبحيرة كيفي lake kivi.. وتعيش الغوريلا في هذه المناطق على ارتفاعات شاهقة تصل إلى ٣٠٠٠ - ٤٠٠٠ متر فوق سطح البحر.

ويقرر العلماء أن المعلومات المتاحة عن غوريلا السهول والمنخفضات في حياتها الحرة الطليقة قليلة جداً لصعوبة المتابعة والدراسة الحقلية لها، لذلك فأغلب المعلومات الواردة في مثل هذا المقال تكون عن غوريلا الجبال والمرتفعات.

الحركة عند الغوريلا

تهرول الغوريلا دون نظام محدد، وتربض نصف منحنية HALF CROUCHING في أثناء مشيها على رجليها. كما أن الغوريلا لا تستطيع أن تشد ركبتيها بنفس درجة قدرة الإنسان على شدِّ ركبتيه، ولذا تبدو الغوريلا عند وقوفها منثنية الركبتين.. وعموماً، فعضلات أكتافها القوية تمكِّنها من التأرجح والتدلي من أفرع وأغصان الأشجار حينما تضطر إلى الانتقال بين الأشجار، ولا تكون أرضية الغابة مناسبة للمشي عليها.

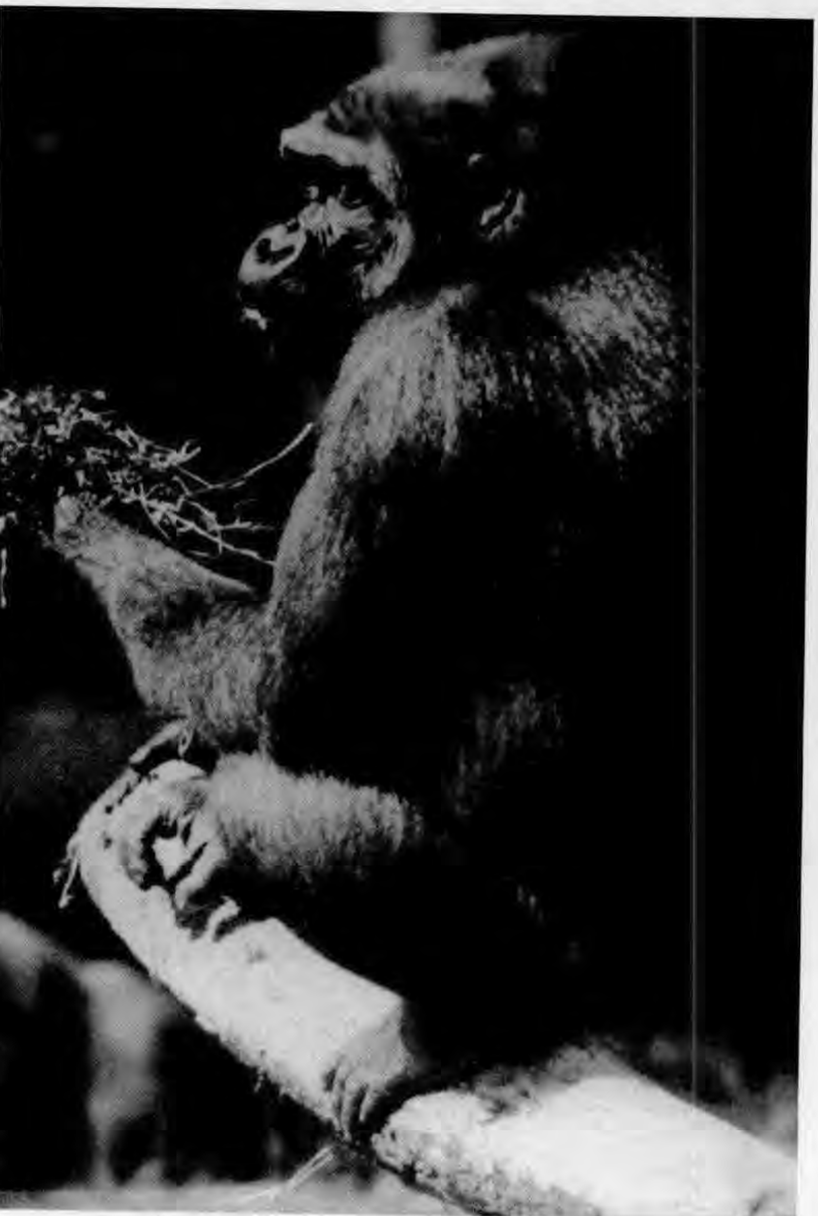
وأيدي الغوريلا قصيرة عريضة، وأغلب مشيها على قوائمها الأربع، لكنها تمشي لمسافات قصيرة على رجليها، وكذلك إذا كانت في وضع هجوم أو دفاع.. وأقدامها أخمصية السَّيْر PLANTIGRADE (أيْ مكيفة للمشي على السطح الكامل لأخمص أو باطن القدم). وتستخدم ظهر السلاميات PHALANGES، وهي الوصلات الوسطى في الأصابع) في حمل الوزن الثقيل للجسم إلى الأمام، ويتغطى ظهر هذه السلاميات بوسائد سميكة، ونسيج واقٍ.

النظام الاجتماعي
في مجتمع الغوريلا

يقود فريق أو فصيل أو قطيع أو مجموعة الغوريلا، عادة، قائد واحد، وهو أقوى الذكور وأعظمها حجماً، وهو ذكر يافع بالغ تحوَّل شعر ظهره إلى اللون الفضي، فيُرى بسهولة بين أفراد الفريق، وهو القائد الذي يتحمل على عاتقه مسؤوليات جساماً، سواء أكانت شؤون الأفراد وفض المنازعات فيما بينها - وهي قليلة الحدوث - أم تحديد مواعيد الرعي وأماكنها، ومواعيد الراحة وأماكنها، وتهيئة الجو وقت القيلولة حيث تلهو الصغار وتلعب بصخب، وقد تدوس على الأطفال الرضع، وغير هذا وذلك من عبث الأطفال كما يحدث في عالم البشر تماماً.

عندما يوجد أكثر من ذكر فضي الظهر SIL-VER BACK، ينتمون للفريق نفسه، فإن هناك هيئة اجتماعية SOCIAL HIERARCHY محددة يبدو وجودها على الدوام، فالقرد الذي يتمتع بوضع اجتماعي أعلى يأخذ حق المرور كأول فرد يعبر المسارات الضيقة، ويمكنه أن يطرد أو يُقصي القرود ذات المواقع الاجتماعية الأدنى منه عن مكانه في أيِّ وقت. وعلى عكس ما كان يعتقده بعض الناس، فإن هذا التقسيم أو الترتيب الاجتماعي لم يؤد يوما ما إلى حدوث احتكاك أو قتال أو عراك، بل غالبا ما يؤدي إلى حدوث ترابط سلمي وتعايش آمن بين الأفراد، فكل منهم له موقعه المحدد في المجموعة، وكل فرد يعلم بالضبط ما حقوقه وما واجباته تجاه بقية الفريق.

يتَّبِعُ جميع الأفراد قائدهم الذكر الفضيّ، مع أنه غير متسلط، ولا يصدر لهم الأوامر الصارمة - على حدِّ علم الباحث الألماني تشيللر SCHALL-ER الذي قضى سنوات في قلب إفريقية يشاهد


أفضل اللحظات تقضيها الغوريلا بين النباتات والشجيرات وهي تأكل

الغوريلا غول الأدغال الخجول



يتحول العملاق الهادئ الوديع الخجول إلى وحش كاسر جسور إذا اضطرته الظروف إلى ذلك

ويراقب سلوكيات الغوريلا وتصرفاتها في موطنها الطبيعي - لكنه أشد الأفراد حيطةً وحذراً، وأكثرهم استثارة، ويظل يصيح ويزعق ويهدد بينما الآخرون بالفعل في هدوء وسكينة على الأرض.. بل وصل من أمره أنه خجول، ويجب أن ينفرد بنفسه بعض الأحيان، ويختبئ خلف الأغصان.

تعلو مرتبة الذكور الفضيّة الظهور فوق مراتب أفراد المجموعة، مادام الترتيب الاجتماعي SOCIAL RANK لحيوان ما يبدو معتمداً - إلى حد ما - على حجم جسمه. ومع ذلك فالوضع الاجتماعي للإناث يعلو فوق الفتيان والفتيات، وبالتبعية، فإن وضع هؤلاء يعلو فوق الصغار التي لا تعيش طويلا في كنف أمهاتها.

قلنا: إن الذكور الفضية الظهور هي قادة فرق الغوريلا وأقواها على تحمل الشدائد، كما تثبت المشاهدات الحقلية أن الإناث والصغار في المجموعة يحبون قائدهم، حتى إن الإناث أو إحداهن تريح رأسها أحياناً على جسم الذكر القائد الفضي الظهر، وهو جالس متكئ على جذع شجرة، مثلا.. كما تلهو الصغار وتقفز هنا وهناك فوق جسم القائد، وقد تُلقي بأنفسها في حضنه دون أن يزعجه هذا، ولكن إذا زاد الصخب عن الحد المعقول فإنه ينفعل، وتكفي منه نظرة واحدة في هؤلاء ليتوقف العابثون عن اللعب الصاخب.

ماذا تأكل الغوريلا؟

تأكل الغوريلا بالدرجة الأولى النباتات، وأغصانها، وقلوب الأعواد والفروع، وتقشّر أحيانا القلْف وتأكله. وحينما تأكل تستعمل أيديها، ونادراً ما تقضم النباتات مباشرة دون أن تمسكها بيديها. وفي هذا الأمر، فإنها تختلف عن الشمبانزي لأنه يأكل الثمار بالدرجة الأولى، ويقل إقباله على أكل الأعواد والأوراق. ولقد أحصى الباحث الألماني تشيللر مئة من أصناف النباتات المختلفة التي تأكلها الغوريلا.. أما العالم الألماني جرزيميك فلقد تتبع مسارات الغوريلات ومسالكها في منطقة كيسورو في وسط إفريقية. وتذوّق النباتات التي تأكلها كافة، فوجد مذاق أغلبها مُرّاً. ولما كان المحتوى الغذائي

للأوراق والنباتات غير كاف إلى حد كبير، فإن الغوريلا تضطر إلى التهام كميات كبيرة منها، حتى يمكن للباحث أن يزن المادة الجافة في البراز الذي يطرحه قرد واحد يوميا بنحو كيلو غرام إلى كيلو غرام ونصف، أيّ إن هناك نفايات ضخمة تُطْرَدُ من الجهاز الهضمي لهذه القرود. ويبدو أن تلك النباتات تمد الغوريلات أيضا بالماء المطلوب لأجسامها، حتى إنها لم تَرَ أبداً وهي تشرب الماء في الحياة البرية. كما يُسْمَعُ لبطون الغوريلا قرقرة وقعقعة هي في الحقيقة الأصوات المنبعثة من عمليات هضم الألياف الخشنة، وحركة العصارات الهاضمة، وتُسمَع هذه القعقعات وقت الراحة بعد الإفطار، وبعد المغرب حين تنام في مخادعها على الأرض (الذكور الكبيرة)، وفوق الأغصان (الإناث والصغار).

كما أن الغوريلا لم تُرَ أبدا في حياتها البرية وهي تأكل لحوم حيوانات، أما في حدائق الحيوانات وما شابهها من أشكال رعاية الإنسان لها، فإنها تأكل اللحوم.

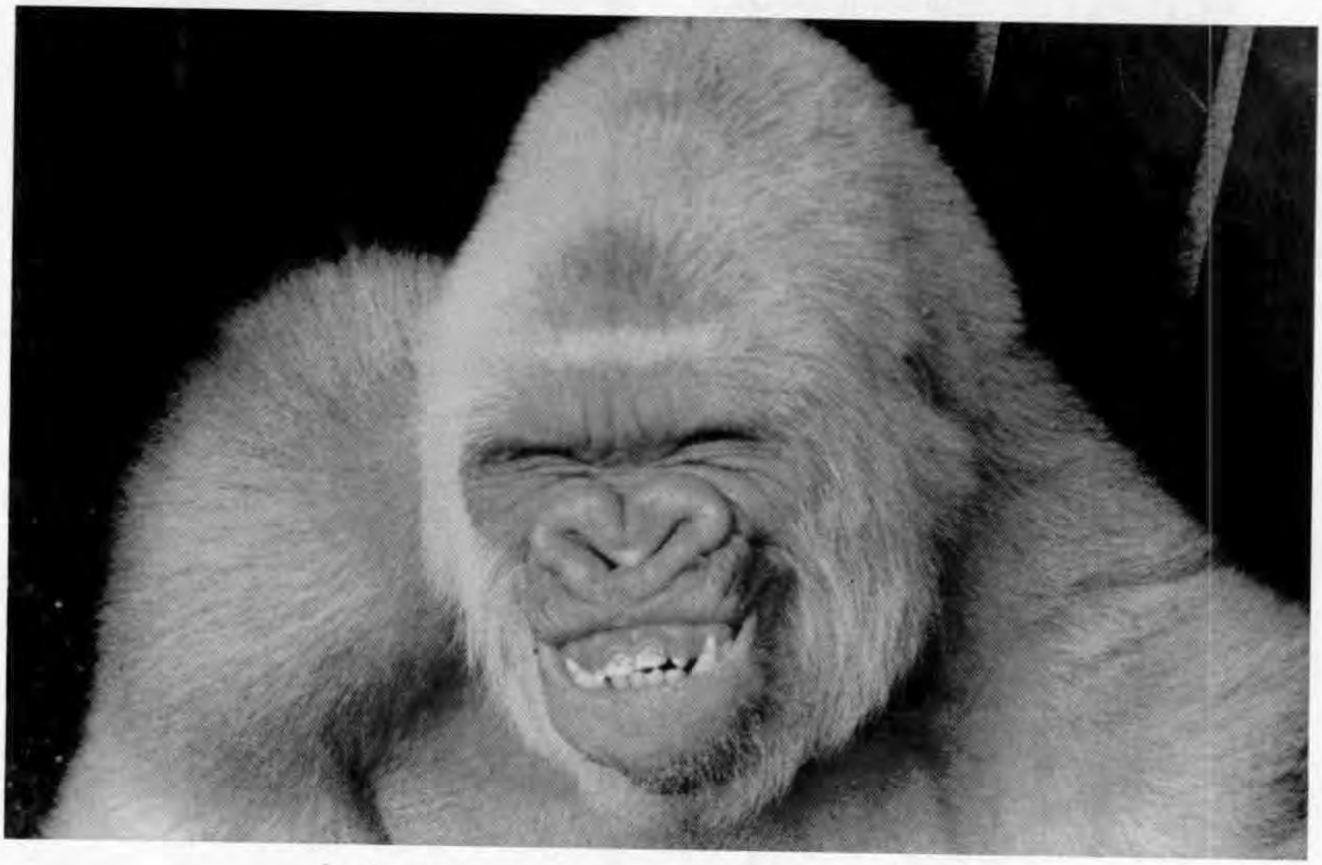
الألعاب والتسلية

أجمع كل الباحثين والعلماء والرحالة الذين راقبوا الغوريلا في حياتها الطبيعية بإفريقية أن الصغار في مجتمع الغوريلا تمارس عدة أنماط من اللعب وألوانًا من اللهو وأعمال الكشافة، حتى لا يَدَع بعضها بعضًا يخلد إلى راحة وقت القيلولة، بالضبط كما يحدث في عالم أطفال البشر، خاصة حين تريد الأم أن تستريح في هذا الوقت بالذات، وقت الظهيرة.. وتلعب الصغار بمفردها أو بعضها مع بعض.

ومن الجدير بالذكر أن هناك ألعابًا شاهدها العلماء وسجلوها، مثل (أنا ملك القلعة I AM THE KING OF THE CASTLE)، فيقفز أحد الصغار على زنْد شجرة، وينطرح أرضًا، فتجري نحوه بقية الصغار، وتلعب معه هذه اللعبة، وتقفز هي الأخرى فوق الزند، وتسقط وتنقلب على ظهورها، ثم تقوم لتستأنف اللعب مرة أخرى.. يحدث هذا والذكر الأول (وقد يراوح عمره بين ثلاث وأربع سنوات) جالس فوق ذروة الزند (summit)، وأخيرًا يعلِّق (hang) هذا «الملك» اثنين من «مساعديه» كانا مشبوكين معًا، ثم تدحرجا على الأرض.. وقد تُصدر إحدى الأمهات نعيبًا حادًا، فيتفرق الجميع، ويوقَفُ اللعب بناء على هذا التحذير!!

وقد يمارس الصغار أيضا لعبة «عسكر وحرامية»، ولعبة «اتبع القائد»، وذلك فوق الشجيرات والنباتات، وفيما بينها، حيث تتزاحم شجيرات ونباتات وأشجار الأجمة (الدَّغل jungle).. كل هذا والغوريلات الكبيرة السن والأفراد اليافعة مضطجعة في وقت الراحة بالظهيرة.. وإذا لم يحذَر هؤلاء الصبية الدَّوْس على الأطفال الرضّع، فإن الأمهات تُنذر بالعاقبة، وأقلها إيقاف اللعب، وجمع الصغار (الصبية) لاستئناف بقية فقرات البرنامج اليومي، حتى يأتي المساء.

وهناك ألعاب أخرى، مثل «المسَّاكة»، و«الدفاع عن التل»،



غوريلا مصابة بمرض البهاق (عدو الشمس) الذي يصاب به بعض الناس أحياناً

و«ضد الدخلاء» وغيرها من الألعاب التي تنتشر بين الأطفال من البشر، مع تنوعها.. وعموماً، فإن الغوريلا تتوقف عن اللعب عندما تبلغ مرحلة النضج الجنسي، وهو ٤ ـ ٦ سنوات في الإناث، و٨ ـ ١٠ سنوات في الذكور.

الغوريلا والعوائق المائية

الغوريلا ليست سبّاحة بطبعها، بعكس أغلب القرود الأدنى منها مرتبة، وأغلب الثدييات الأخرى، فإلى جانب ندرة شربها للماء، فهي لا تستطيع أن تخوض الماء إلاّ في الغدران، والجداول، أو المجاري والقنوات، والمسطحات المائية التي لا يتعدى عمقها ٣٠ ـ ٦٠سم. أما العوائق المائية الأعمق أو الأوسع فلا تستطيع الغوريلا أن تعبرها إلا إذا وجدت شجرة فوق سطح الماء تمشي فوقها وكأنها قنطرة عبور.. ولقد غرق «ماكوبو makobo» ـ مثلا ـ في مصرف الماء المحيط بالسياج الخارجي المشيَّد سنة ١٩٥١م بحديقة حيوان نيويورك بالولايات المتحدة.. فلقد انحنى القرد فوق الماء، ثم تعثَّر، فانْهار، وغطس وكأنه حجر سقط في الماء، ولم يحاول ماكوبو أية محاولة للسباحة، أو استعمال أدوات الانقاذ (ropes)، أو المرقاة (ladder) التي يستعملها الغرقى لإنقاذ أنفسهم.. وتذكر السجلات أيضا أن القرد «أبراهام abra-ham» مات في حديقة حيوان فرانكفورت في مثل هذه المحاولة لعبور مياه سنة ١٩٦٧م.

وفي إحدى المشاهدات في الغابات الاستوائية بإفريقية، شاهد أحد المراقبين مجموعة من الغوريلات في طريق العودة إلى أماكن نومها، وذلك لأن وقت الأصيل قد حلّ مُنذراً بقرب دخول الغسق، ثم الليل.

سارت الغوريلات وضوء النهار يتوارى تدريجيا، حتى وصلت إلى نهر صغير، فسارت على ضفته ضد اتجاه التيار قاصدة أعلاه



الغوريلا نوعان: أحدهما يعيش في الجبال والمرتفعات، والآخر يعيش في السهول والمنخفضات

وبعد مسافة تُقدَّرُ بعدة ياردات، ظهر القلق، وبدت العصبية على وجوه هذه الغوريلات، فلماذا؟ لأنها واجهت شجرة ساقطة تمددت فوق سطح النهر، وعندئذ قاد القرد الذكر القائد (صاحب الظهر الفضي) أفراد الفريق في عملية عبور هذا الجسر إلى الضفة المقابلة حيث توجد أشجار الموزانجا التي تفضل أن تنام عندها.

وشوهدت إحدى الإناث (وهي من الأمهات المربِّيات nursing mothers، وكانت آخر مَنْ يعبر الجسر) وقد بدت الحيرة عليها لأنها رأت فتى small buck لها انتابه الذهول، وسيطر عليه الخوف والتردد في عبور النهر فوق هذه الشجرة، فاضطربت الأم لاضطراب فتاها، فزلّت قدمها وانزلقت على قشور لحاء الشجر، وأخذت تعوي

والنباتات الشوكية thistles والقرّاصات nettles.

في تلك الغابة الاستوائية المطيرة.. أشرقت الشمس فامتصت أشعتها الذهبية ضباب الصباح، وكشفت عن وجه الغابة الأخضر الجميل، وغطت الجانب الرطب من بركان هامد.. أصدر ذلك الذكر القائد نعيبا كنعيب البوم من بين شفتيه الكبيرتين المزمومتين، ثم تحرك على قدميه وأخمصيه فتقدم أمتارا قليلة نحو سفح الجبل، ثم جثم على فراش صنعه من قرّاصات (وهي نباتات شوكية يسميها علماء النبات لابورشيا ألاتيبس LAPORTIA ALATIPES)، وهي النباتات التي يمكنها أن تلدغ حتى من خلال طبقة قماش.. ومن دون أن يظهر ما يدل على القلق، دفع هذا الذكر حزمة من نبات القرّاص،



تمطى بعد وجبة الإفطار

وتنتحب. ولما سمع أفراد الفريق هذا النحيب، التفتوا إليها، لكن الأم عالجت أمرها، وعبرت النهر بسلام، ولحقت بالفريق.. وهناك أنثى أخرى تخلفت عن ركب الفريق إذْ أمضت برهة في اغتراف كمية (scoop) من ماء النهر، صبَّتها فوق رأسها، وأسرعت تجري لتلحق بأفراد الفريق.

الفقرات الرئيسة في البرنامج اليومي للغوريلا

تستيقظ الغوريلا بعد الفجر، أو مع أول ساعة لشروق الشمس، بعد أن تكون قد نامت ثلاث عشرة ساعة في أثناء الليل. وأول ما تفعله هو تناولها وجبة الإفطار التي تتألف في المناطق الطبيعية، مثل الكونغو، من نبات الجاليوم galium وكروم الأشجار المتشابكة والنباتات المعترشة vines والكرفس celery

وأخذ يهذبها ويشذبها بإصبعه السبَّابة وإبهامه، ويسحب السوق الشائكة بين أصابعه ليزيل منها أوراقها، ثم يستمتع بمضغ لفافة من هذه الأوراق.. وقد اقتسم هذا الكبير تلك اللفافة مع قرد صغير لم يتعد عمره ثلاث سنوات، وهو أول صغير، بل أول قرد يقفز إلى ذلك الذكر الضخم ليؤانسه في وحدته، حتى ينتهي جميع أفراد الفريق من إعداد أنفسهم لرحلة الصباح، وتناول الإفطار.

وما هي إلا دقائق حتى يتفرق أعضاء الفريق بين الأشجار، تبحث عن الطعام، وتخير منه ما يطيب لها، وتأكله على مهل ودون عجلة من أمرها.. ولم يشرد من هذه القرود أحد، بل لم يخالف أحدها ذلك الذكر القائد الضخم، الذي اكتسى ظهره وجانباه بشعر فضي جعله واضحاً لمن ينظر نحوه من بعيد، وقد

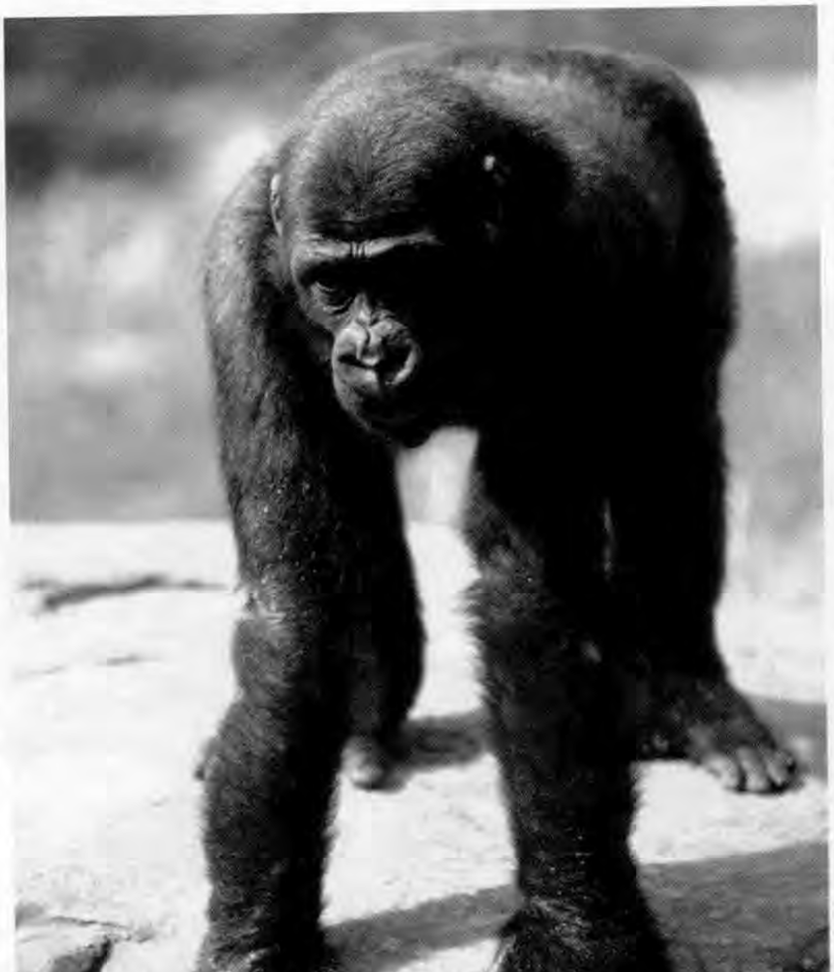
الغوريلا غول الأدغال الخجول

كان هذا الشعر الفضي يتدلى أيضا من قفاه إلى أوراكه.

نترك هذا الوصف الأدبي الأخاذ لفترة الاستيقاظ في الصباح بتلك الغابة، ونقول: إن الغوريلا تتوقف، بعد تناولها وجبة الإفطار، عن الأكل بين التاسعة والعاشرة صباحًا، لتستريح إلى ما بعد الظهر، وتعطي الغوريلا صورة للقناعة والاطمئنان الكامل حينما تحيط بالذكر الفضي الظهر (أي قائد الفريق)، فالكل يستلقي على الأرض، خاصة حين تسقط الشمس على أجسامها.. ويتمطّى الكثير منها، ويتمدد على الأرض، ويستلقي على ظهره أو على جوانبه أو ينطرح على كرشه، مادًا ذراعيه ورجليه، وهناك أفراد أخر تستند إلى إحدى الأشجار، وقد تقوم إحدى الغوريلات ببناء عش لقضاء وقت الراحة فيه.. وعلى وجه العموم، فإن الغوريلات لا تنام ولا يغلبها النعاس في أثناء فترة الراحة، بل تستريح كما أوضحنا، وتعتني بأنفسها فتُفْلي وتحكّ وتنظف أجزاء جسمها، كما ينظّف بعض الفتيان بعضهم الآخر، ويعتني الكبار بالصغار، ولكن يبدو أن العناية المتبادلة فيما بين الأفراد اليافعة، لا تؤدي دورًا مهمًا في حياة هذا المجتمع كما هو الحال في القرود العظيمة الأخرى.

تقضي الغوريلات فترة الراحة، التي تراوح بين ساعة وثلاث ساعات، في أثناءالظهيرة. ويقرر القائد النهوض والتحرك لمسافة ٥٠ ـ ١٠٠متر، ثم يستلقي على الأرض مرة أخرى دون سبب واضح يدفعه إلى هذا الفعل. وبالطبع، فإن جميع أفراد المجموعة تتبعه، مادامت الهيمنة والسلطة العليا بيده في هذا المجتمع: فالموعد والمكان الذي سيستريح فيه الفريق، وطول المسافة التي سيتحرك إليها، واتجاهها، كل هذا وذاك يقرره القائد وحده.. ويلاحظ أن لكل فريق إقليمًا يتجول فيه، تبلغ مساحته ٢٥ ـ ٤٠ كيلوا مترًا مربعًا.. وأقل مسافة تقطعها الغوريلات في اليوم هي مئة متر، وأطول مسافة هي خمسة كيلو مترات.

تقضي الغوريلات فترة ما بعد الظهر في أكل، ثم في نوم، ثم في أكل مستمر حتى يدخل الغسق.. إنها تبحث بتأن وتؤدة شديدين عن الطعام، ويجلس بعضها حول بعض عدة مرات، وتتحرك وتتنقّل، وتكون سرعتها في هذا التنقل ٣ ـ ٥ كيلو مترات/ساعة. وحين تتزايد درجة الظلمة في الغابة، فإنها تبدأ في الإبطاء وتتجمع حول الذكر، صاحب المقام القيادي الأعلى في هذا الفريق، وتجلس دون تفكير، كما لو كان كل واحد منها ينتظر زميله ليبدأ هو الأول في بناء العش. وحين تمتلئ السماء بالغيوم حوالي الساعة السادسة، أو حتى الخامسة، يقوم الذكر القائد بتكسير الأغصان والفروع من الأشجار ليبني بها عشه الشخصي. وتتبعه بقية أفراد الفريق وتصنع مثلما صنع.. وهكذا يبدأ بناء أعشاش (أو مخادع أو أسرّة) النوم، على الأرض أو بين الأغصان أو فوقها، وفي الغالب لا ينام الذكر القائد ملء جفونه بل ينام جالسًا على الأرض، ومتكئًا بأذرعه أسفل إحدى الأشجار، حتى يكون على استعداد في أية لحظة للدفاع عن الفريق إذا شعر بمقدم خطر نحوه.



تمشي الغوريلا غالبًا على قوائمها الأربع

الزواج والحمل والولادة

تتزوج الأنثى من الذكر القائد الضخم، وقد تخرج من الفريق وتتزوج بذكر قوي من فريق آخر، وقد يأتيها ذكر قوي من فريق آخر

إلى مكان فريقها هي، ويتزوجها.. المهم أن الزواج يتم، وبذلك تحمل الأنثى، أيْ يتكوَّن في بطنها جنين. وتحمل الأنثى بجنين واحد كل ثلاث سنوات ونصف إلى أربع سنوات ونصف. وللأسف فإن ٥٠٪ من الذرية تقريبا تموت في أثناء فترة الرضاعة، أو في أثناء فترة الصبا. ويلاحظ أن نسبة الشقية (SEX RATIO) داخل المجموعة هي عدد (٢) أنثى: عدد (١) ذكر، وقد يعود انخفاض نسبة الذكور إلى ارتفاع معدل الوفاة فيها عنه في الإناث.

ولَمَّا كانت بطون الغوريلا كبيرة في أحوالها العادية، فإن تمييز الغوريلا الحامل من الغوريلا غير الحامل، أمر غير سهل، بل يحتاج

القرود الأخرى.. وعموما، فليس هناك وقت محدد للزواج أو للحمل أو للولادة في أثناء السنة. ومن مشاهدات العالم الألماني جرزيميك أن أطفال الغوريلات تنمو بمعدل مضاعف عن معدل نمو أطفال البشر. ويبدأ فطام الغوريلا في منطقة قُبارا KOBARA بالكونغو - التي سجل فيها مشاهداته - بأكل المواد النباتية بعد نحو شهرين ونصف الشهر من ميلادها، ويبدو من الواضح أن هذه النباتات كانت المصدر الرئيس لغذاء الغوريلات التي كانت أعمارها تراوح بين ستة وسبعة أشهر.. ومع هذا، فإن بعض هذه الصغار ظل في فترة رضاعة وصلت أحياناً إلى سنة أو سنة ونصف السنة.





وقع طفل صغير من ارتفاع ستة أمتار ،وسقط في أرض الغوريلات بحديقة حيوان «بروك فيلد» في شيكاغو - إيلينوي (الولايات المتحدة)، وما إن حدث هذا حتى أسرعت الغوريلا بينتي جوا BINTI JUA إليه، وحملته برفق وحنان (على الرغم من التصاق صغيرها بصدرها)، وذهبت به إلى بوابة الموقع ووضعته ووقفت تحرسه من فضول الذكور التابعين لمجموعتها، حتى حضر رجال الحراسة وحملوه إلى سيارة الإسعاف. وتذكر أجهزة الإعلام أن الغوريلا بينتي حظيت بإعجاب الناس الذين توافدوا على الحديقة لزيارتها، ومما يذكر أن «بينتي جوا» تعني في اللغة العربية (بنت الشمس)

إلى تدريب وخبرة.. وتقدَّر فترة الحمل بثمانية أشهر ونصف الشهر، في مقابل ثمانية أشهر تقريبا في الشمبانزي، وثمانية أشهر في إنسان الغابة (الأورانج أوتان)، وتسعة أشهر في الإنسان. ومن الملاحظ في أثناء الحمل أن أعقاب أرجل بعض إناث الغوريلات تتورم في بعض الأوقات، خصوصا الشهور الأخيرة من الحمل، مثلما نرى في نساء البشر تماما.

لا تستغرق عملية الولادة (المخاض) سوى دقائق قليلة فقط، تضع الأم خلالها مولودها، إلا أنها تعاني من الحبل السُّري، ثم تحمل مولودها وتضمه إلى صدرها.

والمولود الحديث لا يستطيع أن يتعلق بأمه مثلما يحدث في

يلاحظ أن أمهات الغوريلات التي يوجد لديها صغار ولدْنها بأنفسهن، لا يشعرن بأية معاداة تجاه الآخرين، حتى إنه يمكن لصغير غريب أن يأتي ويجلس خلف الصغير الموجود بالفعل في حضن أمه، بل يمكن أيضا لهذا الصغير أن يضغط نفسه على صدرها دون أن تدفعه هذه الأم بعيداً..!!

ومن ملاحظات الباحثين في حدائق الحيوان أن إناث الغوريلا التي كانت تلد للمرة الأولى في حياتها، كانت تتحير ولا تعرف ماذا تفعل مع وليدها؟ بالضبط مثل امرأة عديمة الخبرة في معاملة الأطفال الرضَّع، فهي لا تعرف كيف تتعامل معهم؟ وتبدو الأنثى خائفة من وليدها. بل وتبدو أيضاً

منزعجة من عملية الولادة ذاتها، وربما تُظْهِر عداءً تجاه الرضَّع الحديثي الولادة..!!

الغوريلا تحب الحمام الشمسي، ولا تحب حمام المطر

إذا كانت الغوريلا تشعر بالراحة فقط داخل الظلام الذي يلف الغابة، فإنها ـ خاصة غوريلات الجبال والمرتفعات في المناطق الملأى بالضباب والأمطار ـ لا تتحاشى الشمس، بل العكس تمامًا هو الصحيح.

يستلقي عدد من الغوريلات على ظهوره في الأماكن المشمسة عن البحث عن الغذاء في هذه الظروف. وإذا كانت في فترة راحة بالفعل، فإنها تقلب نفسها ظهرا لباطن، أو تجلس منتصبة. وعند بداية هطول المطر الغزير، فإن الصغار تهرع إلى أمهاتها، وإذا كانت القرود الكبيرة جالسة في مكان عار، فإنها تحني رؤوسها حتى تلمس ذقونها صدورها، وكذلك تعقد الغوريلا ذراعيْها على صدرها، وتضع يدها اليسرى على كتفها الأيمن!! وتنتشل الأمهات صغارها الرضَّع في هذه الظروف، وتمسك بها في أذرعها، وتنحني إلى الأمام بطريقة تحافظ على جفاف هذه الصغار.. ثم تجلس في صمت وبلا حركة، وتدع قطرات الماء تتساقط على كتفيها وحاجبيها، حتى



هبط هذا الباحث بآلة تصوير في وسط الأدغال بتنزانيا لكي يصور مجموعة من الغوريلات، واقترب الباحث من الذكر الفضي الظهر ـ أي الزعيم القائد لمجموعة الغوريلات، وعلى الرغم من هذا الاقتراب لم يَهَبْه الذكر القائد، فأسرع الباحث بضبط كاميرته لالتقاط صور له «عن قرب»، لأنها فرصة قد لا تُعوَّض

ساعتين أو أكثر للاستمتاع بحمام شمسي، حتى تعرق وتظهر حبات العرق على شفاهها العليا، كما يجري العرق إلى أسفل على الصدر.. ولم يلاحظ الباحثون ظروفا معينة تتحاشى فيها الغوريلات أشعة الشمس، بل إنها تغادر أماكن راحتها، وتذهب إلى حيث تسطع أشعة الشمس.

أما حمام المطر فإنها ليست متحمسة له تحمسا كبيرا، ففي كثير من المرات تنهض الغوريلا عند بداية حمام المطر، وتقف تحت شجرة، أو تجلس ملتصقة بجذع شجرة حتى تحتمي منه، ويظل جسمها جافًا. وعموما فإنها تبقى جالسة في أثناء هطول المطر. ولا تهتم كثيرا بحمامات المطر الخفيفة، لكنها ـ أي الغوريلا ـ عادة تتوقف يدعو منظرها هذا إلى الرحمة والشفقة، بل يصعب إثارتها وهي في هذه الظروف. ويذكر الباحث تشيللر، في يومياته عن السنوات التي قضاها في قبارا بالكنغو يدرس فيها الغوريلا، أنه بعد أن دام هطول المطر لمدة تزيد على ساعتين، اضطرت القرود إلى القيام بالبحث عن الطعام على الرغم من استمرار هطول المطر. ولوحظ كذلك أنها لا تترك أعشاش نومها مطلقا بسبب هطول المطر، وحتى في أثناء سقوط البرد الكثيف، فإنها أيضًا تتصرف تصرفًا مشابهًا.

الإمكانات العقلية والأحاسيس العاطفية للغوريلا

الغوريلا، على عكس الشمبانزي، لم يشاهدها أحد وهي تستعمل العصِيَّ أو الأدوات الأخرى في حياتها الطبيعية، كما لم

يظهر عليها الفضول وحب الاستطلاع بوضوح تجاه الأشياء الغريبة مثلما يحدث من الشمبانزي وغيره من القرود.

وأما فيما يتعلق بقدرة الغوريلا على التعليم والتدرب واختزان الخبرات، فتذكر المراجع أنه بمؤسسة الغوريلا في «وود سايد» بكاليفورنيا بالولايات المتحدة، توجد غوريلا أنثى شهيرة اسمها «كوكو»، استطاعت معلمتها «فرانسين باترسون» (بجامعة ستانفورد الأمريكية) سنة ١٩٧٢م أن تدربها على استعمال أزرار كمبيوتر، فإذا ضغطت القردة «كوكو» على أحد الأزرار انطلقت من الكمبيوتر كلمة مسموعة، ولكل كلمة إشارة مرسومة على الزر.. فإذا أرادت «كوكو» أن تأكل تفاحة تضغط على الزر المرسوم عليه تفاحة، فتنطلق كلمة تفاحة (أو أريد تفاحة) من الجهاز.. وهكذا استطاعت «كوكو» بفضل صبر السيدة باترسون ودأبها - أن تستوعب ٣٧٥ إشارة في ذاكرتها الشخصية. ومما يذكر أيضاً أن علماء الطباع حاولوا العثور على «عريس» (ذكر الغوريلا) لهذه القردة «كوكو» فعرضوا عليها القرد ميخائيل، فرفضته بعد أن عايشته فترة، وتأكدت، بسبب طباعه السيئة، من وجود مرض في معدته كان يشكو منه.. وبعد فترة وقعت كوكو في غرام الذكر «بونجو» الذي شاهدته على شاشة الفيديو، فأخذت تقبّل الشاشة، ولكن هذا الحبيب كان في حديقة حيوان روما، فلما طلبته مؤسسة الغوريلا الأمريكية رفضت تلك الحديقة إعارته لها، فحزنت كوكو، وأصابها الاكتئاب.. وبعد فترة تناست كوكو هذا الذكر الذي أحبته، ثم وقعت في غرام ذكر آخر هو «ندوم» وهو موجود في حديقة حيوان بروكفيلد في شيكاغو بالولايات المتحدة، وقد غمرت الشاشة بالقبلات حين رأته بالفيديو..

وهناك ذكر غوريلا اسمه «تيمي» في الثلاثينيات من عمره، يعيش في حديقة حيوان كليفلاند بالولايات المتحدة منذ أواخر سنة ١٩٩٠م، وقررت إدارة الحديقة نقل «تيمي» إلى حديقة حيوان برونكس بغرض تزويجه من أربع إناث غوريلا هناك، ضمن مشروع لحماية بعض الحيوانات من الانقراض، لكن الإدارة فشلت في هذه المحاولة، لماذا؟ لأن «تيمي» كان متيّما بإحدى إناث الغوريلات في حديقة الحيوان نفسها التي كان يعيش فيها (أي حديقة كليفلاند)، وكان اسمها «كريبي»، ووصل من غرامه بها أنه لم يكن يستطيع النوم إلا معها، وكلما فصلوه عنها أصيب بالحزن والاكتئاب، لكن المشكلة - ليست عند تيمي وإنما عند إدارة الحديقة - وهي أن المعشوقة «كريبي» أنثى عقيم، ولا فائدة - في نظر المسؤولين - من وجود تيمي معها، فاتخذوا قرارهم بنقله وتزويجه من إناث تلك الحديقة (برونكس).. وهنا ثارت حفيظة «أنصار حقوق الحيوان» ورفعوا دعوى قضائية ضد الإدارة، ووكّلوا المحامية جلوريا هامكوك للدفاع عن «تيمي» وغرامه بـ «كريبي»، وعدم حرمانه منها.

تعـيش الغـوريلا في مجموعات، أو فرق، يصل عدد أفرادها إلى ٢٠ فرداً أحيانًا، ويقود الفريق أقوى الذكور وأضخمها، وهو «الذكر الفضي الظهر»

الغوريلا مهددة بالانقراض

حسب تقديرات وإحصاءات الستينيات، يوجد من الغوريلا في مواطنها الطبيعية في قلب إفريقية وغربها - وهي المكان الطبيعي الوحيد في العالم الذي توجد فيه الغوريلا - ٥٠ ألف - ٦٠ ألف قرد، وإنْ كان هناك بعض الباحثين يقدر عددها بنحو ٥٠٠٠ - ١٥٠٠٠ قرد، خاصة غوريلا الجبال والمرتفعات. وقدَّر العالمان تشيللر وروتس ROOTS أعداد هذه الغوريلا بنحو ٤٠٠٠ - ٥٠٠٠ قرد حول براكين فيرونجا، و٢٠٠ قرد آخر في عشر مجموعات بمنطقة قبارا في الكونغو.

وحسب تقديرات الباحثين في الثمانينيات، فإن عدد الغوريلا في مواطنها الطبيعية لا يزيد على ١٠٠٠٠ قرد!! فما الأسباب التي أدت - ولا تزال - إلى التناقص المستمر في أعداد هذه القرود في العالم؟

تتلخص هذه الأسباب فيما يلي:

- اصطياد الغوريلا لأكل لحومها أو لبيعها: فمن الثابت أن السكان الأصليين في إفريقية يطلقون أسلحتهم على إناث الغوريلا، ليأكلوا لحومها، على الرغم من وجود القوانين التي تحرم هذا، كما أنهم يصطادون الغوريلات الصغيرة السن ليبيعوها لمن يُطْلَقُ عليهم اسم «اللقَّاطين»، وهم وسطاء يبيعونها بأسعار عالية إلى حدائق الحيوان، أو معامل الأبحاث، أو حلقات السيرك، أو ما شابه ذلك.

- قطع الغابات واستثمار أراضي الغوريلا، وذلك للتزايد المستمر في التجمعات البشرية في أنحاء إفريقية - كغيرها من العالم - وهذا يتطلب البحث عن أماكن إضافية لسكنى البشر.. ومما يذكره الباحثون أن الغوريلات كانت تجول كثيراً في الغابات الاستوائية الكثيفة لسنوات قليلة ماضية، إلا أن السكان هناك قطعوا الغابات لأغراض أهمها استثمار أخشابها، وإخلاء الأراضي من أجل زراعتها بالمحاصيل الزراعية، أو تركها تنبت فيها الأعشاب لرعي الماشية. ومما ساعد هؤلاء السكان على التوسع الزراعي المستمر خصوبةُ التربة التي ألقتها البراكين فيما بين الكونغو ورواندا، على سبيل المثال.. وغوريلا الجبال والمرتفعات مهددة الآن بالانقراض، وإن كان الأمر بالنسبة لغوريلا السهول والمنخفضات ليس بالدرجة نفسها من الخطورة.

مقالات

إسرائيل ولعبة بنوك المياه في المنطقة العربية

مصطفى محمد خلاف

بدأت إسرائيل في الفترة الأخيرة توطيد علاقتها مع دول كثيرة في أوربا وأمريكا من أجل غزو المنطقة العربية مائيًا، ومن أجل السيطرة على مقدرات المنطقة المائية، وذلك بتعديل القوانين والأفكار والمفاهيم الخاصة بهذا الشأن.

وفي هذا الإطار سعت إسرائيل من خلال الاتفاقيات التي وقعتها مع كل من الأردن وفلسطين إلى التعرض لبنود جديدة على رأسها تسعير المياه، وهو ما يسمى بالمياه العابرة، أي الأنهار الدولية التي تعبر من دولة لأخرى وتروي أرض الدولتين، فقالوا: إن الأنهار العابرة ليست أنهارًا دولية، ومن ثم، فمن حقهم قطعها في أي وقت! كذلك تطالب إسرائيل بإنشاء بنوك لمياه المنطقة حيث يعاد توزيع هذه المياه حسب الظروف الاقتصادية لكل دولة.

وما قالت به إسرائيل يعد مخالفًا وبشكل قاطع ومخل لبنود القانون الدولي، لأنها بذلك تسلب الدول العربية سيطرتها على مواردها المائية.

تسعير المياه ومفاوضات السلام

على أن خلفية المقترح الإسرائيلي والخاص بتسعير المياه، ومن ثم بيعها تعود إلى مفاوضات السلام العربية الإسرائيلية؛ وذلك لإيجاد مخرج إسرائيلي للطريق المسدود في المفاوضات على المياه، إذ إن إسرائيل قد حصلت نتيجة احتلالها أجزاء من البلاد العربية على أكثر من نصف ما تستهلك من مياه سطحية وجوفية.

وتذكر إحدى الدراسات على سبيل المثال أن السحوبات الإسرائيلية قد بلغت نحو ٦٥٠مليون متر مكعب من مياه نهر الأردن، و١٠٠مليون م٣ من مياه نهر اليرموك، بينما خصص لها مشروع جونسون الأمريكي عام ١٩٥٥م، وكان كريمًا إلى أبعد حد معها، ٣٧٥مليون م٣ من مياه نهر الأردن، و ٢٢مليون متر مكعب من مياه نهر اليرموك(١).

خسائر كبيرة عند الانسحاب

وتشير دراسة أخرى إلى أن الانسحاب الإسرائيلي من الأراضي العربية التي احتلت عام ١٩٦٧م، سيفقد إسرائيل حوالي ٦٥٪ من مواردها المائية المتاحة في ظل الاحتلال(٢).

ولا يخفى أن إسرائيل اعترضت خلال المفاوضات المتعددة الأطراف الخاصة بأوضاع المياه، التي عقدت في فيينا في مايو /أيار١٩٩٢م على أية برامج أو سياسات لإعادة النظر في توزيع المياه على المنطقة.

كما أن أحد المسؤولين الإسرائيليين قد صرح بأن إسرائيل لا تقبل بأن تكون تابعة لأي من جاراتها في مجال المياه حتى في زمن السلام(٣).

وتصر إسرائيل، خلافًا لاتّفاقيات جنيف حول قوانين الحرب، أن لها حقًا مكتسبًا في المياه التي تستخدمها بما في ذلك المياه الجوفية.

الماء كالأرض من يأخذ أكثر من حصته كمن يتعدى على أرض غيره

تسعير المياه في العلاقات المائية الدولية وبيعها

يقضي مقترح تسعير المياه الدولية وبيعها بأن يفتح في صندوق مشترك حساب لكل الدول ذات شاطئ على مجرى مائي دولي يسجل فيه ثمن الماء الدولي الذي لديها، على أساس أن قيمة المتر المكعب تعادل أرخص قيمة ماء بديلة - مثل قيمة المتر المكعب من الماء

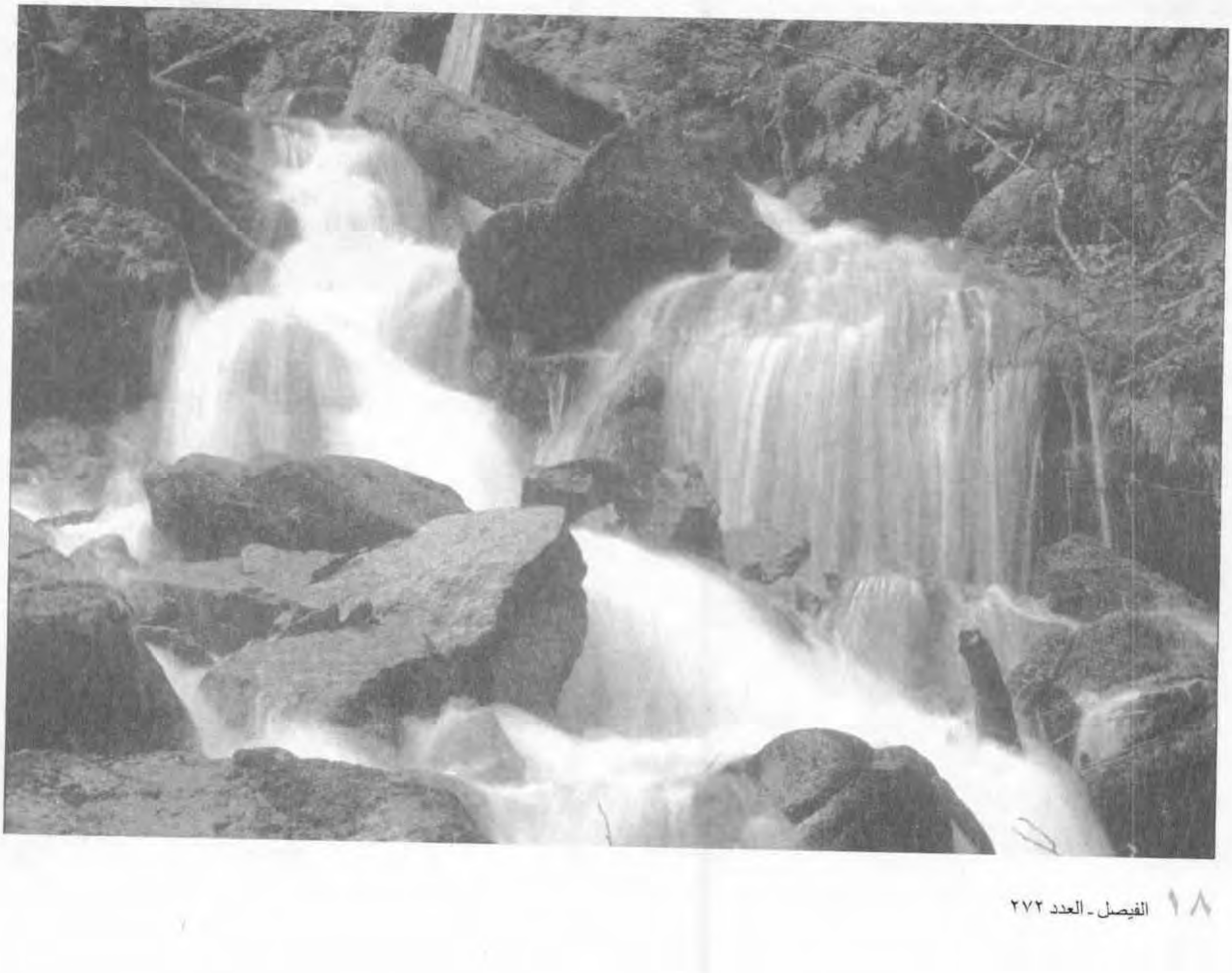
المحلى من البحر - وتدفع كل دولة قيمة الماء الذي تستهلكه (أو تطالب بالحصول عليه)، وتحتسب هذه القيمة من حصة الدولة في الصندوق المشترك، فإما أن يكون الحساب مديناً فتدفع الدولة الفرق أو دائناً فتحصل الدولة على هذا الفرق، ولتسهيل عملية البيع والشراء، فإن هذه العملية لا تطبق على مجموع المياه، بل على الحصص المختلف عليها فقط!!

الانسحاب الإسرائيلي من الأراضي العربية التي احتلتها في عام ١٩٦٧م يفقدها ٦٥٪ من مواردها المائية

ولا شك أن هذه الفكرة غريبة لا سابق لها في تاريخ العلاقات المائية الدولية، حيث لا توجد أية معاهدة ثنائية أو متعددة الأطراف تشير إليها أو إلى أية ممارسات عملية أو مطالبات رسمية بممارسة حق البيع. في الوقت ذاته نجد أن المنطقة العربية تعد من أقل مناطق العالم نصيباً في الموارد المائية، مما أثَّر بوضوح في معدلات التنمية الاقتصادية والاجتماعية.

المياه الدولية وموقف الأمم المتحدة

أكدت الأمم المتحدة في عام ١٩٧٤م في ميثاق الحقوق والواجبات الاقتصادية للدول في قرارها رقم ٣١٨١ أن المياه الدولية مورد طبيعي مشترك، كما يقول الميثاق الأوربي للمياه عام ١٩٦٧م في المادة ١٢ منه: «إن الماء لا يعرف الحدود»، ومن هنا فالعنصر الأساس في الماء أنه متنقل، وليس سائلاً كالبترول الذي هو ثروة قابلة للنضوب تبقى تحت الأرض، ويمكن الاستغناء عنها بطاقات بديلة، ويمكن الاحتفاظ بها إذا لم يتم بيعها، أما الماء السطحي فهو ثروة متجددة، ويجري خارج حدود الدول بصرف النظر عن إرادة هذه الدول. كذلك تحويل مجرى المياه الذي هو مستحيل في كثير من الحالات،





ليندون جونسون

جدول رقم(١): توزيع الموارد المائية حسب الأقاليم على مستوى العالم

الأقاليم	مصادر مياه داخلية متجددة سنويًا		نسبة السكان الذين يعيشون في بلدان ذات موارد شحيحة سنويًا للفرد	
	الإجمالي بالألف كلم مكعب	حصة الفرد بالألف متر مكعب	أقل من ألف متر مكعب	من ألف إلى ألفي متر مكعب
إفريقية جنوب الصحراء	٣.٨	٧.١	٨	١٦
شرق آسيا والمحيط الهادي	٩.٣	٥.٣	١	٦
جنوب آسيا	٤.٩	٤.٢	.	.
أوربا الشرقية والاتحاد السوفيتي سابقًا	٤.٧	١١.٤	٣	١٩
بلدان أوربا الأخرى	٢.٠	٤.٦	٦	١٥
الشرق الأوسط وشمال إفريقية	٠.٣	١.٠	٥٣	١٨
أمريكا اللاتينية	١٠.٦	٢٣.٩	١	٤
كندا والولايات المتحدة	٥.٤	١٩.٤	.	.
العالم	٤٠.٩	٧.٧	٤	٨

لا يتم إلا بشكل مصطنع، وينتج عنه ضرر مقصود بالدولة المجاورة.

كما أكد أحد المندوبين في الجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٩٣م أن «الماء كالأرض من يأخذ أكثر من حصته كمن يتعدى على أرض غيره» (وثيقة الأمم المتحدة /A/CN4 957 فقرة ٤٣١).

نخلص من ذلك إلى أن الوضع القانوني للمياه الدولية مختلف بشكل أساسي عن الوضع القانوني للبترول، ولا تصح الموازنة بينهما بحجة أن كليهما مورد طبيعي وثروة وطنية، ولذلك فهو قابل للبيع.

وتجدر الإشارة إلى أن التقرير الختامي لأعمال المؤتمر الوزاري العربي للزراعة والمياه، الذي عقد بالقاهرة خلال الفترة من ١٩ - ١٩٩٧/٣/٢٧م أكد رفض جميع المقترحات التي يروج لها لبيع وشراء المياه الدولية، ورفض جميع مشروعات إنشاء بنوك للمياه، والوقوف أمام الأطماع الإسرائيلية في المياه العربية. وأكد الشيء نفسه إعلان القاهرة لمبادئ التعاون العربي الصادر عن وزراء الزراعة والمياه العرب، الذي طالب بتنمية الموارد المائية العربية وحمايتها.

دوافع تسعير المياه والوضع المائي داخل إسرائيل

يفسر ذلك التضاعف الكبير لاستخدام المياه داخل إسرائيل، وهو واضح بصورة حادة.. فقد بلغ عام ١٩٩٠م ١٨٥٠ مليون متر مكعب مقابل ٣٥٠ مليون متر مكعب عام ١٩٤٩م، منها ١٢٤٠م٣ للاستهلاك الزراعي و ١٢٠م٣ للاستهلاك الصناعي و ٦٣٠م٣ للاستهلاك المنزلي، مما يعني أن متوسط استخدام الفرد يبلغ ٤٣٠ لترًا في اليوم بينما لا يتجاوز ٢٧٠ لترًا في اليوم في أكثر دول العالم تقدمًا!!

فإذا أخذنا في الحسبان التزايد الطبيعي للشباب وجلب المهاجرين الذين تخطط إسرائيل لقدومهم ببناء مستوطنات جديدة، فسوف نجد أن تعدادها سوف يصل عام ٢٠٣٠م إلى أكثر من ١٠ملايين نسمة، وسيكون من العسير أن يضحي الإسرائيليون بمستوى استخدام كميات المياه المنزلية الحالية.

لذلك فمن المؤكد أن حجم المياه المطلوبة للاستخدام المنزلي عام ٢٠٣٠م ستصل إلى حوالي ١٣٠٠ مليون متر مكعب في العام الواحد، وللصناعة ٢٥٠ مليون متر مكعب في العام الواحد، بإجمالي عام يساوي ١٥٥٠ مليون متر مكعب، وهنا - حسب ما نرى - سيكون أمام إسرائيل عدة أبدال محدودة يتمثل بعضها في الآتي:

- تقليل الأراضي الزراعية الحالية إلى ٣٤٪ من مساحتها الكلية، وهو أمر لن تقبله إسرائيل بأي حال من الأحوال.
- إبقاء المساحة الزراعية على ما هي عليه وسحب ما يقرب من ٨١٠ مليون متر مكعب من المياه العربية، وهو ما تسعى إليه بالفعل.
- التوسع زراعيًا بما يتناسب وتعداد السكان، وفي هذه الحالة سيكون العائق الوحيد هو المياه، وستحتاج إلى ملايين الأمتار المكعبة لتنفيذ ذلك.

ولكنْ: أيُّ هذه الخيارات سوف تقدم عليه إسرائيل؟ والإجابة معروفة لكل ذي عقل. ولكن السؤال هو: ما موقف العرب حيال ذلك؟

المراجع

1- DONALD NEEF, I.STAEL - SYRIA CONFLICTAT THE JORDAN RIVER, 1949 - 1967, JOURNAL OF PALESTINIAN STUDIES, SUMMER 1994, P.33 NOTE 41.

٢- عباس قاسم - الأطماع بالمياه العربية وأبعادها الجيوبوليتيكية، مجلة المستقبل العربي، ١٩٩٣ عدد ٨ ص٥١.

3- JERUSALEM REPORT, 13 FEBRUARY, 1992.

4- HILLEL SHUVAL, LE PROBL'EME DU PARTAGE DE L'EAU ENTERE ISRAEL ET LES PALESTINIENS IN MAGHREB - MACHRK P.37.

مصدر الإحصاءات: البنك الدولي، تقرير عن التنمية في العالم، أيار/ مايو ١٩٩٢م.

نافذة على التربية

عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر

ينظر الكبار إلى الصغار أحياناً نظرة تجعلهم يضلون الطريق الصحيح الموصل إلى حسن التربية، ونجاح التأديب؛ ينظرون إليهم وكأنهم كبار، ويعاملونهم على هذا الأساس، ويتوقعون منهم ما يتوقعونه من أنفسهم، فيطالبونهم بما لا يستطيعونه، ويتوقعون منهم تصرفًا لا يمرّ في خلَد أحد من الصغار أن يعرفه، أو يقبله إذا عرف به، وينسى الكبار أن الفارق بينهم وبين الصغار في السن كبير، وهذا يستوجب أن يدرك الكبار أن هذا الفارق لا يقف عند السن فقط، ولكن يتبعه فارق في النمو، وهذا يتبعه نقص في الإدراك، وهذا النقص يتبعه خلل في التصرف، وهذا الخلل يبعث على الحنق والسخط عند الكبار، فينسون، أو يجهلون التصرف السليم تجاهه، فيأتي العقاب غير متناسق مع الذنب، فيه قسوة، وله نتائج غير حميدة، قد تترك ندوبا في نفس الصغير لا تندمل، وقد تؤثر في مستقبله.

وينسى الكبار أنهم كانوا في يوم من الأيام صغاراً، وأنهم كانوا يتصرفون في ضوء المقاييس التي يتصرف بها الآن صغارهم، ولو رجعوا إلى الوراء لاستعاضوا عن العقاب بابتسامة تَستَذْكرُ مواقفهم المماثلة في صغرهم، ولِتَذكَّروا الأسس التي كانوا يراعونها وتحكمهم في تصرفاتهم.

أذكر أننا ونحن صغار في عنيزة، وكانت الأبقار تُخْرج في الصباح، ويأخذها راع إلى الصحراء، وقت الربيع، عندما تكون الصحراء مخضرة بالعشب، ونحن الصغار نستقبلها عند أحد أبواب سور المدينة في المساء، ثم نعود إلى بيوتنا ركضا، نتسابق، ونتلوى مع أسواق المدينة الضيقة، ناسين الأخطار التي تنتظر الغافلين من المارة، مع أنه يسبقنا صراخ، نريد به التنبيه ظاهراً، ونريد به باطنًا حث البقرة حتى تسبق غيرها، وليس هذا هو الخطأ الوحيد، فقد يكون لهذا مسوغه الذي نقدمه أمام اللوم، وإن كان غير حقيقي، وهو أننا نحرص على العودة بسرعة حتى لا تفوتنا صلاة المغرب جماعة، والحقيقة أننا نريد أن نسبق غيرنا، والخطأ الأكبر الذي لا نجد له مسوغًا، ويأتينا باللوم العميم، هو أننا، وبكل قسوة، نلوي ذيل البقرة، حتى تطير من الألم، فإذا رآنا أحد الكبار، الذي لهم سلطة علينا، فالويل لنا.

لو رأيت ابني اليوم يرتكب مثل هذا العمل الشائن، تُرَى هل سأتذكر أني قد فعلت بالأمس ما يفعله اليوم، وأكتفي بابتسامة، أو أستعرض قوائم العقاب لأنزل به ما يمليه الغضب، في تلك اللحظة، من عقاب.

عرامة(١) الطفل في الصغر محمودة عند آبائنا، لأنها تدل على النجابة، وعلى أنه عندما يكبر الصغير سوف تكون هذه نواة لشجاعة فائقة، وإقدام مُتناه، وقد تتبعوا هذه المظاهر في الصغار فوجدوها تصدق عندما يكبرون.

وقد حمل التراث بعض أقوالهم في هذا، وهي أقوال جاءت نتيجة ملاحظة متأنية، ونظرة محققة، وتجربة متنوعة، ونتيجة تدبر وتبصر، والأمر كذلك، أن تكون صادقة المدلول، مصيبةً للهدف.

قال عمرو بن العاص، وهو مَنْ عُرِف بعقله وذكائه، وعمق نظرته إلى الأمور، ومجيء الحكمة على لسانه:

«أكرموا سفهاءكم، فإنهم يقونكم العار والشنار»
(أدب الدنيا والدين:٢٦٦)

وقال مصعب بن الزبير، وهو الشجاع المجرب، والقائد المحنك، والذكي الحكيم:

«ما قل سفهاء قوم إلا ذلّوا»

وقال أبو تمام الطائي:

«والحربُ تركب رأسها في مشهد
عُدل السفيهُ به بألف حليم
(أدب الدنيا والدين:٢٦٦)

إذًا فما يأتي من الصغير، مما يعتبر شقاوة وتمرداً، لا يخلو من إضاءة مفيدة، والإنجليز يقول حكيمهم:

«ليس هناك سحابة داكنة إلا وداخلها بطانة بيضاء»

وعلى هذا، إذا أخطأ الصغير، فلنؤجل محاسبته، حتى نتأنّى، ونتبصر ونتدبّر: هل يستحق عقاباً؟ فإن كان، فما هو؟ وأما القسوة فيجب أن تمحى من معجم التأديب.

الهوامش

١- عَرِم الصبيّ: فرح وبَطِر أو فسد.

الأفكار الاقتصادية الرائدة لابن خلدون

نعوم إبراهيم عبود

هناك إجماع ـ في الشرق والغرب معًا ـ على أن ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع، وأن ما صاغه وقدمه، هو فكر من النوع الريادي والعبقري، وقد ظهرت حديثًا كتابات ودراسات وأبحاث كثيرة ـ باللغات الأجنبية فضلاً عن العربية ـ عن ابن خلدون تراه رائدًا من رواد تطبيق المنهج العلمي، وبشكل خاص الاستقرائي على الشؤون الإنسانية، وتبرز أفكاره الاقتصادية الرائدة.

ويعزو الدكتور عارف دليلة ـ أستاذ الاقتصاد في جامعة دمشق ـ في دراسته القيّمة عن «مكانة الأفكار الاقتصادية لابن خلدون في الاقتصاد السياسي» يعزو الكتابة الكثيرة ـ في الوقت الحاضر ـ عن ابن خلدون وأفكاره التي تجاوزت ما كتب عن أي مفكر عربي آخر، إلى روح الحداثة والمعاصرة التي تشع من أفكار ابن خلدون في أيامنا هذه.

ويكفي للتدليل على أهمية فكر ابن خلدون الريادي، ومكانته الرفيعة في العالم وخاصة لدى المفكرين والمنصفين في الغرب، أن نذكر ما قاله المؤرخ البريطاني الشهير أرنولد توينبي عن ابن خلدون، فيما يلي:

«ففي ميدان نشاطه الفكري يبدو أنه [ابن خلدون] لم يتأثر بأي من سابقيه، ولم يوجد من يضاهيه بين معاصريه، ولم يثِر فكره الريادي، أي رد فعل بين من تعاقبوا بعده، ومع ذلك فإنه في «مقدمته» وكتابه «العبر» قد تصور وصاغ فلسفة تاريخ هي



عبد الرحمن بن خلدون

من دون شك أعظم الأعمال الفكرية في مجالها، التي لم يتوصل إليها بعد، أي عقل بشري في أي زمان ومكان».

وإننا ـ معشر العرب ـ إذ نعتز ونفتخر بهذه الشهادة المنصفة من مفكر ومؤرخ عالمي كبير، لا نريد لابن خلدون أن ينظر إليه سوى أنه رائد فكري عظيم، ولا ندعو أن يلتزم الناس كل آرائه التي استقرأها، أو اعتقدها في القرن الرابع عشر، وهم في القرن العشرين لمجرد أنه ابن خلدون.

لاشك أن ابن خلدون رائد، وقد طرح في مقدمته الشهيرة كثيرًا من المبادئ والأسس في فروع العلم والمعرفة كافة، ولكن يجب ألا يحاسب إلا على أساس أنه رائد؛ لأن الرواد قوم مخضرمون يعيشون في مستويين: المستوى الذي نشؤوا فيه وربوا، والمستوى الذي تطلّعوا إليه وطمحوا.

ولهذا يجب ألاّ يحاسب ابن خلدون بصفته عالمًا من علماء القرن العشرين في

البلاد المتقدمة، وإنما ينبغي أن ينظر إليه من خلال مرحلته وعمره، فيبدو عملاقاً مستشرفاً للآفاق البعيدة، وأبا راسخ القدم من آباء الاتجاه العلمي.

حياة ابن خلدون وأشهر مؤلفاته

ولد عبدالرحمن (ابن خلدون) واسم أبيه محمد في تونس عام ٧٣٢هـ - ١٣٣٢م، وتوفي في القاهرة عام ٨٠٨هـ - ١٤٠٦م. أما شهرته فهي ابن خلدون، وقد أصبح هذا الوصف علماً عليه، إذا أطلق من دون تحديد انصرف إليه وحده. وينتسب إلى أسرة كانت معروفة في إشبيلية الأندلسية ومنطقتها، ثم في شمال إفريقية، وتدعى ببني خلدون. والأسرة (الخلدونية) حسب أرجح الآراء، أسرة عربية تعود إلى أصل يماني حضرمي. وحين بلغ ابن خلدون سن التعليم بدأ والده المثقف بتعليمه، ثم استعان بأساتذة آخرين.

عرف ابن خلدون خلال حياته ممارسة الحكم والقضاء والسفارة، في بلاط حكام تونس وفاس وغرناطة، وتفرغ للعلم، فوضع كتابه الذائع الصيت: «العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر»، الذي أصبحت (مقدمته) أول الأبحاث وأشهرها في علم الاجتماع. تضمنت المقدمة تحديد مبادئ دراسة التاريخ ومهامها وطرائقها، كما تضمنت نظرية ابن خلدون في تطور المجتمع.

وكتبت المقدمة بأسلوب يدل على أن صاحبها يعدّها أثراً يجمع بين العلم والأدب، بين التوجيه والتنقيب، لذلك جمعت بين الأسلوب العلمي ورونق الأسلوب الأدبي. و(ابن خلدون) يبدو في مقدمته أستاذاً يخاطب القارئ على أنه تلميذ له، ويستخدم لذلك أفعال الأمر والمخاطبة، مثل: «... وتأمل الأخبار واعرضها على القوانين الصحيحة يقع لك تمحيصها بأحسن وجه...». وقد يستشهد بالأمثال: مثلما جاء في معرض حديثه عن تقليد الناس لحكامهم «كما يقال في الأمثال الحكمية: الناس على دين الملك».

الفكر الاقتصادي الخلدوني

إن أكثر ما كتب عن الفكر الخلدوني الإبداعي - في السنوات الأخيرة - يدور حول الأفكار الاقتصادية البكر التي تضمنتها مقدمة ابن خلدون الشهيرة والسباقة في علميتها ودقة صياغتها، بمقاييس عصرنا الحاضر بمستوى العلم الاجتماعي في العصر الذي كتبت فيه، أي منذ حوالي ستة قرون وبقرون عديدة بعده.

يقول أستاذ الاقتصاد في جامعة جورج تاون الأمريكية الدكتور إبراهيم عويس في بحث نشر في عام ١٩٨٧م:

«إن أفكار ابن خلدون العظيمة في الاقتصاديات تجعله - بحق وجدارة - أباً لهذا العلم، وإن كان هذا اللقب التشريعي قد منح لـ (آدم سميث) ذلك المفكر الذي عرفه العالم بعد (ابن خلدون) بأكثر من ٣٧٠ عاماً».

إن أبرز ما يتميز به الفكر الاقتصادي الخلدوني، كونه فكراً اجتماعياً، يدرس الظاهرات الاجتماعية في أطرها وأبعادها، في أسبابها وآثارها الاجتماعية، بل ويبدأ بتفسير الظاهرات الاجتماعية بالكشف عن أسبابها الاقتصادية، ويتابع تطورها مع متابعة حركة تطور هذه الأسباب الاقتصادية.

ويعجب الاقتصادي الحديث بابن خلدون، ويعجب منه حين يجده قد اكتشف جوهر الحياة الاقتصادية وهو العمل، فابن خلدون يرى أن كسب الرزق يقوم على عمل الإنسان وسعيه، وأما دور الطبيعة من مطر وتربة ومواد خام، فدور معين للعمل الإنساني ولا يغني بنفسه.

ومن الأدلة على أن العمل هو قوام الحياة الاقتصادية ما أكده ابن خلدون من أن ازدهار الاقتصاد يكون نتيجة لكثرة الأعمال، وتقهقره يكون نتيجة لضمور الأعمال في أواخر عهود الدول والحضارات.



أرنولد توينبي

فضلاً عن أقواله الصريحة التي تقوّم الإنتاج وبقية ظواهر الحياة الاقتصادية على العمل الإنساني.

إن آراء ابن خلدون وأفكاره ونظريات الاقتصادية الرائدة متعددة، ولإعطاء فكرة عن بعضها نوجز أهمها فيما يلي:

نظريته في المالية العامة

يرى ابن خلدون أنه مع تطور الدولة تزداد حاجاتها إلى المال وفرض الضرائب، وهو يؤكد ضرورة تخفيض عبء الضرائب على السكان، لكن ينشطوا للعمل ويرغبوا فيه وتزداد - ثرواتهم، فتكثر الجباية. ويقول بوضوح: «بمقدور النظام الضريبي جباية مبالغ كبيرة من خلال الرسوم القليلة».

وكان يريد أن يقول: إنه كلما زادت حدة الضرائب قلت العائدة، وكلما قلت الرسوم وانخفضت زادت العائدات تلقائياً من خلال الازدهار التجاري، ومن خلال تجنب الضرائب الفاحشة التي تعيق حركة الإنسان وإبداعاته، فكلما انخفضت الرسوم والضرائب تصاعدت الطاقات والرغبة في الإبداع والعمل لدى المواطنين، مما يساعد على نمو المشاريع واتساع حركة العمران.

وآراء ابن خلدون هذه تتفق من حيث الهدف مع النظرية «الفيزيقراطية» حول الضرائب، وهو يدعو إلى نظام مثالي موضوعي في قضية الضرائب، ونستطيع القول: إن نظرية (لافير) الضريبية ليست إلا تجمعاً منسقاً لأفكار وآراء وضعها (ابن خلدون) في القرن الرابع عشر.

وكان لابن خلدون أيضاً إسهامات كثيرة في نظرية المال، فالمال، في نظره، لا يعني الثروة إطلاقاً، كما أنه ليس شكلاً من أشكال الغنى، بل مجرد أداة يستطيع بها الإنسان اكتساب الكثير، وكان ابن خلدون أول من عرف الوظيفة المالية كقيمة معيارية فقط.

ابن خلدون والملكية الخاصة

لقد كان ابن خلدون من أنصار الملكية الخاصة للإنسان، وهو يدعو لعدم التعرض لها بأي شكل من الأشكال، لأنه يرى ذلك إهداراً للحوافز الفردية وخنقًا لها، مما يؤدي - في النهاية - إلى الانهيار العام للنظام، كما يعدّ نزع الملكية أشبه بعملية انتحار ذاتي وجماعي للنظام نفسه، لأن ذلك - حسب مفهومه - شكل من أشكال القمع والاضطهاد والتخريب الاقتصادي. لقد جعل ابن خلدون الملكية الخاصة غريزة خاصة بالإنسان، ويرى أن الإنتاج غير ممكن إلا على أساس الملكية الخاصة، وهو في ذلك متقدم كثيرًا على المفكرين البرجوازيين والفيزيوقراطيين، وسميث، وريكادو... إلخ، الذين وجدوا في الملكية الخاصة دعامة للإنتاج وقاعدة للنظام الاجتماعي، حتى جعلوها جزءاً من النظام الطبيعي.

إن الملكية الخاصة التي يطالب ابن خلدون بتوفير الشروط لنموها وحمايتها، هي الملكية الخاصة الناشئة عن العمل الشخصي المنتج.

نظرية في النقود

نلاحظ في كتابة ابن خلدون عدداً من الأفكار العميقة بخصوص النقود، فهو يجعل الذهب والفضة مقياس كل ثروة، ويرى أنهما بالنسبة إلى أغلبية أهل الأرض وسيلة للاكتناز والازدهار. ويقول: «إنّ الله خلق الحجرين المعدنيين من الذهب والفضة قيمة لكل متمول... وهما الذخيرة والقنية لأهل العلم في الغالب...».

لقد لاحظ ابن خلدون أن الذهب والفضة يتميزان من المنافع الأخرى باستقرار قيمتهما، وهذا ما جعلهما يتحولان إلى نقد. ولكنه أخطأ عندما جعل أن هذه المعادن لا تتعرض لأية تقلبات في أسعارهما في السوق.

لقد كان ابن خلدون من أنصار تداول النقود الكاملة، وكان موقفه هذا موجهاً ضد قيام الدول والمزورين في القرون الوسطى بنشر النقود المزيفة.

وقد فسر ابن خلدون ولأول مرة في الفكر الاقتصادي، جوهر النقود استناداً إلى نظرية القيمة في العمل، وهو ما لم يستطع تفسيره ممثلو المدرسة الكلاسيكية بعد ابن خلدون. لقد عمم ابن خلدون العمل، لكونه جوهر القيمة، على الذهب والفضة، وأوضح بأن هذين المعدنين يقومان بتجسيد قيمة كل ما ينتجه الإنسان بعمله، وبين أن تحول هذين المعدنين إلى نقود كان بفضل تطور المجتمع والعلاقات التبادلية، وحيث تكون البضائع قليلة، يكون التبادل بسيطاً، فلا ضرورة للنقود.

كان أرسطو يرى أن النقود ظهرت نتيجة الاتفاق بين الناس، لتقوم بوظيفة وسيلة التبادل. ولقد انتشرت هذه النظرية في أوروبا في القرون الوسطى، أما ابن خلدون فقد وجد في النقود مقياساً للقيمة؛ لأنها تحمل قيمة بحد ذاتها، وهي النظرية التي دعيت بالعلمية، ونادى بها الاشتراكيون بعد ذلك.

نظريته في الأسعار والاستهلاك

كان ابن خلدون أول من أقام السعر على أساس موضوعي هو قيمة البضاعة، فالسعر هو التعبير عن قيمة البضاعة، أي عن العمل المبذول في إنتاجها، وتبدو نفقات العمل في إنتاج البضاعة في غاية الوضوح بخصوص كثير من البضائع، وهذا ما يسمح بتقدير قيمة عالية، أو قيمة منخفضة لهذه البضائع، أما في البضائع الأخرى، فإن ظهور قيمة العمل فيها يتحقق آجلاً وبشكل عفوي من خلال السوق.

فقد درس ابن خلدون تقلبات الأسعار وفق قانون العرض والطلب، واهتم بشكل خاص بتجارة (الحنطة) وتقلبات أسعارها، ودرس نتائج انخفاض أسعارها في المدى الطويل، وبيَّن أن ذلك يؤثر سلبًا في أولئك الذين يمارسون زراعتها والأعمال اللاحقة بها.

إن نظرية الأسعار الحديثة - المعروفة والمتبعة حاليًا - تكشف لنا أن التكلفة هي العمود الفقري لنظرية العرض والطلب. وكان ابن خلدون قد بين أن هنالك عوامل أخرى تؤثر في الأسعار والأجور، منها درجة الانتعاش الاقتصادي وازدهاره في مجتمع ما، ودرجة تمركز الثروة، ثم سياسة الضرائب والرسوم التي تطرحها الجهات الحكومية ورعاياها من أصحاب الطبقة الوسطى وطبقة التجار، إن العلاقة بين الدخل والاستهلاك - كما قدمها ابن خلدون، قد مهدت الطريق أمام نظرية الاسهلاك الحديثة.

جمعت مقدمة ابن خلدون بين الأسلوب العلمي ورونق الأسلوب الأدبي

الخلاصة:

إن المكانة المنطقية للأفكار الاقتصادية لابن خلدون في الاقتصاد السياسي تعدُّ في طليعة النظرية (الكلاسيكية)، مع ميزة جوهرية لابن خلدون على مفكري الاقتصاد السياسي البرجوازي عموماً، هي أنه كان دائماً يخضع العلم والمعرفة لخدمة الجماهير المنتجة وإعلاء قيمة الإنسان، لا لخدمة مصالح الطبقات المستغلة، وتسويغ العلاقات السائدة في المجتمع، وإن صورة المجتمع المتقدم الذي كان يطمح إليه، أكثر إنسانية بما لا يقاس من صورة المجتمع الرأسمالي الذي يدافع عنه الاقتصاد السياسي البرجوازي، وعلى هذه الأفكار والمبادئ، استحق فكر ابن خلدون بجدارة، احترام عدد كبير من المفكرين والعلماء وتقديرهم في كل زمان ومكان في الشرق والغرب معاً.

المراجع:

١- من مقدمة ابن خلدون «السياسة والاقتصاد» - حققها الأستاذان: سهيل عثمان ومحمد درويش ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ١٩٧٨م.

٢- الدكتور عارف دليلة ، مكانة الأفكار الاقتصادية لابن خلدون في الاقتصاد السياسي ، دار الحوار للنشر والتوزيع - اللاذقية١٩٨٧م.

٣- الدكتور إبراهيم عويس ،أستاذ الاقتصاد في جامعة جورج تاون الأمريكية ، ابن خلدون مفكراً اقتصادياً ، دراسة موثقة أعدت ١٩٨٧م.

من قضايا النقد الأدبي المعاصر

جدلية المرجعية العربية للتناص

مشتاق عباس معن

يعدّ التناصّ مصطلحًا نقديًا شكّله التأمل العميق في النص وإنتاجه، هذا التأمل الذي واكب فلاسفة العالم - في شرقه وغربه - فضلاً عن النقاد والباحثين. أوجدته الناقدة جوليا كرستيفا في منتصف الستينيات، وأرادت به: «العملية التي يتم بموجبها تفكك نص وانبناؤه، فكل نص هو تناص، والنصوص الأخرى تتراءى فيه بمستويات متفاوتة وبأشكال عصية على الفهم بطريقة أو بأخرى، إذ نتعرف فيها نصوص الثقافة السالفة والحالية: فكل نص ليس إلا نسيجًا من استشهادات سابقة»(١).

موقع التناص من ثالوث الإبداع

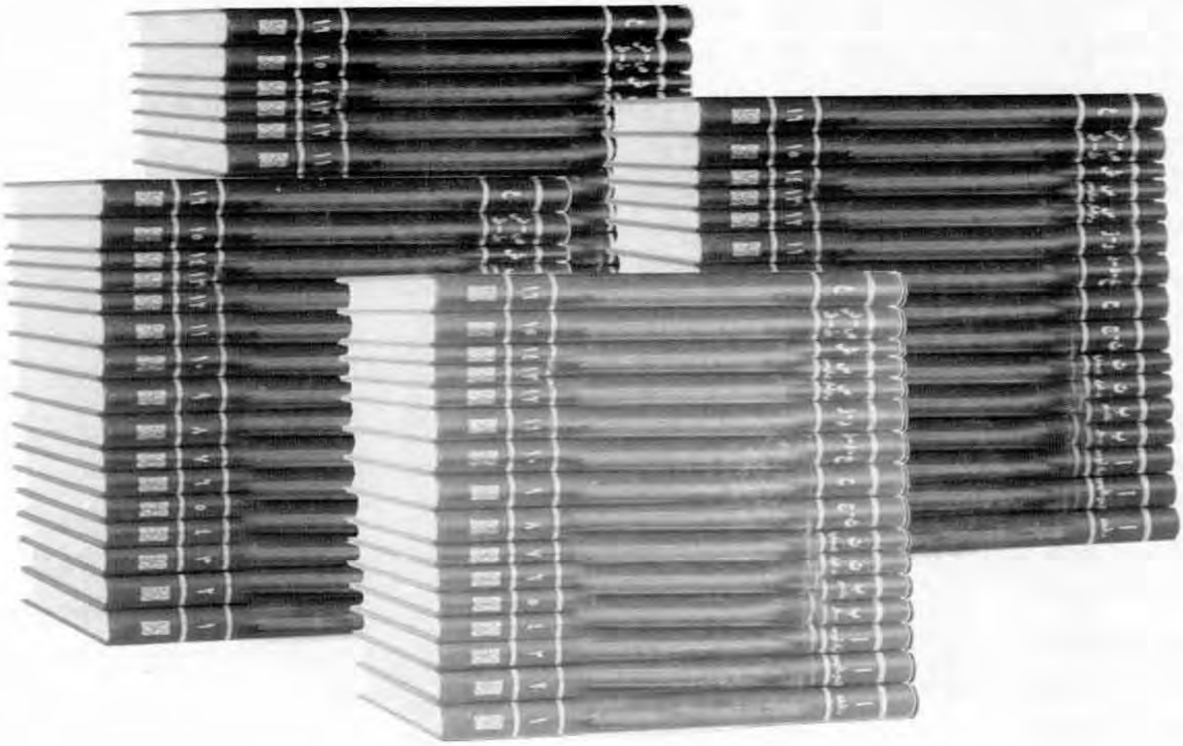
اختلفت المناهج الفلسفية والنقدية في تسليط الضوء على أحد وحدات هذا الثالوث، فالنقاد الذين سبقوا البنوية اهتموا بالمرسل أكثر من غيره بوصفه الباعث الذي يحيط بحيثيات الرسالة ومضامينها فهو بذا أولَى بأن يُهْتَم به كي يكون نافذة لفهم النص، وجاءت البنوية فهدّت هذا الركن الحصين لتقيم محله نظرة تعير الاهتمام بالنص أكثر من غيره بوصفه وحدة بنوية مغلقة، يستطيع القارئ من خلالها استجلاب خفايا دلالتها بالاستناد إلى النص فحسب(٢). لكن هذا التوجه لم يَدُمْ طويلاً إذ ما لبث أنْ هُدّ بنيانه كسالفه، ليشيَّد مكانه صرح قوامه: نظرة (فلسفية/نقدية) أولت القارئ اهتمامًا فاق الاهتمام بالمرسل ورسالته، تجسد هذا التوجه بـ «التفكيكية»(٣) و«النظرية القرائية»(٤).

لكن جميع هذه التوجهات يشوبها النقص، ولولا ذاك لما سهل على اللاحق هدّ بنيان السابق ليشيع مسلكه بسهولة بين حنايا النقد العالمي.

إن لكل نص خصوصياته؛ فهناك نص يحتاج إلى المرسل أكثر من الرسالة والمُستَقبل، وهناك نصوص تحتاج إلى المستقبل أكثر من غيره وهكذا، لذا لا غنى عن إحدى هذه الوحدات، لأن أي إقصاء لوحدة منها يبعث الخلل في صواب الحكم والقطع بمعرفة النص المبعث.

وقد لفتت هذه الحاجة نظر كرستيفا فحاولت سدّها، بأن تعمد في دلاليتها بعامة والتناص منها بخاصة للاهتمام بهذا الثالوث من دون تفضيل، وذلك لأنها أحست بقيمة ما تُسهم به كلّ وحدة من هذه الوحدات التي تشكّل ثالوثًا يساعد على فهم النص والكشف عن مكنوناته.

وقد أَلمحت إلى هذا التكاثف في مستهل كتابها «علم النص» - بقولها: «.. وبما أن النص وليد خارج واقعي ولا متناه في حركته المادية (ليس «بأثره» العِليّ) ولأنه يُدمِج (مُتلقيه» في تركيبة ملامحه، فإنه يبني لنفسه منطقة تعدد للسمات والفواصل تمكّن كتابتها غير المركزة من ممارسة تعدد لا يقبل الوحدة أبدًا»(٥).



وظل هذا النَّفَس هو المتدفق في أفق الكتاب، ليمنحه ديمومة لا تقبل التوقف؛ لأنه استند في عيشه إلى عمود - ثالوث الإبداع - لا يُهدّ، لحصافته، وانطباقه على الواقع الأدبي والمُنْجز النقدي(٦).

جدلية المرجعية العربية للتناص

من الاتجاهات التي تشبث بها المعاصرون حتى استحالت لديهم منهجاً أو (تقليعة) يزمرون لها بمناسبة أو من دون مناسبة؛ ربط عجلة المفاهيم الحديثة بركب التراث، ومحاولة البحث عن الشبيه القديم لضمه إلى الشبيه الحديث، ظناً منهم أن مثل هذا العمل يرفع من شأو التراث العربي، وكأن المفاهيم القديمة لا يمكن الوثوق بها إلا إذا حظيت برضى المحدثين، ولا سيما الغربيين منهم، وغاب عن أذهانهم أن تراثنا زاخر بشيء كثير مما لا يمتلكه الحاضر حتى ليمكن القول: إن الغربيين أنفسهم اعتمدوا عليه في جوانب عملية وإنسانية كثيرة، حتى صار تراثنا منهلاً يغرفون منه ما لذ وطاب.

ومن بين المسائل النقدية الحديثة، التي قيل بجذرية التراث العربي النقدي لها «التناص» الذي حاولوا ربطه بمفاهيم نقدية عربية قديمة كـ (السرقة وغيرها)؛ إذ وقف المحدثون حيالها موقفين متضادين حتى استحال الأمر إلى إشكالية اختلفت أقلامهم في حلها، ويمكن عرض هذين الموقفين بالآتي:

الموقف المؤيد:

استند أغلب المحدثين في بحثهم عن مرجعيات التناص إلى مفهوم النقاد العرب القدامى لما وسم بـ (السرقة)، وذهبوا إلى شد أزر هذا بذاك محاولين إيجاد نصوص تخدم موقفهم هذا بين كتاب أدبي، أو نص نقدي، أو مُؤلَّف عام، فبدؤوا يصفون النص إلى النص، والرأي إلى الآخر، حتى كونوا جبهة رفعت راية تؤيد، بل تؤكد أن التناص الحديث ما هو إلا السرقة الأدبية مكتوبة بأسلوب

التناص دعوة إلى الكشف عن مسألة تلاقح العلوم والأفكار وتداخل الأجناس الأدبية

عصري ومرقومة بمفهوم حداثي(٧).

وذهب آخرون إلى أن التناص يتقاطع مع مفاهيم عربية قديمة نمت على أرض الخطاب النقدي في تراثنا مثل الاقتباس والتضمين والسرقة وما إلى ذلك، مما توضح في مفهوماتها أن النص المُنْتج حديثًا يستند في نشأته إلى نصوص سابقة عليه، لكن عملية إعادة بنائه استندت في أغلب أحوالها إلى التحويل الكلي، أو التعديل الجزئي، أو النقل المباشر مع تحوير في دلالته؛ وذلك بتوظيف جديد لم تكن النصوص الأم تتمتع به لولا هذا التلاعب الفني(٨).

ويفتقر هذا المسلك إلى شيءٍ من الدقة لأمورٍ منها:

- أن القول بالتطابق التام بين المفهوم القديم - السرقة وما إليها - والمفهوم الحديث - التناص - قول لا يمكن التسليم به؛ لأن التعامل النقدي بين المسألتين كبير، فالسرقة كانت عامل ذم عند أغلب القدامى، وإن عدها رهط من نقادنا عنصر إبداع عند الشاعر؛ بشرط أن يحسن التلاعب (اللفظي/المعنوي) حتى لا يمكن البت بسرقته إلا بعد لأي كبير وتأويل أكبر..(٩).

أما المحدثون فلم يعدوا التناص عيبًا على المبدع، بل عدوه وسيلة فنية يتوسل بها المنتج في رسم عباراته الناطقة بما يختلج في نفسه من أحاسيس ومشاعر.

السرقة عامل ذم عند أغلب النقاد القدامى، بينما التناص وسيلة فنية للتعبير عن الأحاسيس والمشاعر

- أن مبتغى القدامى من السرقة وغيرها بيان فضل المتقدم على المتأخر، ومحاولة إيجاد ثغرات في نصوص شعراء معينين للتشنيع عليهم بحجة الضعف الفني لهذا الشاعر أو ذاك، وإيضاح ضيق قريحته الشعرية - كما هو الحال عند الآمدي في موازنته وتشنيعه على أبي تمام، والمؤلفات الأخرى التي ألفت ضد المتنبي. أما المحدثون الذين استندوا إلى التناص فكان هدفهم الأول نسف فكرة النص المتكامل المعتمد في أصله على ذاته من دون استناد إلى ما هو قديم أي بيان مرجعيات النصوص، وإيضاح التفاعل النصي بين إبداعات المُرسلين.

- كان حيز القدامى الذين يجرون فيه مفهوم السرقة وغيره، ميدان الشعر، ولم يتطرقوا إليه في غيره - كالنثر الفني - إلا ما ندر؛ أما المحدثون فكان حيزهم أوسع مما لدى القدامى، وميدان إجراءاتهم النقدية أكبر، إذا لم يحددوا هذه الممارسة النقدية بالشعر أو غيره من فنون الأدب، بل أرادوا به نظرية مطلقة تصدق على كل ما يصدق عليه مصطلح النص بمختلف حقوله المعرفية. فضلاً عن أنهم لم يحددوا مرجعيات النص بالأدب أو مرجعيات معينة، بل قد يكون في مجالات غير أدبية، فالتناص إذًا دعوة إلى الكشف عن مسألة تلاقح العلوم والأفكار وتداخل الأجناس الأدبية.

وقد يخرج من بعض هذه الفروق مفهوما الاقتباس والتضمين.

الموقف المعارض

نزع قسم من المحدثين منزع المعارض للوجهة القائلة بالمرجعية العربية للمفهوم النقدي الحديث (التناص)، بحجة أن: «.. التناص يستند إلى أسس معرفية لم تتيسر للنقد الأدبي إلا مؤخرًا، نتيجة التطورات الهائلة التي تحققت لعدد من العلوم الإنسانية كعلم النفس واللغويات»(١٠).

لكن هذا الموقف لا يمكن الاستناد إليه كليًا من دون مناقشةٍ توضح مقدار صدقه أو بعده عن جادة الصواب، لذا يمكن مناقشته من مناحٍ عدة منها:

- أن الخط العام للمفهومين يكاد يكون واحدًا لأنهما يدعوان - على نحو مباشر أو غير مباشر - إلى التفاعل النصي، والتلاقح بين القديم والحديث، سواء أكان على المستوى الشكلي أم المضموني، وعلى نحو كلي أم جزئي.

- كلا المفهومين يعتمد على التعديل والتحويل، سواء أكان ذلك على مستوى اللفظ أم الدلالة أم على كليهما.

رأي الباحث

يعد التعرض إلى موقف المحدثين المتضاد من التواشج المفهومي بين «السرقة وما إليها» من مفاهيم نقادنا القدامى، و«التناص» بوصفه مصطلحًا نقديًا غربيًا، وخروجنا بموقف متنصل عن الموقفين السائدين، لأنهما لم يسلما من الإشكالات النقدية، آلينا الخلوص إلى مسلك ننزع فيه إلى الموقف المحايد الذي يذهب إلى التشابه غير المطلق، وذلك لوجود عرا تشاكل بينهما مضمونها

- البيئة النقدية:

إن المفهوم القديم يسلط الضوء على الخطاب النقدي الأدبي، أما المفهوم الحديث فلا يخص الخطاب الأدبي فحسب بل هو لمطلق الخطابات، لكن مبعثه الحقل النقدي، مما يجعل العلاقة بينهما علاقة عام بخاص.

- المرجعية:

إن المفهوم القديم يلتقي مع المفهوم الحديث من زاوية المرجعية والاستناد إلى بنية عميقة محورة (شكلاً أو مضموناً) تعد أصلاً للنص المنتج حديثًا، الذي يمثل البنية السطحية لتلك المرجعية، لكن المرجعية الحديثة غير محددة وأوسع أفقًا بخلاف المرجعية القديمة التي تكون محددة بمدارك معينة لذا يكون التعالق بينهما تعالق عام بخاص.

- المفهوم:

يعتمد المفهوم القديم على عمليتي التحويل والتعديل سواء أكان ذلك كليًا أم جزئيًا - وإن كان الجزئي أكثر من الكلي -، وعلى المستوى الشكلي أم المضموني. وكذا الحال بالمفهوم الحديث، لكنه يستند في غالب أمره إلى التحويل والتعديل الكليين.

وبذا نجد أن هناك التقاء بين الخطوط العامة للمفهومين، لكن الجزئيات تختلف اختلافًا كليًا أو جزئيًا، والتشابه بينهما يكمن في العموميات، أما الفرق ففي الخصوصيات.

إذن فالتناص والسرقة وما إليها، مفهومان نقديان يحاوران الخطاب، لكن الزمن كفيل بتغيير التقنيات، ليجعل السرقة مفهوماً وتعاملاً خاصًا مع الخطاب، وكذا الحال بالتناص، فالرابط بينهما عرا قد تقوى وقد تضعف لكنهما متشابهان ومختلفان إلى قدر معين، ليجعل منهما مفهومين متعالقين على نحو تعالق عام بخاص، ولكن لكلٍّ منهما تقنياته وخصوصياته التي تميزه من الآخر سلباً أو إيجاباً.

الهوامش

١- دراسة في تعريب بعض المصطلحات «نظرية النص»: د. محمد خير البقاعي: ٥٠ (دوريات).
٢- ينظر: وضع النقد الجديد، من النقد إلى البنيوية: مجموعة من الباحثين الغربيين: ت: صبار سعدون السعدون: ٩.
٣- ينظر: التفكيكية؛ النظرية والتطبيق، كريستوفر نورس: ت: رعد عبدالجليل جواد: ٧.
٤ - ينظر: مدخل إلى جمالية التلقي: رشيد بنجدو: ١١ وما بعدها (دوريات).
٥- علم النص: جوليا كرستيفا: ت: فريد الزاهي: ١٠.
٦- ينظر: م.ن: ١٤ و ٤٨ - ٤٩ و ٥٥ وغيرها.
٧- ينظر: أدونيس منتحلا: ١٣ وما بعدها، وألمح إلى ذلك د. جلال الخياط في بحثه: موت التناص: ٥٢ وما بعدها، أما د. ناصر حلاوي فعدل من هذه الوجهة ببحثه: مفهوم السرقة الشعرية وتطوره في الخطاب النقدي والبلاغي عند العرب: ٣٤ - ٣٥.
٨- ينظر: عصر البنيوية من ليفي شتراوس إلى فوكو: أديث كيرزويل: ت: د. جابر عصفور، إذ قابل المترجم التناص بالتضمين: ٢٧٧ (الملاحق)، والتناص مع الشعر الغربي: د. عبدالواحد لؤلؤة: ٢٧ (دوريات).
٩- ينظر: الأبعاد النظرية لقضية السرقات وتطبيقاتها في النقد العربي القديم: محمد مصطفى هدارة: ١٢٤ وما بعدها، إذ أوضح فيه أصول هذه النظرية وموقف نقادنا منها. (دوريات). وذهب إلى ذلك عبدالفتاح كليطو في كتابه «الكتابة والتناسخ، مفهوم المؤلف في الثقافة العربية»: ت: عبدالسلام بنعبد العالي: ٢٥.
١٠- التناص: د. عبدالنبي اصطيف: ٥٢ (الدوريات).

المراجع

الكتب:

- أدونيس منتحلاً: دراسة في الاستحواذ الأدبي وارتجالية الترجمة، يسبقها: ما هو التناص؟: كاظم جهاد: مكتبة مدبولي، ط٢، ١٩٩٣م.
- التفكيكية (النظرية والتطبيق)، كريستوفر: ترجمة: رعد عبدالجليل جواد، دار الحوار للنشر والتوزيع ط٢، ١٩٩٦م.
- عصر البنيوية من ليفي شتراوس إلى فوكو: اديث كيرزويل، ت: د. جابر عصفور، سلسلة كتب شهرية، دار آفاق، بغداد، ١٩٨٥م.
- علم النص: جوليا كرستيفا: ترجمة: فريد الزاهي، مراجعة: عبدالجليل كاظم، دار توبقال للنشر، المغرب، في ضمن سلسلة (المعرفة الأدبية)، ط١، ١٩٩١م.
- الكتابة والتناسخ؛ مفهوم المؤلف في الثقافة العربية، عبدالفتاح كليطو؛ ترجمة: عبدالسلام بنعبدالعالي.
- وضع النقد (من النقد الجديد إلى البنيوية): مجموعة من الباحثين الغربيين: ت: صبار سعدون السعدون: سلسلة «الموسوعة الصغيرة (٣١٠)»: دار الشؤون الثقافية: ١٩٩٠م.

الدوريات:

- الأبعاد النظرية لقضية السرقات وتطبيقاتها في النقد العربي القديم، محمد مصطفى هدارة، مجلة (فصول)، (الأدب والأيدولوجيا)، ج٢: ١٩٨٥م.
- التناص: د. عبدالنبي اصطيف، مجلة (راية مؤتة): مج٢، ع٢، رجب ١٤١٤هـ - كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٣م.
- التناص مع الشعر الغربي: د. عبدالواحد لؤلؤة، الأقلام (ع ١٠ - ١٢)، ١٩٩٤م.
- دراسة في تعريب بعض مصطلحات (نظرية النص)، د. محمد خير البقاعي، مجلة (الموقف الثقافي): ع٨: س٢، ١٩٩٧م.
- مدخل إلى جمالية التلقي، رشيد بنحدو، مجلة (آفاق)، ع٧: ١٩٨٧م.
- مفهوم السرقة الشعرية وتطوره في الخطاب النقدي والبلاغي عند العرب، د. ناصر حلاوي، مجلة (المورد)، مج٢٦، ع١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
- موت التناص؟، متاهة التناص، د. جلال الخياط، مجلة (الآداب)، ع ١ - ٢: كانون الثاني - شباط: س٤٦، ١٩٩٨م.

الموسوعات العربية والإسلامية تاريخا وواقعا

يعدّ نزول القرآن الكريم وتدوينه - بما توافر من أساليب الحفظ الكتابي - ابتداءً من عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، الحدث الأبرز في تاريخ أمة لا تقرأ ولا تكتب.

محمد أديب ياسرجي - محمد أمير ناشر النعم

فقد شكل هذا الحدث مفصلاً رئيساً تحولت به الأمة من الشفاهية إلى الكتابية، حيث كانت تنتقل المعارف وتحفظ بطريق اللسان والرواية والسماع، وحيث ينشط الشعر وسيلة لها أهميتها في حفظ القيم والآراء والمعارف، ونقلها وتوريثها لما لهذا الكلام الموزون المقفى ذي الوقع الموسيقي من ميزة الحفظ السهل في أمة تعتمد على الذاكرة.

ولذلك كان الشعر «ديوان العرب»، والصورة التي حفظت لنا عقائدهم ومعارفهم وعاداتهم ولغتهم، وكل ما يتعلق بشؤون الحياة ما قبل القرآن.

وقلما نجد آثاراً أدبية من عصر ما قبل النزول لا تكون شعراً، إلا الأمثال، وقليلاً من الخطب المتناثرة، وليس المراد نفي وجود الكتابة في الجاهلية، وإنما بيان أنها كانت وسيلة استثنائية تستخدم في حالات نادرة ومحدودة الانتشار.

مرحلة جديدة

وكان حرص النبي صلى الله عليه وسلم على تدوين القرآن الكريم بداية مرحلة جديدة دخلت بها الأمة طور العقلية «الكتابية»، فأصبح للحرف المكتوب فيها الدور الأبرز في حفظ المعارف وانتقالها.

وإذا كان اختراع الحرف المكتوب قبل الميلاد بأكثر من ثلاثة آلاف سنة هو الحدث الذي نقل البشرية من عصور ما قبل التاريخ إلى العصور التاريخية، فإن تدوين القرآن الكريم ابتداءً من عصر النبوة هو الحدث الذي نقل هذه الأمة من مرحلة الذاكرة الخالصة إلى مرحلة أخرى أمسكت بها بالقلم لتبدأ حياة جديدة عنوانها ومحور معرفتها شيء اسمه الكتاب.

حم. *تنزيلٌ من الرحمنِ الرَّحيم. كتابٌ فُصِّلت آياتُه قُرآنًا عربيًا لقوم يعلمون.* **فصلت:** ١-٣.

ونزّلنا عليك الكتاب تبيانًا لكل شيء وهدىً ورحمةً وبشرى للمؤمنين. **النحل:** ٨٩.

وهكذا كان القرآن الكريم بداية المرحلة الكتابية في تاريخ هذه الأمة. ولا أدل على تمكن الإحساس بأهمية «الكتابية» في وعي جيل الصحابة من حرصهم على جمع القرآن في المصحف ليكون أمّاً يرجع إليه عندما تختلف الألسنة.

وجاء عصر التابعين ليعمق الاعتماد على الكتابة وسيلة أساسية في نقل المعرفة، وليحمل معه بداية ما عُرف بعصر التدوين، إذ أخذ المختصون يدوّنون الحديث والفقه والسيرة والتاريخ والأدب.، وتعرّف المسلمون - عقب الفتوحات - حضارات الأمم السابقة، وتوسعت دائرة التصنيف عند العلماء المسلمين لتشمل الفلسفة والرياضيات والفلك والهندسة والطب والزراعة وغيرها.

البدايات

في بداية الحضارة الإسلامية وقبل ظهور المؤلفات الأولى شاع تدوين المعارف في الصحف، إلا أن هذا التدوين لم يتخذ هيكلية وطريقة معينة في الترتيب والتقسيم(١).

وباستقلال العلوم واكتساب كل منها شخصيته المستقلة، تبلور الشكل السائد في تصنيف الكتب، وهو التصنيف الموضوعي المتخصص، وحيث يختص كل كتاب بعلم من العلوم، ويقسم الكتاب بحسب هذه الطريقة أبواباً وفصولاً وفروعاً، أو غير ذلك من التقسيمات التي تناسب كل علم.

ولم تكن الحاجة ظاهرة في بداية التدوين إلى كتاب يعالج بين دفتيه مجموعة من العلوم، ولم تعرف الحضارة الإسلامية في تلك الفترة كتباً على النمط الموسوعي الشامل لأكثر من علم من فروع المعرفة الإنسانية.

غير أننا نلاحظ، ومنذ النصف الثاني للقرن الثالث الهجري، بداية ظهور الكتب القريبة من هذا النمط على يد عالم موسوعي المعرفة، وهو الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر (ت: ٢٥٥هـ)، وبخاصة في كتاب «الحيوان» آخر مؤلفاته.

لقد تحدث الجاحظ في «الحيوان» عن جميع أنواع الحيوانات المعروفة في زمانه، وتحدث من خلال ذلك عن كثير من القضايا العلمية المتصلة بالإنسان والحيوان، كالطب، والصيدلة، والطبائع، والوراثة، والتكيف مع البيئة، كما تكلم على النزعات الفلسفية والكلامية، وعلى الملل والنحل، والتيارات الأدبية واللغوية والنقدية، وعلى معلومات تتصل بعلوم القرآن وعلوم الحديث، وعلى الفلك والجغرافيا والتاريخ والأجناس، والعادات والتقاليد، وأكثر من الشواهد المستمدة من القرآن الكريم والحديث الشريف، والشعر والأمثال، وكل ذلك من خلال الحديث عن الحيوان.

وكان استمرار تمايز العلوم وتشعبها سبباً في بروز علوم جديدة لم تكن معروفة من قبل، بحيث ضاق الزمان بطلاب المعرفة عن استيعابها كلها، وبرزت الحاجة إلى كتب تقدم تصورات كلية عن كل علم من هذه العلوم: أسسه، مبادئه، مصطلحاته، وأهم المصنفات فيه.

ونجد في بداية القرن الرابع الهجري مثالاً على الاستجابة لهذه الحاجة في كتاب:

«إحصاء العلوم» لأبي نصر الفارابي (ت: ٣٣٩هـ)، وهو الكتاب الموسوعي الأول الذي يخصص للحديث عن موضوعات العلوم وما يتعلق بها؛ وقد قسم الفارابي العلوم قسمين:

الأول: يضم العلوم النظرية:
- العلم الرياضي (التعليمي).
- العلم الطبيعي.
- العلم الإلهي.

الثاني: يضم العلوم العملية:
- الأخلاق.
- السياسة.

وإن الفارابي في عمله هذا يرسم حدود العلوم وأجزاءها وعلاقاتها، وهو في تصنيفه هذا يتابع أرسطو متابعة تامة في تقسيم الفلسفة، فالعلوم النظرية تقابلها الفلسفة النظرية عند أرسطو بشعبها الثلاث نفسها، والعلوم العملية تقابلها الفلسفة العملية أيضاً.

ونجد صدى آخر لتطور العلوم في كتاب «الفهرست» لابن النديم (ت: ٣٨٥هـ)، وهو بحسب ما وصل إلينا أول كتاب عرفته الحضارة الإسلامية - وربما الحضارات السابقة عليها أيضاً - في علم الكتب، إذ تخصص في تصنيفها ووصفها وإحصائها، وهذا واضح من اسمه «الفهرست».

فاهتمام ابن النديم في كتابه مركّز على الكتاب وموضوعه قبل المؤلف، وهو بهذا يختلف عن كتاب «إحصاء العلوم» وأمثاله من الكتب التي تهتم بموضوعات العلوم أساساً، ويختلف كذلك عن كتب التراجم ومعاجم المؤلفين التي تهتم بشخصية الكاتب أولاً.

إن «الفهرست» كتاب من النمط الموسوعي الذي يهتم بفروع المعرفة كافة، فقد انقسم إلى عشرة أقسام، ويسمي ابن النديم كل قسم «مقالة»، وتنقسم المقالة إلى فنون بلغ عددها اثنين وثلاثين فناً غطت العلوم والمعارف التالية: اللغة، والشعر، والكتابة، والتاريخ، والكلام، والفرق، والفقه، والفلسفة، والمنطق، والهندسة، والحساب، والفلك، والكيمياء، والطب، والصيدلة، والموسيقى، والغناء، والخرافات، والسحر، والشعوذة، والأسمار.


صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبد العزيز

ونرى في الفترة نفسها التي ظهر فيها «الفهرست»، عالماً موسوعياً كبيراً هو الخوارزمي محمد بن أحمد (ت: ٣٨٧هـ)، يطلع علينا بكتابه «مفاتيح العلوم» ليؤسس لنمط آخر من الكتب الموسوعية، فهو كتاب يضم تعريفاً بجميع العلوم المعروفة في زمانه، بالإضافة إلى تعريف المصطلحات الخاصة بكل علم.

ينقسم الكتاب إلى مقالتين: تضم الأولى ستة أبواب، وفيها اثنان وخمسون فصلاً، وهي مخصصة للعلوم الشرعية والعربية، وتضم الثانية تسعة أبواب، وفيها واحد وأربعون فصلاً، وهي مخصصة للعلوم الأخرى، مثل الفلسفة والمنطق والرياضيات والطب والهندسة وغيرها.

السمات العامة
للأعمال الموسوعية القديمة

لم تعرف مكتبتنا الموسوعات بمفهومها الحديث الذي سنعرض له لاحقاً، مع أنها عرفت الكتب ذات النمط الموسوعي، تلك التي هي أعم وأشمل من أن تصنف تحت عنوان واحد من العلوم أو فروع المعرفة.

وإن كل واحد من الكتب الثلاثة الأخيرة التي عرضنا لها (إحصاء العلوم - الفهرست - مفاتيح العلوم)، يشكل تأسيساً لنمط متميز من أشكال التأليف الموسوعي التي عرفتها حضارتنا، وتتابعت بعدها كتب كثيرة نسجت على منوالها، ويمكن أن نصنف هذه الكتب في ثلاثة اتجاهات:

- كتب المصطلحات العلمية، مثل: مفاتيح العلوم، والتعريفات، والكليات، وكشاف اصطلاحات الفنون، ودستور العلماء.
- كتب في موضوعات العلوم، مثل: إحصاء العلوم، وأنموذج العلوم، ومفتاح السعادة.

- مصنفات في أسماء الكتب ومواضيعها، مثل: الفهرست، وكشف الظنون، والقسم الثاني من أبجد العلوم.

ويمكن أن نلاحظ للتأليف طريقتين:

- الطريقة الموضوعية: وهي الأكثر انتشاراً، وفيها تتم معالجة ألوان مختلفة من المعارف على أساس من الوحدة الموضوعية لكل علم، فيقسم كل كتاب أبوابًا عامة، يضم كل باب بحثًا معينًا في علم من العلوم، إلا أنه لم يكن هناك اتفاق بين مؤلفي هذه الكتب على تصنيف معين للعلوم والفنون، لذا نجد أن كل كتاب يتبع طريقة في التقسيم يختلف فيها عن الكتب الأخرى.

- الطريقة المعجمية: حيث يتم إيراد المعلومات ضمن ترتيب هجائي، دون النظر إلى الوحدة الموضوعية، وقد شاعت هذه الطريقة في كتب المصطلحات العلمية، مع أن بعض المؤلفين قد استخدمها في غير ذلك، ككتاب «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية» لابن البيطار، وكتاب «حياة الحيوان الكبرى» للدميري.

وأخيراً، فإن معظم هذه الكتب جاءت نتيجة جهود فردية، وإسهامات شخصية، باستثناء رسائل إخوان الصفا، فقد صنفها مجموعة من الباحثين الذين عُرِف بعضهم، واختلف في آخرين.

أشهر الكتب الموسوعية القديمة:

- الحيوان: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، (ت: ٢٥٥هـ).
- إحصاء العلوم: أبو نصر محمد بن محمد الفارابي، (ت:٣٣٩هـ).
- رسائل إخوان الصفا: مجموعة من العلماء - منتصف القرن الرابع الهجري.
- الفهرست: ابن النديم محمد بن إسحاق، (ت:٣٨٥هـ).
- مفاتيح العلوم: الخوارزمي محمد بن أحمد، (ت: ٣٨٧هـ).
- أقسام العلوم العقلية: أبو علي بن سينا حسين بن عبدالله، (ت: ٤٢٨هـ).
- الشفا: لابن سينا.
- طبقات العلوم: الأبيوردي محمد بن أحمد، (ت: ٥٠٧هـ).
- نهاية الأرب في فنون الأدب: شهاب الدين النويري أحمد بن عبدالوهاب، (ت: ٧٣٣هـ).
- إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد: السنجاري الأكفاني محمد بن إبراهيم، (ت:٧٤٩هـ).
- مقدمة ابن خلدون: عبدالرحمن بن محمد بن خلدون، (ت: ٨٠٨هـ).
- حياة الحيوان الكبرى: الدميري محمد بن موسى، (ت:٨٠٨هـ).
- التعريفات: الجرجاني علي بن محمد، (ت:٨١٦).
- صبح الأعشى في صناعة الإنشا: القلقشندي أحمد بن علي، (ت:٨٢١هـ).
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار: المقريزي أحمد بن علي، (ت: ٨٤٥هـ).
- أنموذج العلوم: جلال الدين الدواني محمد بن أسعد، (ت: ٩٢٠هـ).
- النقاية شرح إتمام الدراية: جلال الدين السيوطي عبدالرحمن بن أبي بكر، ت: ٩١١هـ.
- مفتاح السعادة: طاش كبري زاده أحمد بن مصطفى، (ت: ٩٤٨هـ).
- الفوائد الخاقانية: الشرواني محمد أمين، (ت:١٠٣٦هـ).
- فهرست العلوم: حافظ الدين العجمي، (ت: ١٠٥٥هـ).
- كشف الظنون: حاجي خليفة، (ت: ١٠٦٨هـ).
- جامع العلوم في اصطلاحات الفنون: عبدالنبي الأحمد نكري، انتهى منه ١١٧٣هـ.
- الكليات: أبو البقاء الكفوي أيوب بن موسى، (ت:١٠٩٤هـ).
- كشاف اصطلاحات الفنون: التهانوي محمد أعلى بن علي، كان حيًا في سنة ١١٥٨هـ.
- أبجد العلوم: محمد صديق حسن خان، (ت: ١٣٠٧هـ).
- القطوف الدانية في العلوم الثمانية: السفرجلاني أمين بن محمد خليل، (ت: ١٣٣٥هـ)

الموسوعات العربية والإسلامية الحديثة

الموسوعة أو دائرة المعارف كتاب يقوم بإعداده مجموعة من المختصين والباحثين، ويقدم خلاصة المعارف والعلوم، ويتم تقسيم هذه الخلاصة إلى عدد كبير من المواد أو المقالات، والتي ترتب عناوينها أو مداخلها ترتيبًا ألفبائيًا.

> رسم الفارابي حدود العلوم وأجزاءها وعلاقاتها، متتبعًا أرسطو في تقسيمه الفلسفة

ويرى بعض الباحثين إطلاق كلمة «الموسوعة» على الكتاب الذي يتناول موضوعًا واحدًا بالذات أو عددًا قليلاً من الموضوعات، ولا يشتمل على المعرفة جميعها مثل: الموسوعة الفلسفية، والموسوعة الطبية.

بينما يُطلق اسم «دائرة المعارف» على الكتاب الذي يضم المعرفة بشكل عام، إلا أن كلتا الكلمتين حديثتان:

فالموسوعة: كلمة غير موجودة في المراجع العربية اللغوية القديمة، ويبدو أن ميخائيل الغريزي، ١٧١٠ - ١٧٩٤م هو أول من استخدمها في وصفه لكتاب «إحصاء العلوم» للفارابي، ومن ثم درج استعمالها للدلالة على هذا النوع من الكتابات.

وأما دائرة المعارف فهي ترجمة لكلمة Encyclopaedia المشتقة من اللفظة اليونانية Enkylopaideia والتي كانت تعني التعليم الدائري أو المتكامل، وبطرس البستاني أول من استخدم هذه الكلمة عنوانًا لأول «دائرة معارف» عربية في العصر الحديث، التي ابتدأ إصدارها سنة ١٨٧٦م، وهذا يعني أن الأعمال الموسوعية العربية بالمعنى الحديث قد تأخر ظهورها عن مثيلاتها الغربية أكثر من قرن.

البدايات:

دائرة معارف البستاني:

إن دائرة معارف بطرس البستاني (ت: ١٨٨٣م) أول محاولة لإصدار موسوعة باللغة العربية على نمط الموسوعات التي يصدرها الغربيون، أصدر منها بطرس البستاني ستة أجزاء وأكملها حتى الثامن ابنه سليم، ثم تولى ابن أخيه سليمان البستاني مع أبناء المؤلف العمل فأصدر الجزء التاسع والعاشر والحادي عشر.

دائرة معارف القرن العشرين:

وقد أصدرها محمد فريد وجدي (ت: ١٩٥٤م) بين سنتي ١٩٢٣ ـ ١٩٢٥م في عشرة مجلدات ضخمة، وتناول فيها قضايا مختلفة تتصل بالثقافة العربية الإسلامية والإنسانية العامة، إلا أن المؤلف لم يستطع أن يعالج الموضوعات المختلفة بدرجة واحدة من الكفاءة، كما أن المؤلف لم يذكر لنا شيئاً عن المراجع التي أخذ عنها.

ـ دائرة المعارف الإسلامية:

وهي ترجمة غير كاملة لـ Encyclopaedi of Islam «دائرة المعارف الإسلامية» التي أصدرها المستشرقون باللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية، وقد أسهم في ترجمتها محمد ثابت الفندي، وأحمد الشنتاوي، وإبراهيم زكي خورشيد، وعبدالحميد يونس، ووصلوا في الترجمة حتى حرف العين مادة عارفي باشا، وزودوها بملاحظات وتصويبات واستدراكات لبعض علماء الأزهر، وهذه الموسوعة من أهم ما صدر عن الإسلام من دوائر المعارف، اشتملت على كم هائل من المعلومات المتعلقة بالإسلام وعلومه، على الرغم مما شابها من فقدان الموضوعية والحياد في البحث العلمي في أحيان كثيرة نبّه عليها المترجمون.

ـ الموسوعة العربية الميسرة:

موسوعة مكثفة في مجلد ضخم، تحتوي على واحد وعشرين ألف مادة، في فروع المعرفة كافة، قامت هيئة التحرير بترجمة ٦٦٪ من موادها من موسوعة كولومبيا الأمريكية، أما المواد الباقية التي تتعلق بالشؤون العربية والإسلامية فقد تولى إعدادها فريق من الباحثين بإشراف محمد شفيق غربال. تمتاز هذه الموسوعة بحسن ترتيبها، وسهولة استخدامها، واستيعابها.

صدرت عام ١٩٦٥م بإشراف مؤسسة فرانكلين الأمريكية.

أما المحاولات الرسمية لإصدار دائرة معارف عربية، فأخفقت كلها، وقد بدأت هذه المحاولات في مطلع الستينيات عندما تبنى وزراء المعارف العرب في اجتماعهم الأول في القاهرة سنة ١٩٥٣م مشروع إصدار موسوعة عربية في أربعة مجلدات، ولكن المشروع لم ير النور. ثم قدمت وزارة الثقافة المصرية مشروعاً آخر لدائرة المعارف سنة ١٩٥٨م، ولم يتم المشروع بدوره، فتبددت الموازنة في الاجتماعات واللجان، ثم كانت هناك توصية اللجنة الثقافية التاسعة لجامعة الدول العربية سنة ١٩٦١م لإصدار موسوعة عربية، ومنذ ذلك الوقت أصبح مشروع الموسوعة بنداً دائماً في كل اجتماع لمجلس الجامعة، وأمام مؤتمرات وزراء التربية والتعليم العرب، وطرحت خلال العقود الماضية أفكار كثيرة لملء الفراغ لكن أيّاً من المشاريع المطروحة لم يتحقق.

تعريف بعض الأعمال الموسوعية الحديثة:

دائرة المعارف الإسلامية للناشئين:

موسوعة مختصرة في مجلد واحد، متخصصة في الحضارة الإسلامية، أسلوبها بسيط موجّه للقارئ العربي العادي والنشء، قام بإعدادها مجموعة من المختصين تحت إشراف ثلة من علماء الأزهر، وقد صدرت سنة ١٤٠٣هـ.

القاموس الإسلامي:

لأحمد عطية الله، موسوعة خاصة بالفكر الإسلامي، والحضارة الإسلامية، صدرت في خمسة مجلدات حتى حرف العين بين عامي ١٩٦٣ ـ ١٩٧٩م، وهي مرتبة ألفبائياً، ومزودة ببعض الخرائط والرسوم الإيضاحية والصور.

دائرة معارف الشباب:

لفاطمة محجوب: وهي دائرة معارف مختصرة مبسطة للطلاب، تقع في مجلد ضخم يضم خمسة آلاف مادة، وخمسمئة خريطة إيضاحية، وقائمة شارحة بكتب التراث الإسلامي، وملخصاً لأحداث العالم من ٥٠٠٠ق.م حتى سنة ١٩٦٢م، ومجموعة من الجداول المختلفة، وفهرساً بالمصطلحات التي وردت في الموسوعة وما يقابلها في الإنجليزية.



الموسوعة العربية العالمية

الموسوعة الفقهية:

أصدرتها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ الكويت ـ موسوعة شاملة في الفقه الإسلامي، مرتبة ترتيباً ألفبائياً، وتعرض للآراء والتشريعات الفقهية من خلال مصطلحات الفقه، مع ترجمة للفقهاء، وقد صدر منها حتى الآن ثلاثون جزءاً.

الموسوعة الإسلامية:

صدرت في تركيا، وهي دائرة معارف شاملة باللغة التركية تضم ٢٠٠٠٠ مصطلح ومادة مدعمة بالصور الملونة والرسوم والتوضيحات، وقد صدر منها حتى الآن سبعة مجلدات، وينتظر أن تكتمل في حدود عشرين مجلداً.

دائرة المعارف الإسلامية الكبرى:

صدرت في إيران، وهي دائرة معارف شاملة باللغة الفارسية صدر منها حتى الآن خمسة مجلدات، وقد تُرجم المجلد الأول منها إلى العربية، تتميز هذه الموسوعة بأنها تقدم المعلومات بشكل مطوّل يماثل ما هو موجود في دوائر المعارف العالمية الكبرى.

دائرة المعارف الإسلامية للناشئين والشباب:

أصدرتها مؤسسة سفير بمصر، وهي دائرة معارف ميسرة شاملة لجوانب الحضارة الإسلامية كافة، وهي من أمتع الموسوعات وأجملها من حيث الإخراج، لكن يؤخذ عليها إغراقها في الاهتمام بمصر، صدر منها حتى الآن عشرون مجلداً، ولا زالت في طور الصدور.

الموسوعة العربية العالمية:

صدرت في المملكة العربية السعودية، ويتكون مجلس إدارة الموسوعة برئاسة الأمير سلطان بن عبدالعزيز، ووعضوية الأمير الدكتور مشعل بن عبدالعزيز، والأمير بندر بن مشاري، الدكتور راشد المبارك، والدكتور فهد الرشيد، والدكتور علي الخليفة، والمستشار عبدالله الرشيد، والأستاذ محمد الشثري، والمستشار إبراهيم القويفلي.

اعتمدت الموسوعة على «دائرة المعارف العالمية» طبعات ١٩٩٢و ١٩٩٣و ١٩٩٤م، بعد أن تم تنقيح المواد ومواءمتها عربياً وإسلامياً، واستغرق العمل في هذه الموسوعة سبع سنوات، وخرجت إلى النور سنة ١٩٩٦م في ثلاثين مجلداً، تحتوي على أكثر من ٢٠٨٠٠ مدخلاً رئيساً، و١٢٠٠٠٠ رأس موضوع ومصطلح واسم موقع وشخص وعمل أدبي وفني، أضف إلى ذلك الإيضاحات والأشكال التعليمية، والخرائط، وصور الأماكن والأشخاص، فضلاً عن آلاف الجداول. وتعد هذه الموسوعة حتى هذه اللحظة أغنى وأشمل موسوعة عربية.

تدوين القرآن الكريم بداية مرحلة جديدة دخلت بها الأمة طور العقلية الكتابية

الموسوعة الإسلامية الميسرة:

صدرت في حلب بسورية عن دار صحارى بالاشتراك مع مؤسسة فصلت للدراسات والترجمة والنشر سنة ١٩٩٧م في عشرة أجزاء بإشراف المفكر الإسلامي الدكتور الشيخ محمود عكام، وقد شارك في كتابتها أكثر من مئة كاتب، وترتيبها ألفبائي، شملت موادها المواضيع التالية:

الفقه وأصوله، وعلوم القرآن الكريم، والحديث الشريف، والسيرة النبوية والتاريخ العربي والإسلامي، ومصطلحات العقيدة والأخلاق واللغة العربية: علومها وآدابها، والشعوب والبلدان والآثار.

أشهر الموسوعات العربية والإسلامية الحديثة:

إضافة إلى ما ذكرنا من موسوعات، نذكر فيما يلي أهم ما صدر من موسوعات باللغة العربية:

- التذكرة التيمورية: أحمد تيمور باشا.
- الموسوعة: مترجمة بإشراف نوقولا ناهض.
- موسوعة الحضارة العربية والإسلامية: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- موسوعة التاريخ الإسلامي: أحمد شلبي.
- موسوعة دول العالم الإسلامي ورجالها: شاكر مصطفى.
- دائرة المعارف الإسلامية الشيعية: السيد محسن الأمين.
- موسوعة الأحوال الشخصية: نبيل الظواهرة الصائغ.
- موسوعة السياسة: عبدالوهاب الكيالي.
- موسوعة عباقرة الإسلام: محمد أمين خرشوح.
- موسوعة العتبات المقدسة: جعفر الخليلي.
- الموسوعة العربية: ألبرت حوراني ونجيب فرنجية.
- الموسوعة الفلسفية: عبدالمنعم الحفني.
- موسوعة العمارة الإسلامية: عبدالرحيم غالب.
- الموسوعة الفلسطينية: أحمد المرعشلي وآخرون.
- الموسوعة الفلسفية العربية: بإشراف الدكتور معن زيادة.
- موسوعة الفلسفة: عبدالرحمن بدوي.
- موسوعة المستشرقين: عبدالرحمن بدوي.
- موسوعة المورد العربية: منير البعلبكي.
- موسوعة الإجماع في الفقه الإسلامي: سعدي أبو حبيب.
- الموسوعة الجنائية في الفقه الإسلامي: أحمد فتحي بهنسي.
- موسوعة الحديث النبوي الصحيح والحسن: نديم وأسامة مرعشلي.
- موسوعة حلب المقارنة: خير الدين الأسدي.
- الموسوعة النحوية والصرفية: يوسف أحمد المطوع.
- الموسوعة الذهبية للأطفال.
- موسوعة الأطفال، الكويت.
- موسوعة أطراف الحديث النبوي: محمد بن بسيوني زغلول.

خاتمة:

وبعد هذا العرض الذي أردناه متكاملاً إلى حد ما، نلاحظ أن معظم الأعمال الموسوعية العربية الحديثة قد تم صدورها بوساطة الأفراد من المؤلفين وبجهود شخصية، في حين نرى أن الأعمال الموسوعية الغربية التي أصدرتها مجموعة من المحررين ما زالت قليلة تُعد على أصابع اليد، ربما لأن روح التجزئة والنزعة الفردية ما زالت حاكمة، فما زال بيننا وبين الروح الجماعية والعمل الجماعي مسافة فاصلة قصية، فهل نتدارك التقصير؟ وهل نلبي نداء الواجب الذي يدعونا إلى الاتحاد والتعاضد على المستويات كافة؟ أملنا ذلك.

الهوامش:

١- ذلك لأن هذه المعارف لم تكن قد تمايزت فيما بينها علوماً. وإلا فإن كل علم من العلوم يملك مقومات تصنيفه، لأن الخطوة الأولى فيه هي رسم حدوده، وبيان أجزائه، وعلاقة كل واحد منها بالأجزاء الأخرى.

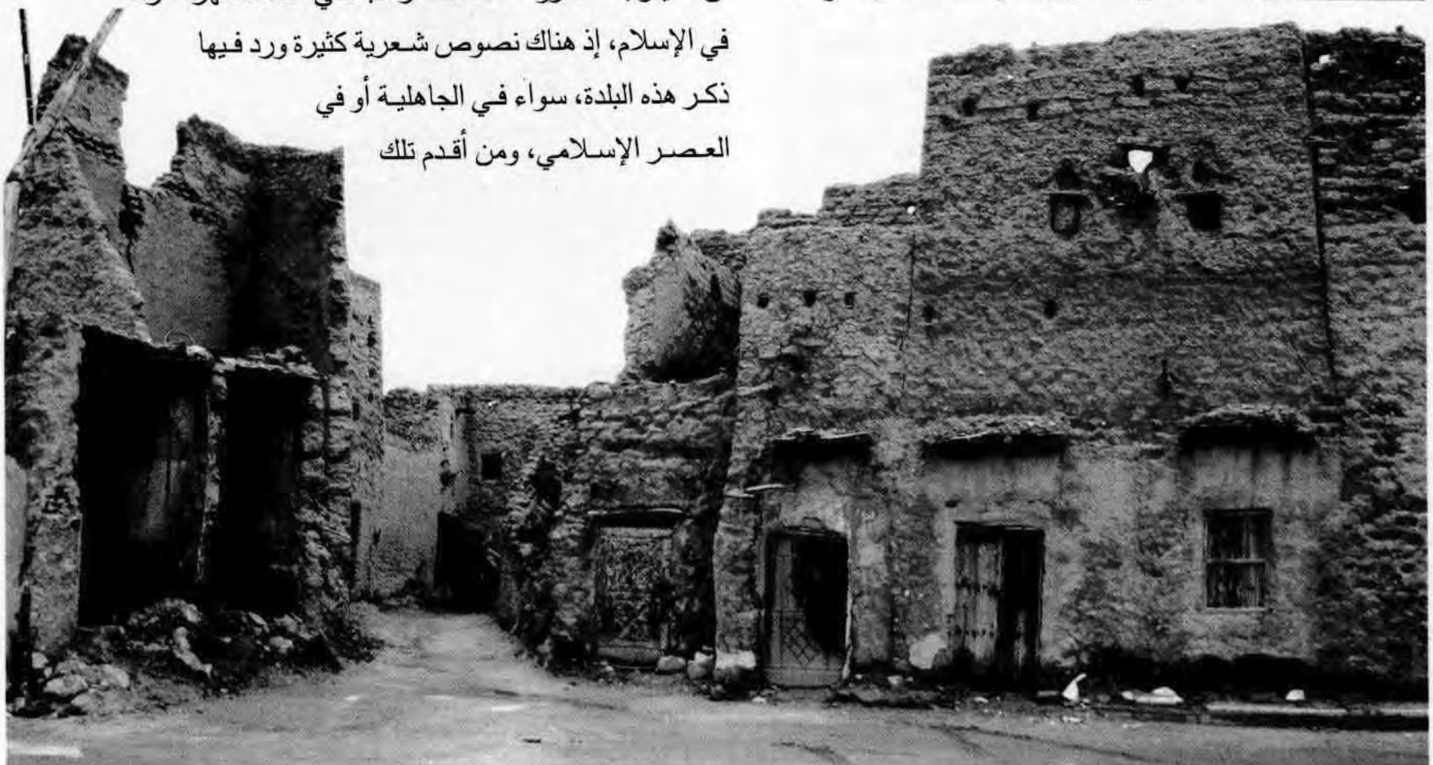
أشيقر:
بلد العلماء والنخيل والأوقاف

سعود اليوسف - حمد عبدالعزيز الحمّيد

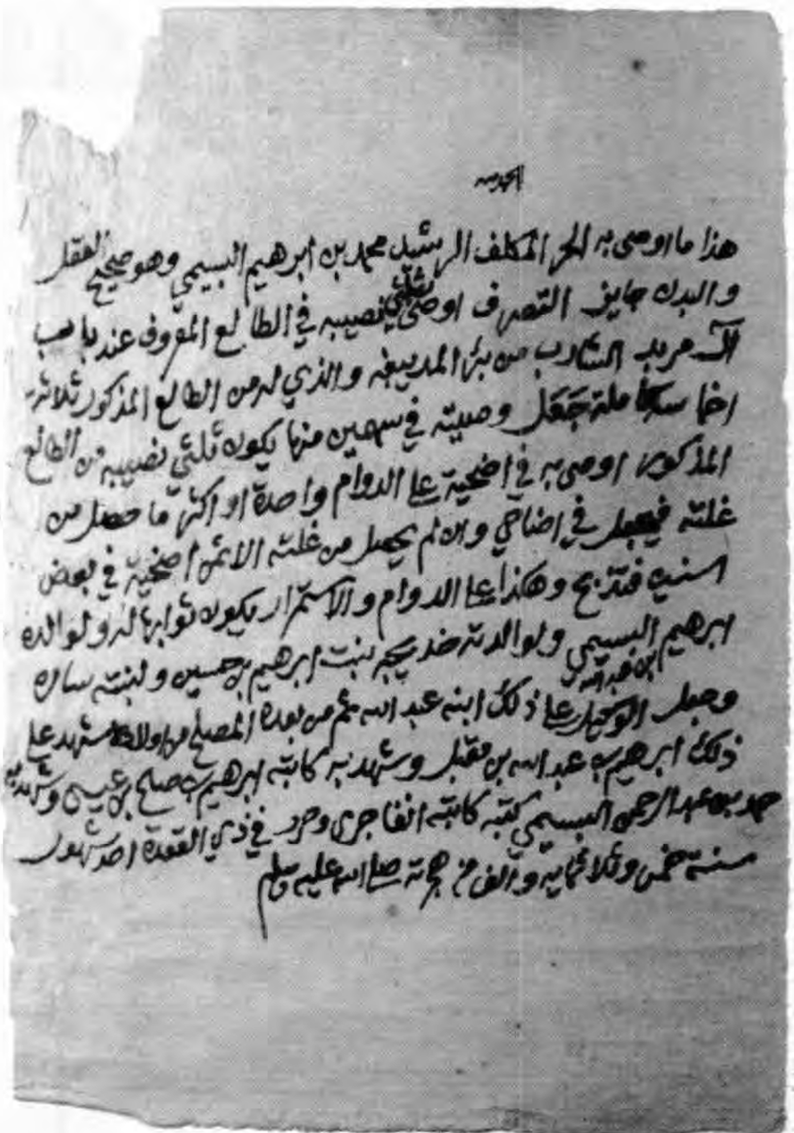
لبعض الأماكن قوة جذب لا تقاوم، تكمن في عبق التاريخ الذي يفوح منها، فيشد المرء إليها، بحكم غريزة حب الاستطلاع التي تدفعه إلى اكتشاف ما قد يبدو غريبًا أو مجهولاً، أو مدفوعًا بالحنين إلى الماضي، بوصفه الكائن الوحيد الذي له تاريخ، وذاكرة حافظة لهذا التاريخ بشتى الوسائل.

وفي المملكة العربية السعودية، كثيرة هي تلك الأماكن المضمخة بروائح التاريخ وذكريات الأحداث ومآثر الأعلام، تعد أشيقر واحدة منها، لما مر بها من أحداث تاريخية، وما تميزت به من خصائص عمرانية، ومكانة علمية، وهذا الاستطلاع المصوّر عنها، يتناول أهم ملامح هذه البلدة عبر التاريخ.

ولما كان الشعر ديوان العرب، وسجل أحداثهم، فإنه يؤكد أن أشيقر بلدة معروفة منذ العصر الجاهلي، كما اشتهر ذكرها في الإسلام، إذ هناك نصوص شعرية كثيرة ورد فيها ذكر هذه البلدة، سواء في الجاهلية أو في العصر الإسلامي، ومن أقدم تلك



منظر يبين مدخل سوق المدينة بأشيقر من الناحية الشرقية لخليل البلدة



من مخطوطات أشيقر

النصوص، ما هو منسوب إلى الشاعر الجاهلي مضرّس بن ربعي:

تحمل من وادي أشيقرَ حاضرُهْ

وألوى بريعانِ الخيام أعاصرُهْ

ومرَّ بها الشاعر جرير وهو في طريقه من المروت إلى الشام، فقال فيها:

أصبحن من نقوى حفير دلحا

بلوى أشيقر جائلات الأعراض

أما الشاعر ناهض بن ثومة الكلابي، فذكر بعض معالمها:

برمحين أو بالمنحنى دب فوقها

سفا الريح أو جزع من السيل خادش

كما أن هناك شعراً منسوباً إلى شاعر بني هلال الذي قيل: إنه ورد عليها مع قبيلته، فقال:

وردناك ياعد تسمى وشيقر

صدرنا حيام والشراب وجيد

الموقع الجغرافي

أما عن التسمية، فإن أشيقر سميت بهذا الاسم نسبة إلى جبل الأشقر الذي يحدها من الشمال، ويمتد بشكل قوس من الشرق إلى الغرب، مائلاً إلى الشرق يسيراً.

وبعد أن كانت أشيقر يحدها شمالاً جبل الجنينة وجبل العرضا وجبال عوصا، التي تشكل جميعها سلسلة جبلية واحدة، فإن حدود أشيقر الحالية تجاوزت امتداد الجبل غرباً إلى قرب خط القصيم، فتحدها غرباً صفراء القبلة التي تنحدر منها أودية أشيقر، وهي: الوعرا، والخليّف، والقلت، والغويرة، والساكني، والغليظة، وشعيرات، والبويطنات، والمنحنى الأدنى. أما جنوباً، فيحدّها وادي الفرعة، ويحدها شرقا جبل الحليلة (البازم)، وجبل القويرات. وبها وادي المنحنى الذي ينحدر من الغرب إلى الشرق بطول ٢٠ كم تقريبًا، كما يقع بالقرب منها روضتان، هي: الرمحية. والهوبجة، فتقع الأولى شمال شرق أشيقر على بعد ٧كم تقريبًا، بينما تقع الروضة الثانية في غربها على بعد ١٥كم تقريباً، ويحدها شمالاً جيب غراب، ويحدها جنوبًا الرعين، وهو امتداد لجبل أشيقر، ويحدها غربًا الغرابة، وهي مورد ماء، وفي جنوب الهوبجة الرمحين.

وقد هيأ لها المناخ المعتدل والموقع الممتاز أسباب ازدهار الزراعة والنشاط الرعوي، حيث تنتشر فيها البساتين الوارفة، وأشجار النخيل الباسقة التي تجود بأطيب أنواع التمور، والمحاصيل الزراعية المتنوعة، كما تزدهر فيها تربية الإبل والأغنام، وكان لذلك أثره في انتعاش الحركة التجارية منذ أزمان بعيدة، مما ربطها بالعالم الخارجي من خلال رحلات التجارة استيراداً وتصديراً، فتهيأت بذلك أيضًا عوامل قيام الأسواق، واتساع حركة البيع والشراء، وتنوع مصادر الرزق.



مدخل الحي الجديد ببلدة أشيقر الحديثة



صورة لأحد المنازل الواقع في نهاية سوق البلدة، ويطل على المسورية شمالاً



الأوقاف: خيرات تتجدد

لما كانت أشيقر بلدة علم وعلماء، فإنها عرفت الأوقاف الخيرية، في جميع مجالات الحياة، بوصفها ركيزة مهمة أرستها الحضارة الإسلامية، كما كانت بدورها أساساً من أسس ازدهارها ورقيها.

ومن أوجه الأوقاف التي شاعت في أشيقر، ومارسها أهلها، الوقف على صوام رمضان، وعلى الفقراء والمساكين، وعلى السُرج لإضاءة المساجد والطرقات والميادين، فكانت تنعم أشيقر بإضاءة شوارعها ومساجدها، بينما كانت أوربا تعيش في ظلام، إذ كان يتم الصرف على تلك السرج من أوقاف الخيرين من أهالي البلدة، الذين كانوا ـ كذلك ـ يشاركون جميعًا في إكرام الضيف، كلّ حسب ما تتيحه قدراته المادية. ومن مظاهر الاهتمام بإكرام الضيف وجود نظام دقيق للقيام بهذا الواجب الذي يفرضه الإسلام، فقد كانت المزارع والبساتين تصنف إلى فئات مختلفة حسب المساحة ومقدار الإنتاج، فكان يؤخذ نصيب معين عند الحصاد والجذاذ من كل أهل البلدة، وكان يحدد لكل واحد منهم عدد من يكفلهم من ضيوف، وكانت المواد الغذائية تخزن في مستودع، يقوم عليه أحد المعروفين بالنزاهة، وكان يصرف من هذا المستودع على الضيوف الذين ينزلون في مكان معلوم يكون في الغالب ملاصقًا للمسجد، ويعرف بدار الغرباء، بل كان هناك مناد ينادي كل ليلة في البلدة ليستعلم إذا كان يوجد جائع أو غريب.

كما عرف أهل أشيقر الأوقاف الخيرية لعمارة المساجد وترميمها، فكانوا يوقفون أملاكهم لهذه الغاية، ومن أهم المساجد الوقفية: المسجد العتيق المسمى بالجامع، ومسجد الشمال، ومسجد الفيلقية، ومسجد الربيعية، بل إن إمام المسجد لم يكن يتلقى أجرًا من الدولة، وإنما كان يأخذ أجره من ريع الوقف الذي يحدده له الواقف.



منظر عام لبلدة أشيقر القديمة

وشملت الأوقاف الخيرية الدُلي التي تستخرج بها المياه من الآبار، والعامل الذي يقوم عليها. ومن الأوقاف المعروفة في هذا المجال، دلو القاضي، ودلو الفيلقية، ودلو الشمال، ودلو صبيح، ودلو الجميعية، ودلوالبو رباع، ودلو المتاربك، ودلو أبا نصية، ودلو آل عزام، ودلو حمد القاضي، ودلو بسام، ودلو حويط عبدالله، ودلو العصامية.

وخصص لنظافة الطرقات والأسواق ونظافة البلدة عمومًا نصيب من ريع الأوقاف الخيرية،للصرف على العامل، وعلى شراء الأدوات التي يستخدمها، وعرف هذا النوع من الوقف بالمساعي.

ولم يكن لأهل العلم في أشيقر أن يغفلوا أهمية تخصيص الأوقاف الخيرية للمصاحف وكتب العلم والمدارس، بل هناك علماء من أشيقر أوقفوا كتبًا ومخطوطات على المدارس والمكتبات في بعض البلدان التي نزحوا إليها طلبًا لمزيد من



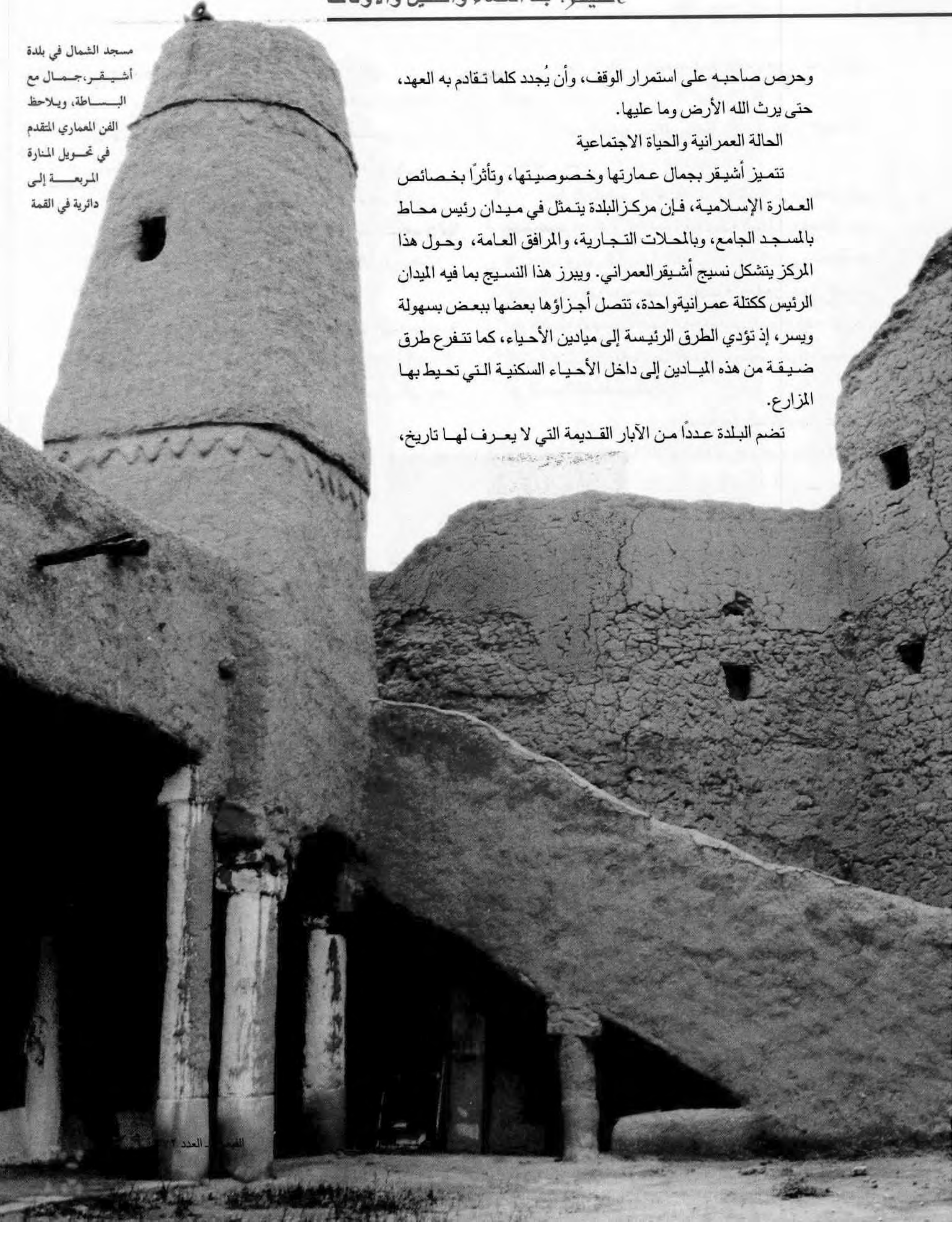
منزل في النقيب شمال بلدة أشيقر

العلم، فعلى سبيل المثال، أوقف الشيخ أحمد بن إبراهيم بن محمد بن حميدان ثلاثة كتب هي، الفروع والزركشي والأنصاف وتقع في ٤٠ مجلداً على مدرسة أبي عمر الصالحية بدمشق، وكان هذا العالم يدرس الفقه الحنبلي في دمشق. ومثل هذه الأوقاف الخيرية تحث أفراد المجتمع على المشاركة الفاعلة، وتلمس الحاجات الضرورية لهذا المجتمع، وإيجاد الوسائل المناسبة لتلبيتها، ومن بينها الأوقاف التي كانت من أهم خصائص الحضارة الإسلامية وأسباب ازدهارها.

وهناك بعض المخطوطات التي توضح أوقاف بعض الخيرين من أهل أشيقر، وأنواع هذه الأوقاف، ومدتها، وكيفية ضمان استمراريتها. ومنذلك وقف صبيح عتيق عقبة الذي اشتهرت وصيته، لأنها جاءت جامعة، وشمل وجوه خير كثيرة، كما شمل جميع أهل أشيقر، ومن يمر بها من ضيوف،



صورة تبين مجلس البلدة بأشيقر، وعلى الجوانب المحلات التجارية القديمة وبعض المنازل



مسجد الشمال في بلدة أشيقر، جمال مع البساطة، ويلاحظ الفن المعماري المتقدم في تحويل المنارة المربعة إلى دائرية في القمة

وحرص صاحبه على استمرار الوقف، وأن يُجدد كلما تقادم به العهد، حتى يرث الله الأرض وما عليها.

الحالة العمرانية والحياة الاجتماعية

تتميز أشيقر بجمال عمارتها وخصوصيتها، وتأثرًا بخصائص العمارة الإسلامية، فإن مركز البلدة يتمثل في ميدان رئيس محاط بالمسجد الجامع، وبالمحلات التجارية، والمرافق العامة، وحول هذا المركز يتشكل نسيج أشيقر العمراني. ويبرز هذا النسيج بما فيه الميدان الرئيس ككتلة عمرانية واحدة، تتصل أجزاؤها بعضها ببعض بسهولة ويسر، إذ تؤدي الطرق الرئيسة إلى ميادين الأحياء، كما تتفرع طرق ضيقة من هذه الميادين إلى داخل الأحياء السكنية التي تحيط بها المزارع.

تضم البلدة عددًا من الآبار القديمة التي لا يعرف لها تاريخ،

وتسمى جفارات بني تميم، وهي متجاورة المواقع.

وتحيط البلدة سبعة أسوار متداخلة تتكون من طبقتين أو ثلاث طبقات، وارتفاع يراوح بين ٥ ـ ٦ أمتار، وقد تهدم معظمها من طول السنين. وللبلدة خمسة مداخل، وهي:

باب المصاريع وهو أكبرها، وهو المدخل الرئيس من الناحية الغربية. ويتكون من مدخل له باب بمصراعين، وعليه برج للمراقبة، وقد أزيح هذا الباب في الأعوام ١٣٦٨ ـ ١٣٧٠هـ.

القادم إلى أشيقر يأخذ الطريق إلى داخل البلدة من سوق البر حتى يصل إلى مكان يسمى المنيِّخ، حيث ينوخ القادم إلى البلد من غير أهلها. ثم يتقدم ليجد المسجد الجامع على يمينه، وبجواره المجلس العام، ويحف بهذا المجلس محلات ودكاكين للبيع و الشراء.

ومن هذا المجلس تنطلق مداخل الأحياء في الاتجاهات المختلفة. وهي:

مدخل العقدة من الناحية الغربية للمجلس، ومدخل حي العصامية من الناحية الغربية الجنوبية للمجلس، ومدخل حي المهاصري من الناحية الجنوبية، ومدخل حي المدينة من الناحية الشرقية، وبه مسجد الفيلقية، ومدخل سوق الصالح من الناحية الشمالية الشرقية، ومدخل السوق الشمالي من الناحية الشمالية وبه مسجد الشمال، ومدخل سوق الصعيداء من الناحية الشمالية والغربية.

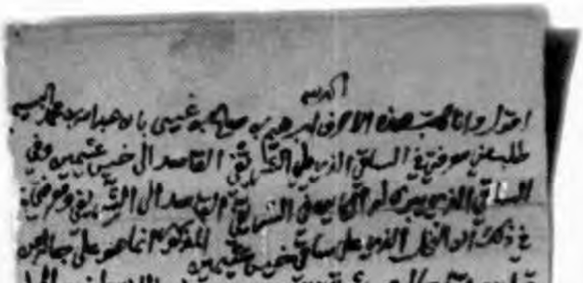
وجميع هذه المداخل بها تفرعات داخلية كثيرة. وتضم هذه الأحياء والأسواق البيوت المتراصة على الجانبين وأغلبها مسقوف يستفيد منها المتجاورون بطرق آمنة ومنظمة.

والمتجول في بلدة أشيقر يلاحظ عشرات الآبار المتقاربة، كما يلاحظ سعة هذه الآبار، وإحكام طيِّها، ووجود مساجد ملحقة بكثير من هذه الآبار.

وبلدة أشيقر، كغيرها من البلدان أصيبت بالفتن والبلاء والقحط والوباء، إلا أنها على ذلك، لمَ تكن خالية من السكان في يومٍ من الأيام.

وتساعد الوثائق ودراسة المباني على استخلاص مجموعة من الحقائق، مثل عدم وجود أبواب متقابلة تمامًا على الرغم من تراص البيوت والأبواب، وذلك محافظة على الجوار، وتجنبًا لكشف ما بداخل بيت الجار، احترامًا للخصوصية، وتقديرًا للحرمات.

كما أن أغلب البيوت لها بابان،



احدى المخطوطات الوقفية



مخزن لحفظ التمر النوع الثالث «منقولة»



مخزن لحفظ التمر «جصه» النوع الثاني



من الآبار القديمة في أشيقر



وادي الوعرى، ويلاحظ قوة سبك الحجارة في قسمة السيل بين البلدتين أشيقر والفرعة بعدما اختلفتا على الماء طويلاً



مصحف شريف من الأوقاف الخيرية

باب صغير، وهو مدخل الرجال، وباب كبير، وهو المدخل الرئيس للبيت؛ وقد كانت الفتحة التي ينظر منها الناظر، والتي تسمى «الطرمة» موجهة لباب البيت فقط، ولا تتوجه أبداً لأبواب الجيران.

وكانت جدران البيت تبنى من الحجارة، لضمان المتانة والقوة، ولحمايتها من التأثر بالأمطار.

وكانت جميع المنازل تحوي أماكن للوضوء وقضاء الحاجة، وكانت تسمى «السعة» و«المثعب»، كما كان بكل بيت مطبخ يسمى الموقد، وكان يحتوى على ثلاث أثافي «مناصب» وتنور، مع بعض الإضافات في حالة غنى الأسرة.

والمساكن المقامة على الأسواق والتي تتجاور، تتساوى في نصيبها من حيث المساحة المطلة على السوق.

وعند حدوث أي خلاف أو نزاع، كان يرجع إلى الشيخ الذي كان يعرف بـ «المخلاص»، لإصدار ما يراه من حكم، وليس لأحد من الخصوم الرد، ويقال فلان فلج فلاناً، إذا حكم له القاضي.

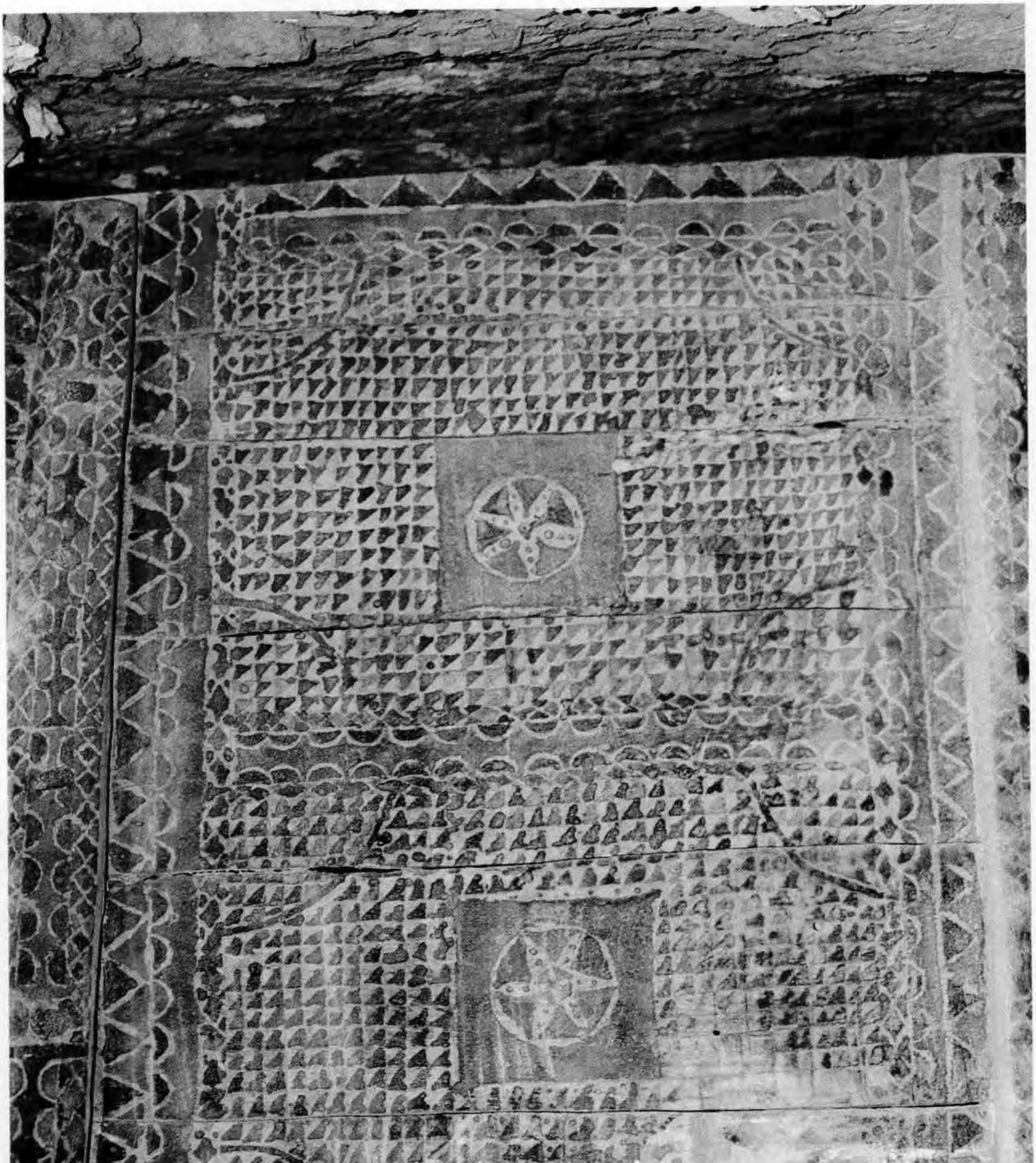
ومن أكثر ما يميز أهل أشيقر اهتمامهم الكبير بالتمور بوصفها الغذاء الرئيس لهم إلى جانب الحبوب. ولذلك فهم يحافظون على النخيل بالوسائل المختلفة، ويهتمون بتخزين التمور، ولهم في ذلك طرائق متعددة، ومنها:

ـ حفظ التمر المعد للبيع في أماكن كبيرة تسمى الركن وأبعاده ١٨٠×١٨٠×٢٠٠سم.

ـ تحفظ التمور في الجصة، وهي للأسر الكبيرة، وأقل حجماً من الركن، وأبعاده ٩٠×٩٠×١٨٠سم.

ـ أما المنقولة فهي أصغر من الجصة، ويشيع استخدامها في البيوت الصغيرة وأبعاده ٦٠×٦٠×١٦٠سم.

ـ أما المخزن فيوضع داخل السور خشية السرقة، وأبعاده ٦٠×٦٠×١٦٠سم. لا يخلو بيت في أشيقر من الركن أو الجصة أو المنقولة لحفظ لتمور.



باب قديم من خشب الأثل منقوش في أحد المنازل بأشيقر

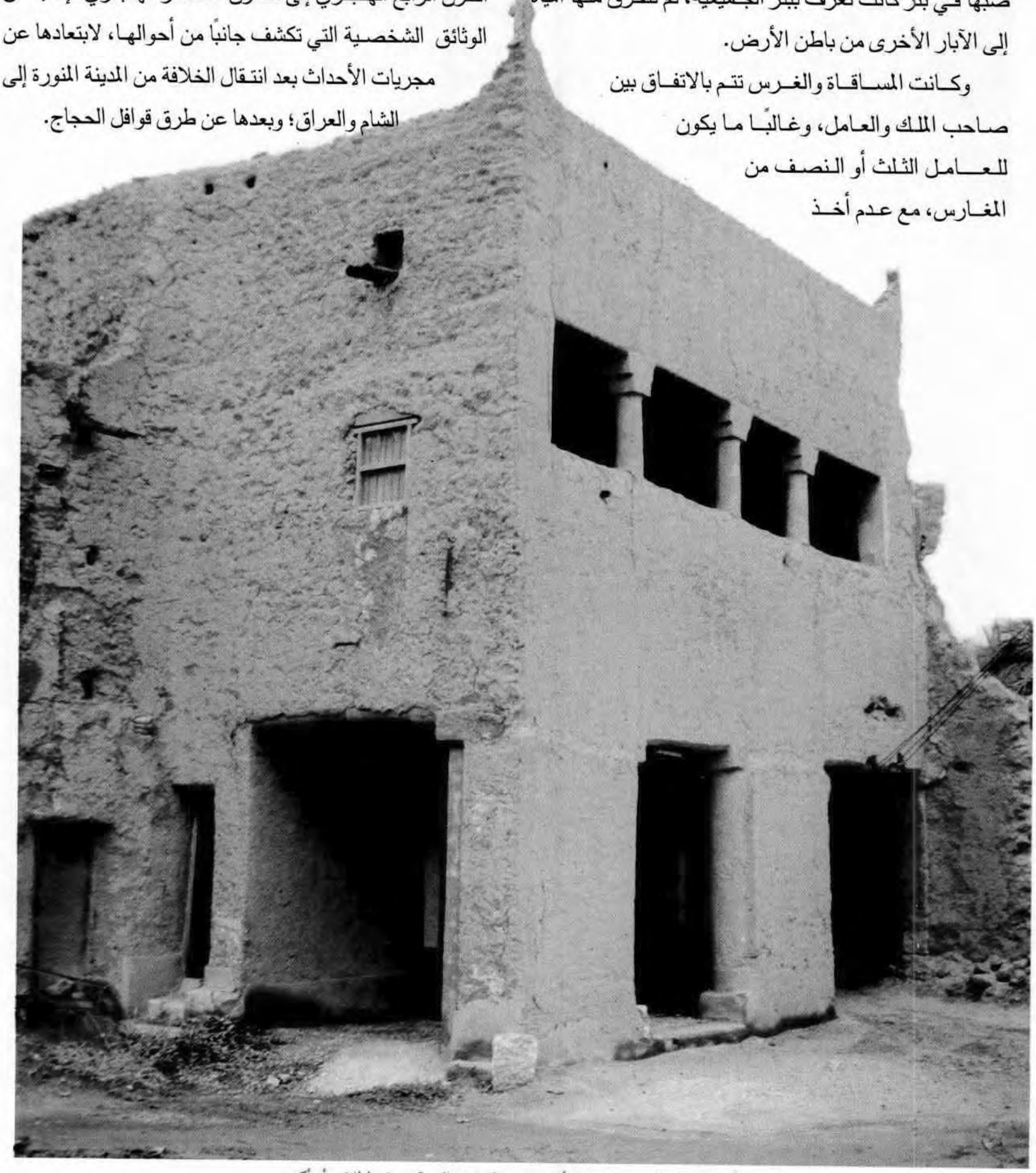
وكان للسيل نظام يكفل الاستفادة القصوى منه، ويسمى القسامية،وتشمل نصيب الأملاك من السيل والعامل الذي يقوم بالخدمة، ومداخل السيل ومخارجه التي تضبط بالحجارة.

وكانت مياه السيول تُخزن في باطن الأرض عن طريق صبها في بئر كانت تُعرف ببئر الجميعية، ثم تتفرق منها المياه إلى الآبار الأخرى من باطن الأرض.

وكانت المساقاة والغرس تتم بالاتفاق بين صاحب الملك والعامل، وغالبًا ما يكون للعامل الثلث أو النصف من المغارس، مع عدم أخذ شيء على الغرس الذي يمر به الماء، ليعبر إلى ما بعده من الأملاك.

المكانة العلمية

لا توجد أخبار كثيرة عن نجد في الفترة التاريخية الممتدة من القرن الرابع الهجري إلى القرن العاشر الهجري، إلا بعض الوثائق الشخصية التي تكشف جانبًا من أحوالها، لابتعادها عن مجريات الأحداث بعد انتقال الخلافة من المدينة المنورة إلى الشام والعراق؛ وبعدها عن طرق قوافل الحجاج.



منظر يبين أحد المنازل، التي تتميز بوجود أعمدة من الحجارة والتي قد ترتفع لطابقين أو أكثر



صورة للمحاحيل التي تستخدم في السقي

ومع ذلك، فإن الدلائل التاريخية تشير إلى أن أهل أشيقر كانت لهم صلتهم بالعالم الخارجي، فكان هناك اتصال بين علمائها وعلماء الحرمين الشريفين، كما كان لأهلها رحلات مبكرة لطلبة العلم في مصر والشام والعراق، هيأت لها علماء كان لهم إسهامات كبيرة في نشر العلم والمذهب الحنبلي، ولم يتجاوز الشيخ أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري الواقع عندما وصف أشيقر بأنها « رمانة محشوة بالعلماء، يرحلون إلى الآفاق، ويرحل إليها أهالي الجزيرة،



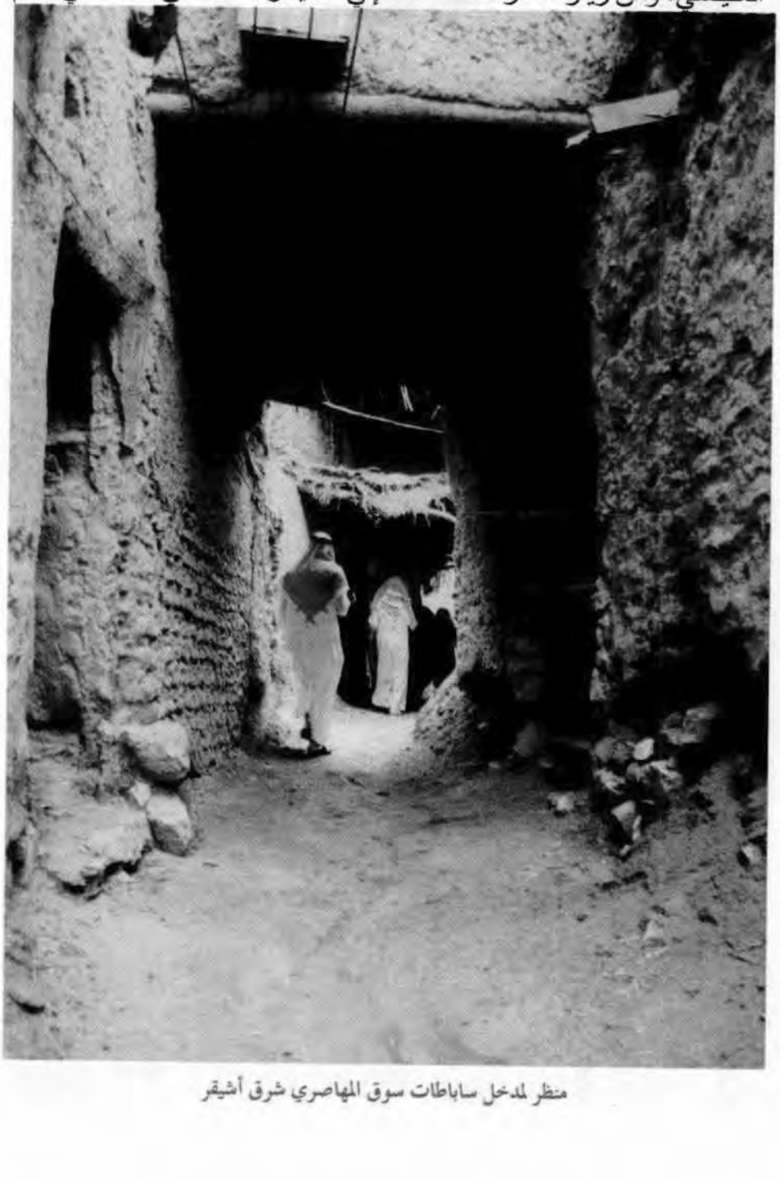
صورة تبين نموذجًا للنقوش والزخرفة المحلية في أغلب مجالس أشيقر، والصورة لمجلس سعود بن صعب، رحمه الله

ويتلقون عنهم»، ولا عجب، فقد غدت أشيقر مركزًا علميًا رئيسًا في نجد طوال ثلاثة قرون، هي: العاشر والحادي عشر والثاني عشر بعد أن توافر لها علماء كثر، قيل: إنهم كانوا يمثلون نصف علماء نجد، حتى كان الطلبة من نجد يفدون إليها لتلقي العلوم من هؤلاء العلماءالذين كان بعضهم يتولى أمور القضاء والفتوى والتدريس في مناطق نجد المختلفة، وكان لهم دور كبير في بروز مراكز علمية بها مثل بلدتي مقرن (الرياض) والعيينة في القرن الحادي عشر، وبلدتي المجمعة في سدير وعنيزة في القصيم في القرن الثاني عشر.

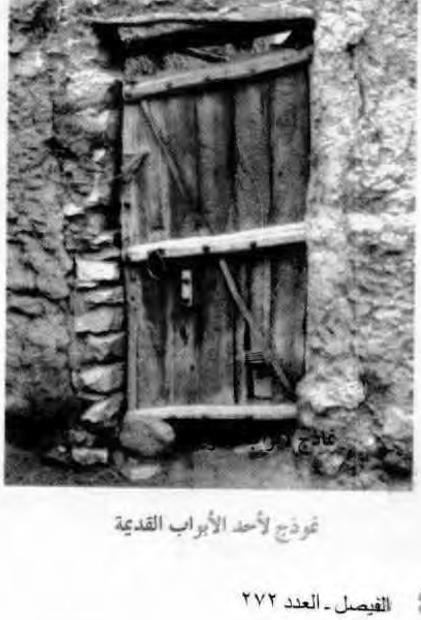
وزار الملك عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ أشيقر كثيرًا، وكان يكن تقديراً واضحًا لعلمائها، ولا أدل على ذلك من أن جلالته بعث الكاتب العربي أمين الريحاني إلى أشيقر، ليستفيد من علم المؤرخ الشهير إبراهيم ين صالح العيسي. ومن زياراته ـ رحمه الله ـ إلى أشيقر، تلك التي كانت في عام



صورة تبين مداخل الرجال ومداخل النساء، كما يلاحظ في الصورة «الطرمة» التي تكشف هوية الطارق



منظر لمدخل ساباطات سوق المهاصري شرق أشيقر



نموذج لأحد الأبواب القديمة



أشجار النخيل تحف بالمنازل



منظر جزئي لروضة الرمحية شرق أشيقر ويظهر النفود «رمحين»



أشجار النخيل

١٣٣٦هـ، بصحبة ما يزيد على خمسة وثلاثين خيالاً ، وكان من عادته النزول على الشيخ عبدالله بن جاسر البجادي، ثم منه إلى أميرها إبراهيم بن عبدالله الخراشي.

ازدهاره الحركة الأدبية

يرتبط ازدهار الأدب في مكان ما يتوافر المناخ العلمي الملائم، ولما كانت أشيقر على مكانة علمية رفيعة سبق ذكرها، فإن وجود حركة أدبية مزدهرة بها يبدو نتيجة طبيعية، لا تحتاج إلى تفسير أو تأويل.

والشعر بوصفه أكثر الألوان الأدبية شيوعًا بين العرب، أجاده علماء كثيرون من أشيقر يضيق المجال عن ذكرهم، إلا أن من أبرز هؤلاء الشيخ القاضي عبدالله بن أحمد بن محمد بن مشرف (ت ١٠٣٥هـ)، والشيخ إبراهيم بن صالح بن عيسى، والشيخ محمد بن عبدالله المانع، والشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن عامر الذي نسخ بيده ديوان المتنبي في عام ١٢٩٣هـ.

كما أن بها في هذا العصر شعراء بالفصحى، إلى جانب الشعر العامي؛ وقد جاء ذكر كثير من نماذج الشعر العامي لشعراء أشيقر في كتابين هما: «أشيقر والشعر العامي»، و«شعراء من الوشم».

وها هو الحنين إلى الماضي يستنطق ابن أشيقر الشاعر حمد عبدالله المنصور، فيقف باكيًا على الأطلال، مستحضرًا ذكريات الأيام الخوالي، ومستخلصًا العبر، فيقول:

قف في أشيقر لا تبرح تلائده
واستنطق الدار كي تستلهم العبرا
قف واعتبر كيف كان الربع من زمن
وانظر إليه ولا تستعجل النظرا
بالأمس كانت ربوع الحي عامرة
والقوم فيها تُشيد الطين والوبرا
والماء يمشي على ساحاتها جذلاً
يُسقي النخيل ويروي حوله الشجرا
واليوم يبكي عليها الأهل قاطبة
لما دهاها وأفنى العين والأثرا

الهوامش والمراجع:

- نشكر للشيخ صالح بن عبدالرحمن الرزيزاء، والأستاذ إبراهيم بن عبدالرحمن بن حمد المفدى، والشيخ عبدالرحمن بن منصور أبا حسين، والشيخ منصور بن عبدالعزيز الرشيد، والمهندس المعماري عبدالرحمن بن عثمان الحصيني، والشيخ عبدالله بن بسام البسيمي، والشيخ عبدالمحسن بن عبدالله الموسى ماقدموه من معلومات قيمة لإتمام هذا الاستطلاع.

١ـ علماء نجد خلال ثمانية قرون، الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن بن صالح البسام، دار العاصمة، الرياض، ١٤١٩هـ.

٢ـ الحركة العلمية في أشيقر في الماضي والحاضر وعلماؤها في ستة قرون، عبدالرحمن بن منصور بن سليمان أبا حسين.

٣ـ المشاهدات القائمة في البلد وأسواقها وتخيلها حتى عام ١٤١٩هـ. والمخطوطات الموجودة لدى الأهالي.

٤ـ شعراء من الوشم، سعود عبدالرحمن اليوسف، توطئة عن الوشم والوشوم لأبي عبدالرحمن بن عقيل الظاهري.

غياب الأب عن الأسرة وأثره في شخصية الطفل

أحمد محمد الزعبي

هناك اتفاق بين علماء النفس على أهمية الأسرة وأثرها الكبير في التنشئة الاجتماعية للطفل، وفي تكون شخصيته، حيث يؤدي كل عضو من أعضائها دورًا أساسيًا في عملية النمو النفسي والعقلي والاجتماعي للطفل، وخاصة في سنوات الطفولة.



والأب يعدّ الأساس في الأسرة، إذ تبقى الأم والطفل في ظله، كما أنه من غير الممكن أن ينمو الطفل ليصبح رجلاً، أو تنمو الفتاة لتصبح امرأة مكتملي الكيان إلا بوجود الأب الذي يقوم بدوره الفعال نحوهما.

ولهذا، فإن وجود الأب في الأسرة ضروري، لا لتصبح المرأة أمّاً فحسب، وإنما لتنمية مشاعر عاطفية نفسية، فدوره لا يقتصر على إنجاب الأطفال، بل يتجاوز ذلك ليشمل إطار طبيعة الحياة القائمة على تكامل الرجولة والأنوثة بكل مقوماتهما. فالأب والأم كيان مزدوج متكامل، فالوظيفة الأبوية تشتمل على كل ما يحدث بداخل الطفل نتيجة علاقته بأبيه، بينما يشتمل الإحساس الأبوي على كل ما يحدث بداخل الأب نتيجة علاقة الطفل به. فالإحساس بالأبوة ينطلق من علاقة ثلاثية الأبعاد (أم - طفل - أب).

فالرجل لا يصبح أباً خارج إطار ارتباطه بزوجته أمّ الطفل. كما يكمن إحساس الرجل بالأبوة من إحساسه بأنه جاهز للاستجابة وبشكل عفوي لطلب زوجته والطفل في آن واحد، وهذا يتعلق بالنمط الثقافي السائد. ولذلك، فإن ارتباط الرجل بزوجته، وارتباطه بطفله، وتأمين دوره الاجتماعي - المهني تشكل عناصر أساسية لمركز الذكورة ضمن إطار المجتمع الكبير(١).

والأب هو أهم وجه يتعرف إليه الطفل بعد وجه أمه، إنه يمثل النموذج الذَّكَرِي داخل المنزل، يساعد الأم في رعاية الطفل وتنشئته، وهو أول نموذج ذكري يتمثل بصفاته كذكر ويحاكيها لاكتساب ذكورته، وتتعرف البنت بفضله على الجنس الآخر، فلا يصبح هذا الجنس مجهولاً بالنسبة إليها، مما يسهل عليها فيما بعد تكوين علاقة طيبة مع الجنس الآخر بقصد الارتباط به مدى الحياة ضمن إطار الزواج لتكوين حياة أسرية مستقرة.

الأب يبدأ المهمة

يبدأ الطفل في تمييز وجه الأب منذ فترة مبكرة، إذ يكون للأب الدور الحاسم في الأسرة؛ لأنه يمثل القانون الاجتماعي، والسلطة، ويضبط العلاقات الأسرية، إنه المربي الحقيقي الذي يقدم النموذج الضروري داخل الأسرة، إنه مربٍّ للطفل لأنه رمز للقانون الاجتماعي، وإنه موجه، وحام، وحارس له من كل ما يواجهه من عقبات. فالأب يبدأ المهمة، والأم تنهيها(٢).

غياب الأب في مرحلة الطفولة المبكرة يؤثر سلبًا في النمو النفسي والعقلي للطفل

ولذلك فإن غياب الأب عن الأسرة، سواء أكان الغياب معنويًا أم فعليًا، غالبًا ما يؤدي إلى عدم استقرار الأسرة، ويؤدي إلى صراعات نفسية عند الطفل مرتبطة بدور الأب، مما يولد في نفسه الاضطراب، ويثير في داخله الإحساس بانعدام التوازن العاطفي والأمن النفسي.

أظهرت دراسات عديدة عربية وأجنبية أهمية الدور الذي يؤديه الأب في شخصية الطفل، حيث تبين أن غياب الأب يؤثر في مدى تقبل رفاق المرحلة العمرية للطفل، مما ينعكس في المدى الطويل على كفاءة علاقته بالآخرين. كما أشارت الدراسات أيضاً إلى أثر التفاعل مع الأب في النمو العقلي للطفل في مرحلة الطفولة المتأخرة ثم المراهقة. كما وجد أيضاً أن منخفضي التحصيل من الأطفال وصغار المراهقين يأتون من أسر تغيّب عنها الأب، بينما كان الأطفال المرتفعو التحصيل من أسر تميزت علاقات الأب بأبنائه فيها بالتفاعل الموجب(٣).

التأثير في اكتساب الأدوار الاجتماعية

كما يؤثر غياب الأب في مرحلة الطفولة المبكرة في النمو النفسي والعقلي للطفل، حيث توصلت دراسة جوزيت عبدالله(٤) التي أجريت في القاهرة، إلى أن البناء النفسي للطفل الغائب الأب، يتسم بمشاعر الخوف والتهديد والحرمان من الحماية، والسند، والأعراض الاكتئابية التي تتولد نتيجة غياب الأب عن الأسرة. كما أن غياب الأب يؤثر في اكتساب الطفل للأدوار الاجتماعية «الذكورة والأنوثة»، التي تعد في أساسها عملية تعلم اجتماعي تحقق للمجتمع بقاءه واستمراره، حيث يقوم الآباء بتنمية السمات السلوكية لدى الطفل بما يتناسب مع جنسه، أي أن يكتسب الطفل صفات الذكورة، وتكتسب الطفلة صفات الأنوثة.

غياب الأب عن زوجه يجعلها تتشبث بطفلها، وترتبط به بعلاقة تبعية مفرطة

ولذلك فإن الأسرة تؤدي دوراً أساسياً في هذا الاكتساب، إذ إن وجود الأب واتصاله المباشر بابنه، يجعل الابن يعمل على تقليده بطريقة شعورية أحياناً، ولا شعورية أحياناً أخرى، خصوصاً في سني حياته الأولى، فيتعلم بذلك أنماط السلوك التي يعدها المجتمع مناسبة ومميزة للذكور من أفراده(٥).

ولا يساهم الأب في بلورة الدور الجنسي للطفل الذكر فحسب، بل يساهم في تشكيل البنات لأدوارهن الجنسية، حيث يساعد الأب على نمو مفهوم الذات الأنثوي الإيجابي من خلال علاقته بهن.

ولهذا فإن غياب الأب يؤثر تأثيراً خطيراً في عملية اكتساب الدور الجنسي لكل من الذكور والإناث، وإن هذا التأثير يكون أكثر وضوحاً عند الأولاد الذكور؛ فقد وجد أن غياب الأب يخلق العديد من المشكلات المرتبطة بكفاءة نمو الدور الجنسي بالنسبة إلى الأولاد، فالطفل الذي يتكرر كثيراً غياب الأب عنه، يحرم من الإحساس الذكري، ويتعلم خلال وجوده مع أمه أن ينظر إلى العالم من وجهة نظر الأنثى؛ فقد ذكرت هيذرنجتون HETHERINGTON(٧) أن غياب الأب قبل سن الخامسة، يؤدي إلى تفضيل الأطفال الذكور للدور الأنثوي بشكل واضح، وذلك نتيجة العلاقة الوثيقة التي تربطهم بالأم من دون الأب، مما يحولهم في كثير من الأحيان إلى السلبية والسلوك الأنثوي.

ومن خلال دراسة ترنبل TURNOBULL(٨) حول التأثيرات البعيدة المدى لغياب الأب في مرحلة الطفولة، وأثر ذلك في الدور الجنسي والتوافق الشخصي لهؤلاء الأطفال الذكور على عينة قوامها (١٧٣) طالبا في المرحلة الجامعية، تبين وجود فروق دالة بين مجموعتي حاضري الأب وغائبي الأب فيما يتعلق بتمثل الدور الجنسي، كما وجدت فروق دالة معنويا في مقياس التوافق الاجتماعي، وكانت هذه الفروق لمصلحة مجموعة الأولاد الحاضري الأب.

كما توصلت دراسة كل من شارلز CHARLES(٩) على (٥٨) طالباً من طلاب المدرسة الابتدائية، وجون JOHN (١٠) التي أجريت على أطفال ذكور في مرحلة التعليم الابتدائي، ومرحلة ما قبل المدرسة، وهيذرنجتون HETHERINGTON(١١) على ٤٥ طفلاً تراوح أعمارهم ما بين (٩ و ١٢) سنة، وكذلك دراسة ستيفينسون وبلاك STEVENSON & BLACK(١٢)، إلى وجود فروق دالة معنوياً بين الجنسين الفاقدي الأب في الدور الجنسي، حيث تبين أن غياب الأب له دور كبير في الدور الذكري لدى الأبناء الذكور، بينما هذا الغياب له تأثير أقل على الدور الأنثوي لدى الإناث.

فقد أظهر الأطفال الغائبو الأب سلوكاً جنسياً أقل ذكورة، وأنهم أكثر اعتماداً على غيرهم من الأطفال الذين كانوا يعيشون مع آبائهم.

أما دراسة فرحات (٢:٨٩٥) التي أجريت على عينة قوامها (٣٣١) تلميذاً من تلاميذ الصف الرابع والخامس الابتدائيين والصف الأول والثاني الإعداديين في جمهورية مصر العربية، فقد توصلت إلى أنه توجد فروق دالة معنوياً بين الأبناء الغائبي الأب وأقرانهم الحاضري الأب في الدور الجنسي الذكري، إذ إن الفئة الأخيرة أكثر ذكورة، وعدم وجود فروق ذات دلالة معنوية بين الأبناء الغائبي الأب وأقرانهم الحاضري الأب في الدور الأنثوي. وقد فسر الباحث هذه النتائج في ضوء التنشئة الاجتماعية التي تؤكد أن تأثير الأسرة والأبوين أمر لا يمكن إغفاله، حيث إن لكل من الوالدين دوره المهم في عملية التنشئة الاجتماعية، وأن دور كل منهما مكمل للآخر في إعداد الأبناء للحياة.. ولهذا فإن الطفل الذي يتغيب عنه والده يحرم من الإحساس بالدور الذكري، فيتعلم في أثناء وجوده مع أمه أن ينظر إلى



انعدام الأمن النفسي من آثار غياب الأب

العالم من وجهة نظر الأنثى. فغياب الأب يعني غياب النموذج الذي يقلده الابن، فيترتب على ذلك آثار سلبية على الأبناء، وبخاصة الذكور منهم، فقد تبين أن الأطفال الذكور الغائبي الأب اتصف سلوكهم بالشك وعدم الثقة والاضطراب في دورهم الجنسي، ووجد أن بعض أطفال ما قبل المدرسة الذين كانوا من دون أب أدّوا الأعمال بطريقة أنثوية، كما أن البنات اللاتي حرمن من علاقة وثيقة بآبائهن غالباً ما يخفقن في تنمية إحساس واضح بالأنوثة، وتعرض لهن في المراهقة مشكلات مع الذكور لإحساسهن بعدم الأمن فيما يتعلق بدورهن الأنثوي(١٣).

التأثير في دور الأم التربوي

فضلاً عن ذلك فقد أوضح السرسي(١٩٩٠) من خلال دراسته للآثار النفسية لغياب النموذج الأبوي على (٥٢) أسرة كعينة تجريبية، و(٥٢) أسرة كعينة ضابطة، أن غياب النموذج الأبوي عن الأسرة يترتب عليه زيادة مهام دور الأم في التنشئة الاجتماعية للأطفال، مما يؤدي إلى نمو الخصائص الأنثوية للأطفال الغائبي النموذج الأبوي(١٤).

كما يؤثر غياب الأب في الزوجة (الأم) في معظم أسرنا، حيث يعرضها للاضطراب النفسي والعاطفي، إذ إن غياب الزوج (الأب) عن زوجته يجعلها تتشبث بطفلها، وترتبط به بعلاقة تبعية مفرطة، لدرجة تعوقه عن إمكانية تحقيق استقلاليته الشخصية، وتمنعه من الفطام النفسي (السيكولوجي)، حيث ينشأ قليل الحيلة لا يستطيع الاعتماد على نفسه والتصرف في أموره. كما أن شدة تعلقها به يجعلها تستجيب لكل مطالبه، سواء أكانت معقولة أم غير معقولة، فتجنبه تجربة مواجهة المواقف بنفسه، التي يتعلم من خلالها أنه ليس كل ما يتمناه المرء يدركه، وتحرمه من الشعور بالإحباط أحياناً الذي يعد ضرورياً لتعويده مواجهة ما يصادفه في حياته من صعاب وإخفاق دون أن تتأثر صحته النفسية(١٥).

ولهذا لابد من القول بأنه من الصعب جداً تعويض غياب الأب عن الأسرة مهما كان البديل، إذ إن التعويض سيكون جزئياً، ولكن وجود البديل الجزئي خير من الغياب الكامل من دون بديل. ولكن أي بديل سوف يعده الأبناء مجرد دخيل على الأسرة، ويصعب عليهم تقبله بسهولة مكان الأب الحقيقي، وبخاصة في حالة وجود الأب الحقيقي، وغيابه ليس إلا غياباً معنوياً فقط.

والخلاصة: أن الطفل بحاجة إلى كل من الوالدين معاً، إذ يتلقى من الأم الحب والحنان المرافقين بشيء من السلطة، ويتلقى من الأب السلطة والحماية المرافقتين بشيء من الحب، فتسلسل الأدوار ضروري جداً؛ لأن اختلاط الأمور على الطفل يعرضه للاضطراب النفسي، ويعد بمنزلة العامل الرئيس الذي يؤدي إلى تأخر نضجه العقلي، والنفسي، والعاطفي، والاجتماعي، والثقافي بالموازنة مع نضجه الزمني، كما يؤدي إلى اضطرابات تهدد قدرة الطفل على الانتقال من حالة الطفولة إلى المراهقة ثم إلى الرشد.

فالسلطة الأبوية المقرونة بشيء من الحب، تشكل الدعامة التربوية السليمة لنمو الطفل نمواً سليماً معافى في بدنه ونفسه على حد سواء، وهذا يكون من خلال معرفة الوالدين لحاجات الطفل وخصائص نموه؛ لأن جهل الوالدين بهذه الحاجات من الممكن أن يؤثر في بناء شخصيته.

المراجع

١- نصار، كريستين (١٩٩٣م). كيف نتعامل مع أولادنا اليوم. بيروت: دار العلم للملايين.

٢- المصدر السابق.

٣- سلامة، ممدوحة محمد (١٩٨٧م). الأبوة. مجلة علم النفس، العدد (١٤)، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٤- عبدالله، جوزيت جورج (١٩٨٨م). أثر تغيب الأب في مرحلة الطفولة المبكرة على النمو العقلي والنفسي للطفل. رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس.

٥- غريب، رمزية (١٩٨٧م). العلاقات الإنسانية في حياة الصغير ومشكلاته اليومية. القاهرة: الأنجلو المصرية.

٦- فرحات، السيد محمد محمد (١٩٩٧م). غياب الأب وأثره على الدور الجنسي لدى الأبناء. المؤتمر الدولي الرابع لمركز الإرشاد النفسي والمجال التربوي، المجلد(٢)، جامعة عين شمس، ص ص ٨٦٥ - ٩٠٨.

7 - BADAINES, J. (1986). IDENTIFICATION, IMITATION AND SEX - ROLE PREFERENCE IN FATHER - PRESENT AND FATHER ABSENT, BLACK AND CHINICIANS BOYS. JOURNAL OF PSYCHOLOGY, VOL., 92, PP. 15 -42.

- HETHERINGTON, E.W. (1991). THE EFFECTS OF FATHER ABSENCE ON CHILD ON DEVELOPMENT YOUNG CHILDREN. DISS., ABSTRACTS INTERNATIONAL. VOL., 36(7-B), PP. 3640 - 3641.

- HETHERINGTON, E.M. (1998). THE EFFECTS OF FATHER ABSENCE ON CHILD DEVELOPMENT YOUNG CHILDREN, PP. 233 - 248.

8 - TURNOBULL, W. (1982). THE LONG- TERM EFFECTS OF FATHER ABSENCE IN CHILDHOOD ON MALE UNIVERSITY STUDENT SEX - ROLE IDENTITY AND PERSONAL ADJUSTMENT. JOURNAL OF GENETIC PSYCHOLOGY, 141, PP. 271 - 276.

9 - CHARLES T. (1985). EFFECTS OF THE ABSENCE OF A FATHER AND OTHER MALE MODELS THE DEVELOPMENT BOYS SEX - ROLES. DEVELOPMENTAL PSYCHOLOGY, 13.5, SEP. PP. 536 - 538.

10 - JOHN, W. (1987). THE EFFECTS OF FATHER ABSENCE ON SEX - TYPED BEHAVIORS IN MALE CHiLDREN. REASON FOR THE ABSENCE AND AGE OF ONSENT OF THE ABSENCE. JOURNAL OF GENETIC PSYCHOLOGY. MAR, 130, 1, PP.3-10.

11 - HETHEINGTON, E.W. (REF.8).

12 - STEVENSON, M. & BLACK, K. (1992). SEX - ROLE DEVELOPMENT AND FATHER ABSENCE COMPARING META - ANALYSIS. PAPER PRESENTED AT THE ANNUAL MEETING THE MIDWESTERN PSYCHOLOGICAL ASSOCIATION, CHICAGO, MAY, PP. 5-7.

١٣- غياب الأب وأثره على الدور الجنسي لدى الأبناء، مرجع سابق.

١٤- المرجع السابق.

أطول محاكمة في التاريخ

سمير عطا



جاليليو جاليلي أمام المحكمة البابوية، لوحة للفنان روبرت فليري (متحف اللوفر)

في ديسمبر / كانون الأول عام ١٩٩٧م، وفي إطار الحملة الكاثوليكية التي بدأت من عام ١٩٧٩م لإثبات أن العلم لا يتعارض مع الدين، طالب البابا يوحنا بولس الثاني بالعمل على تتبع وجود الله في الكون ببناء واحد من أكبر المراصد الفلكية على سطح الأرض. وقالت صحيفة «صنداي تايمز»: إن الفاتيكان سوف يساهم في تكاليف إنشاء هذا المرصد في ولاية أريزونا الأمريكية، ويضم تلسكوبين عملاقين، تكون من مهامه التقاط صور لسحب الغبار السابحة في الفضاء الكوني، وتحديد الكواكب والنجوم التي قد تساعد ظروفها على وجود شكل من أشكال الحياة فيها أو تطويره.

وقد أعاد ذلك إلى الأذهان ما دعا إليه البابا في بداية حملة الفاتيكان من ضرورة إعادة النظر في قضية العالم الإيطالي جاليليو جاليلي الذي اتهم بالهرطقة والزندقة خطأ من قبل «قطاعات» من الكنيسة عام ١٦٣٣م عندما أعلن تأييده وتأكيده لنظرية كوبرنيكوس من أن الأرض ليست مركز الكون، وأنها هي التي تدور حول الشمس كما تدور حول محورها.. وقال البابا: إن عصر جاليليو كان قد ساده سوء فهم خطير متبادل بين العلم والإيمان.. وبعد عام من دعوة

البابا أعلن الأسقف الفرنسي بول بوبارد نائب رئيس سكرتارية الفاتيكان أن الفاتيكان سوف يقوّم بإيجابية كاملة قضية جاليليو، وأعيدت إجراءات المحاكمة من جديد، وصدر الحكم ببراءة جاليليو الذي توفي منذ ٣٥٠ عاماً.

ثورة رجال الكنيسة على جاليليو

ولد جاليليو جاليلي عام ١٥٦٤م في مدينة بيزا في إيطاليا، وأصبح عالماً كبيراً، درس وأبدع الكثير من الاختراعات، منها: ساعة البندول، وسماعة الأطباء، والترمومتر الحراري، والتلسكوب الذي ساعد على التوصل إلى نظريات وآراء فلكية وجغرافية كانت فتحاً جديداً في العلوم والحضارة الإنسانية، كما مهد الطريق أمام نيوتن بنظرياته عن قوانين الحركة وفكرة الجاذبية. ومن أهم اكتشافاته التي أعلن عنها باستخدام التلسكوب الذي اخترعه وجود أودية وجبال على القمر، ووصف كوكب الزهرة، وأقمار كوكب المشتري (جوبيتر).. وقال: إن الكواكب السيارة أكثر من سبعة، فثار رجال الكنيسة، وقالوا: إن ذلك تجديف في حق الرب، وخروج عن الدين، وساقوا على ذلك مثلاً: أن الأسبوع يحتوي على سبعة أيام، وبكل وجه بشري سبع فتحات.. العينان، وفتحتا الأنف، والأذنان، والفم، ومن ثم فإن هناك في السماء سبعة كواكب فقط هي: القمر، والمريخ، وزحل، والمشتري، وعطارد، والزهرة، والشمس.



جاليليو جاليلي، للفنان جوستو سوستر مانز

وبلغت هرطقة جاليليو وزندقته حدّها - كما قال رجال الكنيسة - عندما أعلن في عام ١٦١٦م تأييده لفكرة كوبرنيكوس التي تذهب إلى أن الشمس هي مركز الكون، وليست الأرض، ومن ثم، فإن الأرض هي التي تدور حول الشمس، وليست الشمس هي التي تدور حول الأرض. وكانت الآراء الشائعة في ذلك الوقت، وتؤمن بها الكنيسة، تعتمد على نظرية بطليموس التي تجعل الأرض ثابتة، وكل شيء يدور حولها. ثار رجال الكنيسة، وقالوا: إن هذا الرجل - جاليليو - سوف يسبب لنا متاعب نحن في غنى عنها.. إنه يقول: إن آراء بطليموس حول الأرض خاطئة.. لكن الكنيسة كانت تقرّ هذه الآراء منذ زمن بعيد، ولا يمكن أن تخطئ الكنيسة، وإذا سمحنا لهذا الرجل بنشر الآراء التي ينادي بها فسيقول الناس: إن الكنيسة كانت مخطئة، وإذا أخطأت في هذا الأمر فقد أخطأت في أمور أخرى.. وإن الكنيسة قد بنت موقفها ليس استناداً إلى آراء بطليموس فقط، وإنما إلى ما جاء من آيات في الكتاب المقدس تشير إلى ذلك منها: «ووقفت



نيكولاس كوبرنيكوس ١٤٧٣ - ١٥٤٣م، أول من نادى بنظرية دوران الكواكب حول الشمس

الشمس في وسط السماء» يوشع ١٠:١٣ و«.. تبقى الأرض إلى الآن، وترتفع الشمس أيضاً.. وتهبط وتسرع إلى مكانها الذي أشرقت منه» سفر الجامعة ١:٤.

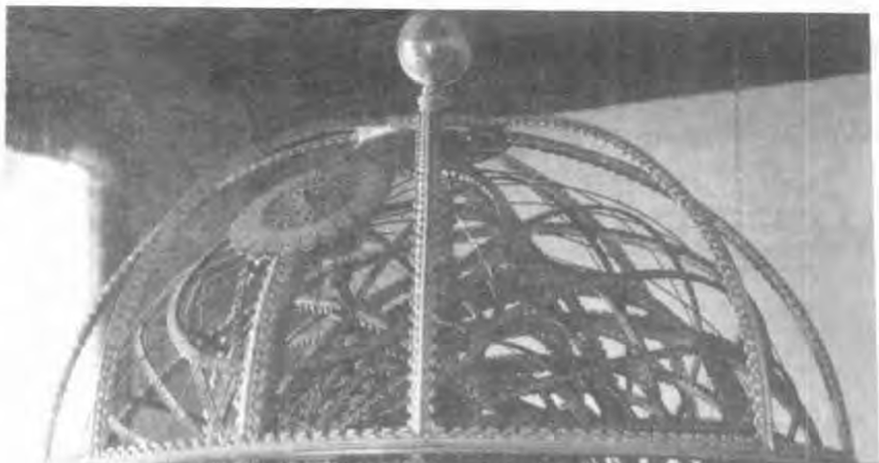
عودة جاليليو إلى الحوار

ولم يمض وقت حتى استدعي جاليليو أمام البابا بولس الخامس، وحاول البابا أن يكون منصفاً؛ لأنه لم يكن ينتمي إلى فئة الأرسطوطاليين الذين يؤيدون آراء بطليموس، فأشار عليه أن يكتفي بالقول بأن «هذه هي آراء كوبرنيكوس».. أي ينسبها إليه فقط على أن يكف عن القول «بأنها صحيحة».. وحين وعده جاليليو أن يفعل ذلك.. طمأنه البابا بألاّ يخشى شيئاً مادام هو على قيد الحياة.. وبرّ جاليليو بوعده، فلم يعد يشير إلى هذه الحقيقة.

وبعد سنوات وصله خطاب من كوزيمو حاكم فلورنسا الذي لم يكن يخفي إعجابه به وبآرائه يستدعيه إليه، فأجاب دعوته، واستقر عدة سنوات في فلورنسا حتى مات كوزيمو عام ١٦٢١م. ولما كان الحاكم الجديد دوق فرديناند الثاني لا يعدو العاشرة من عمره فقد امتد سلطان الكنيسة على فلورنسا، فعاد جاليليو إلى حذره.. لكن حدث أن تولى البابا أربان الثامن عرش البابوية، وكان صديقاً لجاليليو، فظن جاليليو أنه يستطيع في عهده أن يجهر بما كان يحذر منه، فوضع كتابا سمي «التجارب»، وصدره بإهداء إلى أربان الثامن. لكن أربان الثامن، وعلى الرغم من قبوله هذه الهدية، أعلن أنه لا يمكن أن يقبل نظريات كوبرنيكوس التي يروجها جاليليو.. غير أن جاليليو استمر في تدوين ملاحظاته حتى انتهى من وضع كتاب أسماه «عالمين.. آراء حول العالم».. كتبه باللغة الإيطالية حتى يسهل على الناس فهمه، وكانت اللاتينية هي لغة الأدب والثقافة في ذلك الوقت، وضمن كتابه شرحاً وافياً لنظريات بطليموس التي تقول بدوران الشمس حول الأرض، ونظريات كوبرنيكوس المضادة التي تشير إلى حقيقة دوران الأرض حول الشمس.

الكنيسة تجيز آراءه

وعندما انتهى من تأليفه نصحه أصدقاؤه بعدم كتابة نسخ أخرى منه، غير أنه اعتزم إرسال نسخة إلى البابا قائلاً: إنه إذا طلب البابا تغيير بعض أجزاء منه فسيفعل ذلك «لكن لابد من أن يقرأ ما كتبت أولاً» .. وأرسل جاليليو الكتاب إلى مكتب البابا، وقرأه رجال المكتب ثلاث مرات، واقتنعوا بما فيه من ملاحظات، وسمحوا بطبعه على أن يتم ذلك في فلورنسا، وليس في روما، حتى لا يثير أية مشكلات. وفي ربيع عام ١٦٣٢م طبع جاليليو عدة نسخ من كتابه، وبدأ يبيعه للناس.. لكن أعضاء المجلس البابوي - عند إعادة قراءته - لم يرضوا عما جاء فيه، وكرروا ما سبق لرجال الكنيسة قوله: إن الناس إذا صدقوا ما جاء به من آراء تتعارض مع آراء بطليموس التي صدقتها الكنيسة وأشادت بها فمعنى ذلك أن الكنيسة قد أخطأت، وإذا كانت قد أخطأت في أمر فإنها عرضة لأن تخطئ في غيره مما يضع الكنيسة ورجالها موضع شبهة لا تتفق مع مكانتهم الدينية، وساعدهم على الهجوم على جاليليو أنه صور ثلاث شخصيات في كتابه: رجلاً يتحدث عن بطليموس ونظرياته، وآخر يتحدث عن كوبرنيكوس وآرائه، وثالثاً يمثل الكنيسة، وهي تتحدث عن موقفها من آراء



حلقات كروية من صنع جاليليو، تمثل حركة الكواكب حول الشمس

بطليموس، وسمى الشخص الثالث سمبليتشو، واعتقد رجال المجلس البابوي أنه إنما يعنى البابا نفسه، أو هكذا صوروا للبابا.



جاليليو على فراش الموت بداره في فلورنسا يناير / كانون الثاني ١٦٤٢م (لوحة للفنان بارابينو)

ومع ذلك تتحرك

نسي البابا صداقته القديمة لجاليليو، ونسي اقتناعه المبدئي بصحة ما أورده من آراء، وأعلن غضبه وسخطه الشديد على جاليليو وآرائه، ثم استدعى جاليليو من فلورنسا ليمثل أمام المجلس البابوي على الرغم من مرضه الشديد وقد بلغ السبعين من عمره، فسافر إلى روما، ووقف داخل حجرة في دير «ميزفا» بروما يدافع عن كتابه بعد أن بيّنوا له مدى الخطأ الذي ارتكبه في حق الكنيسة بطبع هذا الكتاب..

وحين أشار إلى أن رجال مكتب البابا كانوا قد سمحوا له بذلك رد المجلس البابوي بأنه قد سبق، وقطع عهدا على نفسه منذ عام ١٦١٦م بالابتعاد عن تأييد هذه الآراء، وهو بذلك قد خالف تعهده الذي التزمه أمام البابا، وهددته المحكمة البابوية بالسجن إذا لم يعلن تنصله من هذه الآراء وإعلان خطئه. فاضطر جاليليو إلى أن يعلن على الملأ أن الأرض لا تدور حول الشمس غير أنه ضرب الأرض بقدمه بعد ذلك وصرخ: «ومع ذلك فإنها تتحرك» ETPUR, SIMUOVE، فحكمت المحكمة بإدانته بارتكابه إثما في حق الكنيسة، وحكمت عليه بالسجن مدى الحياة، لكن البابا صديقه القديم خفف الحكم إلى إقامة جبرية في منزله بروما ثم منه إلى منزله في فلورنسا حيث توفي عام ١٦٤٢م.

وعلى الرغم مما أثبته العلم منذ زمن طويل بصحة ما أعلنه كوبرنيكوس، وأيده فيه جاليليو، فقد ظل الحكم ضد جاليليو بالزندقة والهرطقة قائما في محفوظات الفاتيكان حتى رأى البابا يوحنا بولس الثاني رفعه وإلغاءه بعد أن ثبت أن جاليليو كان على حق، فصدرت هذه البراءة، وأعيدت لجاليليو مكانته. وكان لذلك صدى طيب في الأوساط العلمية؛ إذ أعاد للأذهان اكتشافات جاليليو وما ساهم به في حقل العلم، فقررت هيئة الفضاء الأمريكية إطلاق اسم جاليليو على سفينة الفضاء التي أطلقت إلى كوكب المشتري عام ١٩٨٥م. واستغرقت رحلتها عامين استقرت في نهايتهما على سطح هذا الكوكب العملاق البعيد.. والسبب في ذلك أن جاليليو كان أول من اكتشف الأقمار التي تدور حول المشتري متحديا بذلك فكرة الكنيسة عن أن الكواكب هي بعدد أيام الأسبوع، وفتحات الوجه البشري.







ثلاثة من مؤلفات جاليليو

الدراسات الإسلامية والشرق أوسطية في اليابان

استعراض تاريخي

ساتو توجيتاكا

أمرت الحكومة اليابانية خلال الحرب العالمية الثانية عدداً لا بأس به من العلماء اليابانيين، الذين كان بعضهم متخصصاً في دراسة الصين وجنوب شرق آسيا علماء للاجتماع بأن يبحثوا الوضع المعاصر للمسلمين في الأقطار الآسيوية. وكان الغرض - طبعاً - معرفة مدى تكامل الأقطار الآسيوية بحيث تستطيع الحكومة اليابانية استخدام الإحساس بالتضامن الموجود بين مسلمي آسيا.

وقد نشر كثير من المقالات والتقارير المهمة مبنية على البحوث الميدانية التي أجريت في المجلة الشهرية «العالم الإسلامي» (KAIKYOKEN) وذلك في الفترة ما بين تموز/يوليو عام ١٩٣٨م وكانون أول/ديسمبر عام ١٩٤٤م. وتوقفت هذه النشاطات البحثية مع نهاية الحرب في عام ١٩٤٥م.

لقد شعر كثير من العلماء الذين شاركوا في هذه الدراسات بالخجل من تعاونهم مع الغزو الياباني، واحتلال اليابان بعض الأقطار الآسيوية. وقد دفعت هذه التجربة بعد الحرب - بتوجيه بعض العلماء المهتمين - إلى دراسات كلاسيكية عن الحضارة الإسلامية في القرون الوسطى.

وقد بدأت حقبة جديدة من الدراسات الإسلامية والشرق أوسطية في اليابان قام بها ثلاثة علماء رحلوا عن هذه الدنيا وهم ماجيما شنجي، وإيزوتسو توشيهيكو، و شيمادا جوهي.

استفاد البروفسور ماجيما من المصادر الصينية والعربية المتاحة في دراسة التبادل الثقافي في التاريخ بين الشرق والغرب، كما اشتهر أيضاً بترجمته المبدعة لكتاب «ألف ليلة وليلة» إلى اللغة اليابانية.

أما البروفسور إيزوتسو فقد درس القرآن بكل جدية كما ظهر في مؤلفاته مثل التعبيرات الأخلاقية في القرآن (باللغة الإنجليزية، طوكيو، ١٩٦٤م). وترجمته للقرآن إلى اللغة اليابانية لاتزال تُقرأ على نطاق واسع في هذه الأيام؛ وذلك بسبب صحة تلك الترجمة ووضوحها. وعلاوة على ذلك فقد أبدى اهتماماً كبيراً بدراسة تاريخ الصوفية والطاوية من منظور مقارن. أما البروفيسور شيمادا فقد كان هدفه من دراسة المنهج الإسلامي للتاريخ في جامعة لندن إدخال الدراسات الإسلامية الأوروبية إلى اليابان. لقد كتب كثيراً من المقالات عن موضوع التاريخ الاجتماعي والاقتصادي في الفترة الإسلامية المبكرة مستخدماً المصادر العربية الأصلية مثل تاريخ الطبري، وتاريخ اليعقوبي، وفتوح البلدان للبلاذري. لقد عُدّت مقالاته التي جمعت تحت عنوان «دراسات عن الدولة الإسلامية المبكرة» في اللغة اليابانية، طوكيو، عام ١٩٩٦م)، بحثاً مهماً لفترة تزيد على ربع القرن.

وبالاعتماد على هذه الدراسات أخذت الدراسات الإسلامية والشرق أوسطية منذ الستينيات تتنامى باطّراد كماً ونوعاً. وقد يرى المرء منحى البحث في الدراسات التصنيفية (الببليوغرافية)

الإسلامية والشرق أوسطية في اليابان من عام ١٨٦٨ - ١٩٨٧م التي جمعها وصنفها مركز الدراسات الثقافية لشرق آسيا «تويو بونكو» لمصلحة اليونسكو في عام ١٩٩٢م.

ويبدو، كما ذكرت آنفًا، أن هنالك مظهراً مهمًا للدراسة التي برزت في فترة ما بعد الحرب في اليابان، وهو أن البحث الأكاديمي في العصور الكلاسيكية قد سبق الدراسات السياسية والاقتصادية المعاصرة التي بدأت بشكل جدي بعد أزمة النفط في عام ١٩٧٣م.

لنأخذ بعض الأمثلة على الدراسات الأكاديمية في السنوات الأخيرة. بالإضافة إلى الأعمال الآنفة الذكر التي قام بها ثلاثة علماء. بوسعنا الاستشهاد بالأعمال التالية التي تظهر اتجاهًا بحثيًا حديثًا للدراسات الإسلامية والشرق أوسطية في اليابان: الإدارة المالية لمصر في الحقبة الإسلامية المبكرة (باللغة الإنجليزية، كيوتو، ١٩٨١م) تأليف موريموتو كوسي، ودراسات في تاريخ المنغوليين (باللغة اليابانية، طوكيو، ١٩٩١م) من تأليف هوندا مينوبا، وتشكيل العالم الإسلامي والتجارة الدولية (باللغة اليابانية، طوكيو، ١٩٩١م) من تأليف ياجيما هيكويشي، ودراسات في بابار نامـا ((BABAR NAMA (المجلدان ١ - ٢، كيوتو، ١٩٩٤ - ١٩٩٦م) من تحقيق وشرح مانو إيجي، والدولة والمجتمع الريفي في الحقبة الوسطى من التاريخ الإسلامي: السلاطين و ال MUQTA'S والفلاحون (باللغة الإنجليزية، ليدن، ١٩٩٧م) من تأليف ساتو تسوجيتاكا، وملكية الأراضي الخاصة والمجتمع المصري (باللغة اليابانية ، طوكيو، ١٩٩٣م) من تأليف كاتو هيروشي.

تاريخ موجز عن دراسات الإسلامية والشرق أوسطية في اليابان منذ الخمسينيات

في عام ١٩٥٥م أنشئت جمعية دراسات الشرق الأدنى في اليابان NIPPON ORIENTED GAKKAI للارتقاء بدراسة التاريخ القديم للشرق الأوسط. أخذت تلك الجمعية تنشر مجلة دورية سنوية بعنوان «أورنيتو» باللغة اليابانية، ثم أضيف إليها في عام ١٩٦٢م دورية أخرى بعنوان «أورينت» باللغات الأوربية. ومع التقدم في الدراسات الإسلامية أخذت هاتان الدوريتان بنشر المقالات الإسلامية منذ الستينيات، وتابعت تلك الجمعية عقد مؤتمراتها السنوية التي توزعت بين التاريخ القديم والدراسات الإسلامية.

كما أنشئت جمعية للدراسات الإسلامية في اليابان بعنوان MIHON ISURAMU KYOKAI في عام ١٩٦٣م بغرض الارتقاء حصراً بالدراسات الإسلامية، ومدّت نشاطها إلى الإصدارات الإسلامية في إفريقية، وأواسط آسيا، والصين والباكستان وجنوب شرق آسيا. وهي تنشر إصدارين سنويًا بعنوان «عالم الإسلام» ISURAMU SEKAI تحتوي على مقالات مكتوبة باللغة اليابانية، والترجمات اليابانية، وهي مقالات أصلية ومعاصرة من مثل «الأحكام السلطانية» للماوردي، و«التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري» من تأليف الدكتور صالح أحمد العلي. هذا وقد أشرفت الجمعية على نشر «معجم الإسلام» (إيسورامو جيتين، طوكيو، ١٩٨٢م) وهو أول معجم ينشر في اليابان عن الحضارة الإسلامية.

وقد وصل عدد المجلدات التي تباع في اليابان الآن إلى نحو سبعة وعشرين ألف مجلد، وهذا عدد لا بأس به إذا أخذنا في الحسبان الاهتمام الياباني الراهن في الشؤون الإسلامية والشرق أوسطية.

في عام ١٩٦٤م أنشئ معهد لدراسة اللغات والثقافات الآسيوية والإفريقية AJIA AFURIKA GENGO BUNKA KENKYUSHO، في جامعة طوكيو للدراسات الأجنبية في مدينة طوكيو، يقدم المعهد تسهيلات متنوعة للبحوث المشتركة المرتبطة بالجامعات والمعاهد الأخرى.

وقد قام موظفو المعهد بعمل دراسات ميدانية في الخارج بما في ذلك دراسات مسحية للمكتبات في الشرق الأوسط وإفريقية من أجل جمع المواد المصدرية. يقوم هذا المعهد بنشر دورية الدراسات الآسيوية والإفريقية AJIA AFURIKA GENGO BUNKA KENKY التي تحتوي على مقالات باللغتين اليابانية والإنجليزية عن آسيا وإفريقية. ومنذ عام ١٩٧٦م قام أيضًا بنشر سلسلة من الدراسات المتخصصة بعنوان «دراسة الحضارة الإسلامية» STUDIA CULTURAE ISLAMICAE عملت على تشجيع جمع المصادر الأساسية لتعميق مزيد من الدراسة في هذا الميدان.

أنشأ البروفيسور إتاجاكي يوزو (أحد الرؤساء السابقين للجمعية اليابانية لدراسات الشرق الأوسط، وأحد موظفي المعهد) مشروعًا بحثيًا «للأسلحة»، وذلك في عام ١٩٦٧م واستمر عشر سنوات، وشارك في هذا المشروع الذي أدى إلى مناقشات مثمرة حول كثير من الموضوعات ذات العلاقة بالحضارة الإسلامية أكثر من خمسين أستاذًا جامعيًا (بروفيسوراً) وباحثًا يابانيًا.

وكان المشروع الياباني الأول على مستوى كبير في الدراسات الإسلامية بعد الحرب العالمية الثانية، وكان من الطبيعي أن يكون له أثر ذو شأن في الارتقاء بشبكة البحوث.

البحث الأكاديمي في العصور القديمة سبق الدراسات السياسية والاقتصادية اليابانية المعاصرة للشرق الإسلامي

الانفتاح الاقتصادي لليابان من عوامل تنشيط الدراسات عن الشعوب الأخرى



لقد أجبرت أزمة النفط في عام ١٩٧٣م الحكومة والقطاعات الخاصة اليابانية أن تنظر بجدية أكبر إلى الشؤون الإسلامية والشرق أوسطية. وبتمويل من الحكومة أنشئ المعهد الياباني لاقتصاديات الشرق الأوسط CHUTO KEIZAI KENKYUSHO في طوكيو عام ١٩٧٤م. نشر المعهد مجلة سنوية بعنوان «دراسات شرق أوسطية» CHUTO KEIZAI KENKYUSHO باللغة اليابانية بالإضافة إلى تنفيذ معلومات كانت تتجمع في المركز التابع له في الكويت (ومن ثم في القاهرة).

وفي عام ١٩٨٥م أنشأت مجموعة من الشركات الجامعة اليابانية الدولية KOKUSAI DAIGAKU في ولاية نيجاتا يرتبط معها معهد الدراسات الشرق أوسطية CHUTO KENKYUSHO وتقبل هذه الجامعة الدولية التي تلقى بها المحاضرات باللغة الإنجليزية خريجي الجامعات من بلدان آسيوية مثل الصين، والفلبين، وأندونيسيا، وماليزيا، وتايلند، والهند، وباكستان.

في عام ١٩٨٥م أنشئت الجمعية اليابانية للدراسات الشرق أوسطية NIHON CHUTO GAKKAI للارتقاء بالتعاون المعرفي بين الخبراء في ميادين متنوعة، مثل ميادين العلوم والتقانة والعلوم الإنسانية والاجتماعية.

ومع أن عضوية الجمعية لاتزال صغيرة (٦٠٠ عضو تقريباً حسب إحصاءات عام ١٩٩٧م)، فإنها تعقد مؤتمراً سنوياً في ربيع كل عام إلى جانب نشر بحوث ومقالات الجمعية اليابانية للدراسات الشرق أوسطية (AJAMES). ومنذ عام ١٩٩١م بدأت الجمعيات اتصالاتها بأقطار شرق آسيا مثل كوريا والصين وتايوان، من خلال تبادل العلماء في الاجتماعات والمؤتمرات السنوية. ومن ميزات هذه الجمعية تمسكها بمبدأ أحقية أي شخص له اهتماماته في الشؤون الشرق أوسطية في الحصول على عضويتها، وأن يقدم مقالاته وبحوثه بأي لغة يشاء.

في شهر نيسان/أبريل من عام ١٩٨٨م بدأ العمل في مشروع مدته ثلاث سنوات عن التحضر في الإسلام، نظمه البروفيسور إيتاجاكي بتمويل من وزارة التربية والتعليم اليابانية، في الميادين العلمية والرياضية والثقافية. وقد شارك في هذا المشروع ما يزيد على مئة وثلاثين عالمًا يابانيًا في تخصصات متنوعة مثل التاريخ، والجغرافيا، والسياسة، والاقتصاد، وعلم الاجتماع، وعلم الإنسان، والفن المعماري من أجل دراسة «التحضر» بأسلوب مقارن وجعله جوهر الحضارة الإسلامية. وقد عقد مؤتمر التحضير في الإسلام في الجانب المقارن للمشروع في الفترة ما بين ٢٢ـ ٢٨ تشرين الأول/ أكتوبر من عام ١٩٨٨م، وذلك بالتعاون مع مركز الثقافة الشرق أوسطية الذي أنشئ في طوكيو عام ١٩٧٩م. وقد شارك في ذلك المؤتمر نحو ثلاثمئة عالم بما في ذلك سبعون عالمًا من أقطار مختلفة مثل الصين، وأندونيسيا، والهند، والشرق الأوسط، وإفريقية، وأوربا، وروسيا السوفيتية، والولايات المتحدة الأمريكية.

وقد تبع المؤتمر الدولي الأول مؤتمر دولي ثانٍ عن التحضر في الإسلام عقد في العام التالي في الفترة ما بين ٢٧ ـ ٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر في مركز الثقافة الشرق أوسطية في اليابان. ونشرت الأعمال التي قدمت للمؤتمرين في كتب بعنوان «التحضر في الإسلام» (الإصدار الأول في خمسة مجلدات في طوكيو، ١٩٨٩م، والإصدار الثاني في مجلد واحد في طوكيو، ١٩٩٤م).

وتبع مشروعَ التحضر في الإسلام مشروعُ السنوات الخمس لدراسات المنطقة الإسلامية الذي بدأ من شهر نيسان/أبريل عام ١٩٩٧م تحت رعاية وزارة التربية والتعليم اليابانية في ميادين العلوم والرياضة والثقافة. ولا يغطي المشروع الذي يرأسه ساتو تسوجيتاكا العالم الإسلامي مثل الشرق الأوسط، وشمال إفريقية، وجنوب شرق آسيا، فحسب ولكنه يغطي أيضا العالم غير الإسلامي مثل أوربا، والولايات المتحدة، وروسيا، والهند، والصين، واليابان. والغرض من ذلك هو الحصول على فهم كامل للإسلام والمجتمعات الإسلامية في المناطق المذكورة آنفًا في منظور مقارن. وبالتأكيد سوف يُمارس ذلك العمل بالتعاون مع العلماء الأجانب من ذوي الاهتمام بالمشروع.

أجبرت أزمة النفط في عام ١٩٧٣م الحكومة اليابانية والقطاعات الخاصة أن تنظر بجدية إلى الشؤون الإسلامية



الجامعات، والمعاهد، والمكتبات

تعطى دورات أكاديمية للطلاب من ذوي الاهتمام بالإسلام والشرق الأوسط في أقسام اللغة العربية والفارسية والتركية التابعة لجامعة طوكيو للدراسات الأجنبية، وجامعة أوساكا للدراسات الأجنبية.

في عام ١٩٨١م أنشئ قسم للدراسات الإسلامية في كلية الآداب بجامعة طوكيو، وبدأت الدراسة بالدراسات الإسلامية، واللاهوت، والفلسفة إلخ.. بالنسبة إلى تاريخ الشرق الأوسط لاتزال أقسام التاريخ الشرقي في جامعات متنوعة، مثل جامعة طوكيو، وجامعة كيبو، وجامعة هوكايدو تؤدي دوراً مهماً في الدراسات الإسلامية.

تولّى قسم الدراسات لجنوب غرب آسيا تعليم تاريخ الشرق الأوسط وأواسط آسيا. وحديثاً أنشئت أقسام جديدة في جامعتي كيوشو وتوهوكو لدراسة الحضارة الإسلامية وشؤون الشرق الأوسط بشكل خاص.

يعد معهد الثقافة الشرقية TOYO BUNKA KEN KYUSHO الملحق بجامعة طوكيو أحد المراكز الفاعلة للدراسات الإسلامية والشرق أوسطية في اليابان. بالإضافة إلى أقسام البحوث التي تتناول شرق آسيا وجنوبها، وهنالك قسم يُعنى بغرب آسيا حيث يوجد سبعة باحثين يدرسون تاريخ الشرق الأوسط وثقافته.

يؤدي معهد الثقافة الآسيوية AJIA BUNKA KENKYUSHO بجامعة صوفيا دوراً فريداً في تعليم الشرق الأوسط ودراسته،

وفيه ثلاثة أساتذة جميعهم مؤرخون مختصون في تاريخ الشرق الأوسط يمارسون بحوثهم في التاريخ العربي والفارسي، كما أنهم يتعاونون أيضاً مع علماء أجانب يُدعَون سنوياً لمدة قصيرة من الزمن.

أنشئ مركز ثقافة الشرق الأوسط CHUKINTO BUNKA SENTA في عام ١٩٧٩م بتمويل من شركة نفط أيديميتسو.

لقد عُقدت مؤتمرات سنوية لمدة تزيد على عشر سنوات تبحث في موضوعات مثل «ماهو العربي؟»، و«العرب والعجم»، و«الديانات في الشرق الأوسط»، و«الحج إلى مكة». كما قام المركز بعمل حفريات في الفسطاط والطور في مصر، وفي كامان - كاليهويوك في تركيا عدة سنوات تكللت بنجاح كبير. كما عمل ذلك المعهد على جمع بعض الدوريات التي تنشر خارج اليابان، وجعلها في متناول العلماء المهتمين.

في عام ١٩٦٠م، أنشئ معهد تنمية الاقتصاد AJIA KEIZAI KENKYUSHO للارتقاء بالدراسات المعاصرة لاقتصاديات آسيا وإفريقية. بالنسبة إلى الجهود التي بُذلت في دراسات الشرق الأوسط يعمل نحو عشرة باحثين، وعدد من أمناء المكتبات في دراسة الأقطار العربية والتركية والإيرانية. يرسل كل عام باحثان إلى أقطار في الشرق الأوسط للدراسة بالتعاون مع علماء مواطنين.

وسيصبح المعهد جزءاً من منظمة التجارة الخارجية اليابانية ZETRO وذلك في عام ١٩٩٨م. بذل معهد الشرق الأوسط الياباني CHUTO CHOSAKAI الذي أنشئ تحت إشراف وزارة الخارجية اليابانية في عام ١٩٥٥م جهوداً لجمع معلومات عن شؤون الشرق الأوسط المعاصرة. فهو يصدر مجلة شهرية بعنوان «مجلة الدراسات الشرق أوسطية» CHUTO KENKYU التي كانت تسمى سابقًا «أخبار الشرق الأوسط» CHUTO TSUHO.

أدّى معهد الدراسات الشرقية والغربية TOZAI GAKUJUTU KENKYUSHO في جامعة كانساي دوراً فريداً ومهماً في دراسة الثقافة الإسلامية والشرق أوسطية في اليابان. نشر المعهد سلسلة من الترجمات التفسيرية تشمل «أخبار السند والهند» وكتاب ابن شهريار «كتاب عجائب الهند» وكتاب أسامة العطبار - AL I'TBAR»، ورحلة ابن جبير.

إنّ المركز الياباني لدراسات المنطقة JCAS الذي أنشئ عام ١٩٩٤م للارتقاء بدراسات المنطقة في اليابان مُلحق الآن بالمتحف الوطني للأعراق البشرية. إن الغرض الرئيس لهذا المعهد هو تنظيم دراسات المنطقة من خلال توحيد معاهد دراسات المنطقة المنتشرة في الجامعات والدوائر الأكاديمية.

عُقدت مؤتمرات سنوية لمدة تزيد على عشر سنوات تبحث في موضوعات مثل: من هو العربي؟ والديانات في الشرق الأوسط

لقد جُمعت الكتب والمواد المنشورة الأخرى من الجامعات والمعاهد المذكورة آنفًا، إلا أن هذه المقتنيات لاتزال صغيرة وغير كافية لتشكل مادة لدراسة جادة تستخدم المصادر الأساسية. حتى إن مكتبة ديت الوطنية لم تبدأ بجمع المواد العربية والفارسية والتركية إلا في الثمانينيات. وتمتلك مكتبة تويو بانكو (المكتبة الشرقية) التي أخذت تجمع المواد مدة تزيد على ٣٥ عاماً أكبر عدد من الكتب في اليابان عن الشرق الأوسط. يقدر عدد هذه المواد الآن بثمانية عشر ألف مادة باللغة العربية، واثني عشر ألف مادة باللغة التركية وعشرة آلاف مادة باللغة الفارسية.

تمتلك مكتبة تويو بانكو التي أنشأتها شركة ميتسوبيشي عام ١٩٢٤م إدارة بحثية تتكون من اثني عشر قسماً تشمل أقاليم صينية، وكورية، وجنوب شرق آسيوية، وآسيوية وسطى وشرق أوسطية. وتنشر هذه المكتبة مجلة ربع سنوية بعنوان تويو جاكوهو باللغة اليابانية، وتقارير إدارة بحوث مكتبة تويو بانكو باللغات الأوروبية.

قام مركز الدراسات الثقافية الشرق أوسطية الذي يعمل لمصلحة اليونسكو YUNESUKO HIGASHI AJIA BUNKA والملحق بمكتبة تويو بانكو بتنظيم مشاريع بحثية عن الثقافات الآسيوية. عملت تلك المكتبة على تصنيف فهارس (ببليوغرافيا) عن الدراسات الإسلامية والشرق أوسطية في اليابان من ١٨٦٨ - ١٩٨٧م في مجلدين بالتعاون مع اليونسكو في باريس. وقد تُرجم كل عنوان باللغة اليابانية للمقالات التي احتوتها الببليوغرافيا إلى اللغة الإنجليزية. كما يصدر المركز أيضاً نشرة سنوية بعنوان «اتجاهات بحثية آسيوية»، وهي مجلة للعلوم الإنسانية وعلم الاجتماع للتعريف بالدراسات الفريدة والقيّمة في الأقطار الآسيوية بما في ذلك الشرق الأوسط، وتصدر تلك النشرة باللغة الإنجليزية.

بدأت الدراسات الإسلامية والشرق أوسطية في اليابان تنمو في اتجاه الاهتمامات الأكاديمية، ولكن بعد أزمة النفط في عام ١٩٧٣م وسع العلماء اليابانيون اهتماماتهم إلى مزيد من شؤون الشرق الأوسط المعاصرة. وأدى ذلك، كما ذكرت آنفًا، إلى إنشاء الجمعية اليابانية للدراسات الشرق أوسطية في عام ١٩٨٥م.

ولكن لايزال من المهم متابعة مزيد من البحوث الأساسية التي ستساعد في فهم جوهر الثقافة الإسلامية في الشرق الأوسط وفي إفريقية. أعتقد أنه، من دون هذا النوع من الفهم، لن يصبح بوسعنا إدراك الوضع الراهن في العالم الإسلامي سواء أكان ذلك الغزو العراقي للكويت أم النزاع العربي الإسرائيلي أم النزاع البوسني في أوروبا الشرقية.

العواتك

هزاع بن عيد الشمري

قال في لسان العرب ـ عتك : «امرأة عاتكة مُحْمَرَّة من الطيب، وقيل: بها رَدْع طيبٍ، وسميت المرأة عاتكة لصفائها وحمرتها. ونخلةٌ عاتكة: لا تأتبر، أي لا تقبل الإبار، وهي الصَّلُود تحمل الشِّيص. وأحمر عاتك: شديد الحمرة. والعتيك: الأحمر من القدم، وهو نعت.. ولون عاتك: خالص، أيَّ لون كان.. والعاتك: الخالص من كل شيء ولون.. ونبيذ عاتك: إذا صفا».

قلت: وعاتكة اسم مشهور تسمى به نساء العرب وعلى الرغم من جزالته وقوة نبرته وضخامته فقد يصعب على البعض التفريق بين كافه وقاف عاتقة، وهو أيضاً اسم امرأة، ولربما التقى نطقهما عند معنى، وتفرق عند آخر. إلا أن اسم عاتكة أكثر سيادة، وإيقاعه أقوى، ورنته أصفى، وهو اسم محبب، وبخاصة أن الرسول صلى الله عليه وسلم ذكره مشيداً بجداته العواتك من سُليم، فقال يوم حنين: «أنا ابن العواتك من سُليم»، برواية لسان العرب والمؤتلف والمختلف للدار قطني. وبهامش المؤتلف والمختلف ـ قال موفق بن عبدالله: أخرجه الطبراني، كما في مجمع الزوائد دون لفظ: من سليم. وقال: ورجاله رجال الصحيح. ورواه أبو أحمد العسكري في تصحيفات المحدثين، وقال ابن عبدالبر في الاستيعاب: ولا يصح ذكر سليم.

وجداته صلى الله عليه وسلم السلميات ثلاث، هن: «عاتكة بنت هلال بن فالج بن ذكون أم عبد مناف بن قصي جدة هاشم، وعاتكة بنت مرة بن هلال بن فالج بن ذكوان أم هاشم بن عبد مناف، وعاتكة بنت الأوقص بن مرة بن هلال بن فالج بن ذكوان أم وهب بن عبد مناف ابن زُهرة جد رسول الله صلى الله عليه وسلم، أبي أمه آمنة بنت وهب، وبنو سليم تفخر بهذه الولادة، ولبني سليم مفاخر منها أنها ألّفت معه يوم فتح مكة، أي شهده منهم ألفٌ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدّم لواءهم يومئذ على ألوية، وكان أحمر، ومنها أن عمر كتب إلى أهل الكوفة والبصرة ومصر والشام أنِ ابعثوا إليّ من كل بلد أفضله رجلاً، فبعث أهل الكوفة عتبة بن فرقد السلمي، وبعث أهل البصرة مجاشع بن مسعود السلمي، وبعث أهل مصر معن بن يزيد السلمي، وبعث أهل الشام أبا الأعور السلمي. وأضاف ابن منظور في لسان العرب: «وسائر العواتك أمهات النبي صلى الله عليه وسلم من غير بني سليم. قال ابن بري: والعواتك اللاتي ولدنه، صلى الله عليه وسلم، اثنتا عشرة: اثنتان من قريش، وثلاث من سُليم، هن اللواتي أسميناهن، واثنتان من عدوان، وكنانية، وأسدية، وهذلية، وقضاعية، وأزدية».

وفي المحبر، لابن حبيب: أن العواتك اللواتي ولدن رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قريش اثنتان: عاتكة بنت هلال بن أهيب بن ضَبَّة بن الحارث بن فهر، وهي جدته السادسة من قبل أمهات أمه، وعاتكة بنت غالب بن فهر. وهي أم أهيب بن ضبة.

ومن بني كنانة واحدة هي: عاتكة بنت يخلد بن النضر بن كنانة، وهي أم عاتكة بنت غالب بن فهر - ومن سليم ثلاث، وقد مضى ذكرهنّ.

ومن عدوان اثنتان: عاتكة بنت عامر بن الظرب بن عمرو بن عياذ بن يشكر بن الحارث، وهي جدته السادسة من قبل أمهات أبيه عبدالله، وعاتكة بنت عدوان بن عمرو ابن قيس، وهي أم مالك بن النضر.

ومن هذيل: عاتكة بنت سعد بن هذيل وهي أم عبدالله ابن رزام، من هوازن، وهذا هو جد عمرو بن عائذ المخزومي، والد فاطمة الثانية من الفواطم اللاتي ولدنه صلى الله عليه وسلم.

ومن الأزد واحدة، هي: عاتكة بنت الأزد بن الغوث، وهي جدة النضر بن كنانة الثانية من قبل أمه برة بنت مُرّ، ومن قبل أمها مارية.

ومن قضاعة واحدة هي: عاتكة بنت رشدان بن قيس بن جهينة، وهي الجدة الثانية لكعب بن لؤي بن غالب من قبل أمهاته.

ومن بني أسد واحدة هي: عاتكة بنت دُودان بن أسد بن خزيمة، وهي جدة كلاب بن مرة أم أمه هند بنت سريرة الكنانية».

ومن العواتك الأخريات من عقائل العرب وأشرافهم وأعيانهم:

عاتكة بنت عبد المطلب، عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعاتكة بنت خالد بن خليف بن قنفذ بن أصرم، أم معبد رضي الله عنها، وهي خزاعية، وعاتكة بنت سعيد ابن زيد أحد العشرة، وكانت هي تحت المنذر بن الزبير، وعاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل العدوية أخت سعيد بن زيد رضي الله عنه وعنها، وكانت شاعرة نبيلة وصفت بالجمال، قتل عنها عبدالله بن أبي بكر يوم الطائف، فخلف عليها بعده عمر بن الخطاب، فقتل عنها، ثم خلفه عليها الزبير بن العوام، فقتل عنها، ثم خلفه عليها محمد بن أبي بكر، فقتل عنها بمصر، ثم خلفه عليها عمرو بن العاص، وعاتكة بنت عبدالله بن عنكثة بن عامر المخزومية أم مكتوم رضي الله عنها، وعاتكة بنت عوف أخت عبدالرحمن بن عوف، مهاجرة رضي الله عنها، وهي أم المسور بن مخرمة رضي الله عنه، وعاتكة بنت عتبة بن ربيعة رضي الله عنها، وهي أخت هند بنت عتبة رضي الله عنها، وعاتكة بنت أسيد بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس، أخت عتاب بن أسيد رضي الله عنه وعنها، وعاتكة بنت الوليد بن المغيرة أخت خالد بن الوليد رضي الله عنه وعنها، وهي زوجة صفوان بن أمية، وعاتكة بنت خالد وبنت عبدالله وبنت نعيم رضي الله عنهن، وعاتكة بنت أبي سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب الهاشمي، وكان يشبه النبي صلى الله عليه وسلم، وولد في الليلة التي ولد فيها عليه السلام، وعاتكة بنت أبي وهب بن عمرو بن عائذ بن مخزوم، وهي أم كريمة بنت المقداد، وعاتكة بنت عامر مقبل الظعن بن ربيعة بن مالك آل جذل الطعان الكنانية أم هند بنت أبي أمية أم سلمة أم المؤمنين. وآل جذل الطعان أحد بيوت كنانة المشهورة، وعاتكة بنت الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى، وهي أم الشريف عبدالله بن السائب الأسدي القرشي، وعاتكة بنت أمية بن الحارث بن أسد بن عبد العزى بن قصي، شقيقة عمرو بن أمية أحد مهاجري الحبشة رضي الله عنه، وهي أم الأسود بن أبي البختري الذي اصطلح عليه أهل المدينة أيام علي، ومعاوية يصلي بهم، وعاتكة بنت عبدالرحمن ابن الحارث بن هشام المخزومي. إحدى سروات النساء في صدر الإسلام. وأمها سعدى بنت عوف بن خارجة بن سنان بن أبي حارثة المري. وبيتها من الشهرة بمكان.

لا نعرف امرأة من الشهيرات في هذا الزمن باسم عاتكة إلا الشاعرة العراقية عاتكة الخزرجي

ومنهن أيضًا، عاتكة بنت عبدالله بن معاوية بن أبي سفيان، وعاتكة بنت عبدالله بن عمير بن أهيب الجمحية، أم الشاعر عبدالله بن الزِّبَعْرَى الجمحي، وعاتكة بنت أبي أزيهر بن أقيش من آل الغطريف الأزديين، أم عنبسة بن أبي سفيان وبعض أخوته، وعاتكة بنت عمرو بن الحارث ابن صَبّاح الضبي أم علقمة وعمر ابني المطلب بن عبد مناف، وعاتكة بنت الأخيف بن علقمة القرشي، وعاتكة

بنت أبي همهمة بن عبدالعزى بن عامرة القرشي، الجدة الرابعة لفاطمة بنت أسد أم علي بن أبي طالب رضي الله عنه، من أمهاتها، وعاتكة بنت عبد ياليل بن غيرة بن سعد ابن ليث جدة سلمى بنت صخر أم أبي بكر الصديق لأمها أميمة بنت عبيد التيمي، وعاتكة بنت مُرّ بن أُدّ بن طابخة ابن إلياس بن مضر، وعاتكة بنت أنيس الأشجعية أم النابغة الذبياني زياد بن معاوية الشاعر المشهور، وعاتكة بنت عبد العزى بن قصي، وعاتكة بنت يزيد بن الهدهاد الحميري أم مضر وربيعة، وعاتكة زوج الشاعر طريح الثقفي.

ومنهن كذلك، عاتكة بنت عبدالملك بن الحارث بن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة المخزومية أم إدريس ابن عبدالله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب الذي صار أبناؤه في المغرب، وعاتكة بنت خالد بن عبدالله القسري الجواد الأمير المشهور والي العراق والمشرق لهشام بن عبدالملك، وله رواية، وعاتكة بنت الملاة راوية، وهي زوج العباس بن عبيد الله بن الحارث بن نوفل، قتل بالعراق سنة ١٢٧ أيام فتنة عبدالله بن معاوية بن جعفر، وكان العباس في جيش بني أمية.

ومنهن أيضًا، عاتكة بنت قند، أندلسية موصوفة بالجمال الرائع وكرم الأخلاق. قال ابن حزم: «كانت لا مرمى وراءها في جمالها وكريم خلالها، ولا تأتي الدنيا بمثلها في فضائلها». وكان أبوها من موالي عبدالرحمن الناصر، وعاتكة بنت عامر بن شداد بن ركانة، وهي من اللاتي رُغب الزواج منهن، تزوجها ينفع بن عبد من ذي رعين، ثم خلفه عليها طلحة بن محمد بن طلحة، ثم اليسع ابن المغيرة بن عبدالرحمن، ثم أزهر بن عبدالرحمن بن أزهر.

وعاتكة بنت الفرات بن معاوية أو معاوية بن الفرات البكائي العامري تزوجها يزيد بن المهلب، ثم خلفه عليها عمير بن يزيد بن عمير الأسيدي التميمي، ثم خلفه عليها الحسن بن عثمان بن عبدالرحمن بن عوف، فخلفه عليها العباس بن عبيد الله بن عبدالله بن الحارث بن نوفل، وكان يقال له «أعوج» من عظمه. وكانت عاتكة هذه رأت في المنام كأنها كسرت ثلاثة ألوية على صدرها. فانطلقت أمها الملاءة بنت زرارة بن أوفى الحرشي إلى ابن سيرين. فقصت رؤياها عليه. فقال: «إن صدقت رؤياها تزوجت ثلاثة أملاك أشراف كلهم يُقتل عنها». فتزوجها يزيد بن المهلب فقتل، ثم عمير بن يزيد الأسيدي فقتل عنها قتله مالك ابن المنذر بن الجارود - في فتنة - ،ثم خلف عليها الحسن بن عثمان الزهري وكان من أهل المدينة، فجرى بينها وبينه كلام فقالت: «والله لتُقْتَلَن» فقال: «ولِمَ ذاك». فأخبرته الخبر. فقال: «أنت طالق ثلاثًا لا رجعة فيها. أفتريني أقتل؟». فضربت وجهها وصاحت، ثم تزوجها «الموج» فقتل بين الحيرة والكوفة.

ومن أعرق الناس بالخلافة، عاتكة بنت يزيد بن عبدالملك أبوها يزيد، وأخواها الوليد وإبراهيم، وجدها عبدالملك، وجد أبيها مروان بن الحكم، وأعمامها الوليد وسليمان وهشام بنو عبدالملك، وجد أبيها لأمه يزيد بن معاوية وأبوه معاوية بن أبي سفيان، كلهم خلفاء، وعاتكة بنت يزيد بن معاوية اشتهرت بالكرم والحسن الباهر والجمال البارع، ذات دين وعقل حدثت بالشام، وروي عنها الحديث، وكانت تابعية، وكانت سيدة بني أمية، وكانت محرمًا لاثني عشر خليفة، وهي أعرق الناس بالخلافة، ولم يتم ذلك لغيرها.

هكذا كان اسم عاتكة ذا شأن وحبوة عند العرب، وفي بيوتها، فضلاً عن عامتها في الجاهلية والإسلام، وكان بالكثرة، ولكنه بدأ يقل بينهم، ويتقلص خصوصًا منذ منتصف القرن الثاني الهجري. أما اليوم، فإن الكثرة من الناس لا تعرفه. بل نحن لا نعلم امرأة من الشهيرات في هذا الزمن باسم عاتكة عدا الشاعرة العراقية المعلومة: عاتكة بنت وهبي الخزرجي. فهل من عودة إليه.

قال العرجي:

يادار عاتكة التي بالأزهر
أو فوقه بقفا الكثيب الأحمر
لم ألق أهلك بعد عام لقيتهم
يا ليت أن لقاءهم لم يقدر

وقال الأحوص أو سليمان بن أبي دباكل:

يا بيت عاتكة الذي أتعزّلُ
حَذَرَ العدى وبه الفؤاد موكل
أصبحتُ أمنحك الصدودَ وإنني
قسمًا إليك مع الصدود لأميل
ولقد نزلتِ من الفؤاد بمنزل
ما كان غيرك والأمانة ينزل

بسم الله الرحمن الرحيم

جائزة مكتبة الشيخ علي بن عبدالله آل ثاني العالمية
لعامي ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م - ١٤٢١هـ/٢٠٠١م

ينظم مركز البحوث والدراسات في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في قطر جائزة مكتبة الشيخ علي بن عبدالله آل ثاني العالمية - وقيمتها خمسة وسبعون ألف ريال قطري - لعامي ١٤٢٠ - ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠-٢٠٠١م، وموضوع السنة الأولى (١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م): «الأسرة المسلمة في العالم المعاصر». على أن يتناول الموضوع الأطر العامة التالية، وهي: الأسس الشرعية لبناء الأسرة، والأسرة في مرحلة القدوة [العهد النبوي والخلافة الراشدة]، ودور الأسرة في التربية والنهوض الحضاري، والتحديات التي تواجه الأسرة وسبيل التحصين، ورسالة الأسرة المسلمة اليوم.

وموضوع الجائزة في العام ١٤٢١هـ/٢٠٠١م؛ «إشكالية التعليم في العالم الإسلامي»، على أن يكون في الأطر العامة التالية: التعليم: المحور الأساسي للتنمية والنهوض الحضاري، وأبعاد الإشكالية: (البعد السياسي، والبعد الإعلامي والثقافي، والبعد الاجتماعي، والبعد المنهجي)، وعجز التعليم بمؤسساته المختلفة عن تحقيق أهدافه، ودور مؤسسات البحث العلمي ومراكز الدراسات في البناء التعليمي، ووسائل التصويب، وكيفية النهوض.

شروط الجائزة :

١- يشترط في البحوث المقدمة، أن تكون قد أعدت خصوصاً للجائزة، وألا تكون جزءاً من عمل منشور، أو إنتاج علمي حصل به صاحبه على درجة علمية جامعية، وأن تتوافر في هذه البحوث خصائص البحث العلمي، من حيث المنهج والإحاطة والتوثيق، وسلامة الأسلوب والجدة والابتكار.

٢- يقدم البحث باللغة العربية، من ثلاث نسخ، مكتوباً على الآلة الكاتبة، ويفضل أن يكون مكتوباً على الحاسوب، على ألا تقل عدد صفحاته عن مئتين وخمسين صفحة (A4× ٢٢ سطراً × ١٢ كلمة).

٣- يحق للجهة المشرفة سحب قيمة الجائزة، إذا اكتشفت أن البحث الفائز قد نشر سابقًا، أو قدم إلى جهة أخرى، أو لغرض آخر، أو مستل من رسالة علمية. كما يحق لها حجب الجائزة في حالة عدم ارتقاء البحوث المقدمة للمستوى المطلوب.

٤- يحق للجنة التحكيم التوصية بمنح الجائزة مشتركة بين اثنين أو أكثر من الباحثين، كما يجوز اشتراك باحثين أو أكثر في كتابة بحوث الجائزة.

٥ - لا تمنح الجائزة لمشارك واحد أكثر من مرة خلال فترة ثلاث سنوات.

٦- يرفق مع البحث ترجمة ذاتية لصاحبه وثبتًا بإنتاجه العلمي المطبوع وغير المطبوع، بالإضافة إلى صورة جواز السفر وصورة شخصية حديثة.

٧- آخر موعد لاستلام بحث «الأسرة المسلمة في العالم المعاصر»، شهر أبريل/نيسان عام ٢٠٠٠م، بينما آخر موعد لاستلام بحث «إشكالية التعليم في العالم الإسلامي» شهر فبراير/شباط عام ٢٠٠١م.

٨ - تعرض البحوث على لجنة من المحكمين، يتم اختيارهم في ضوء موضوع الجائزة.

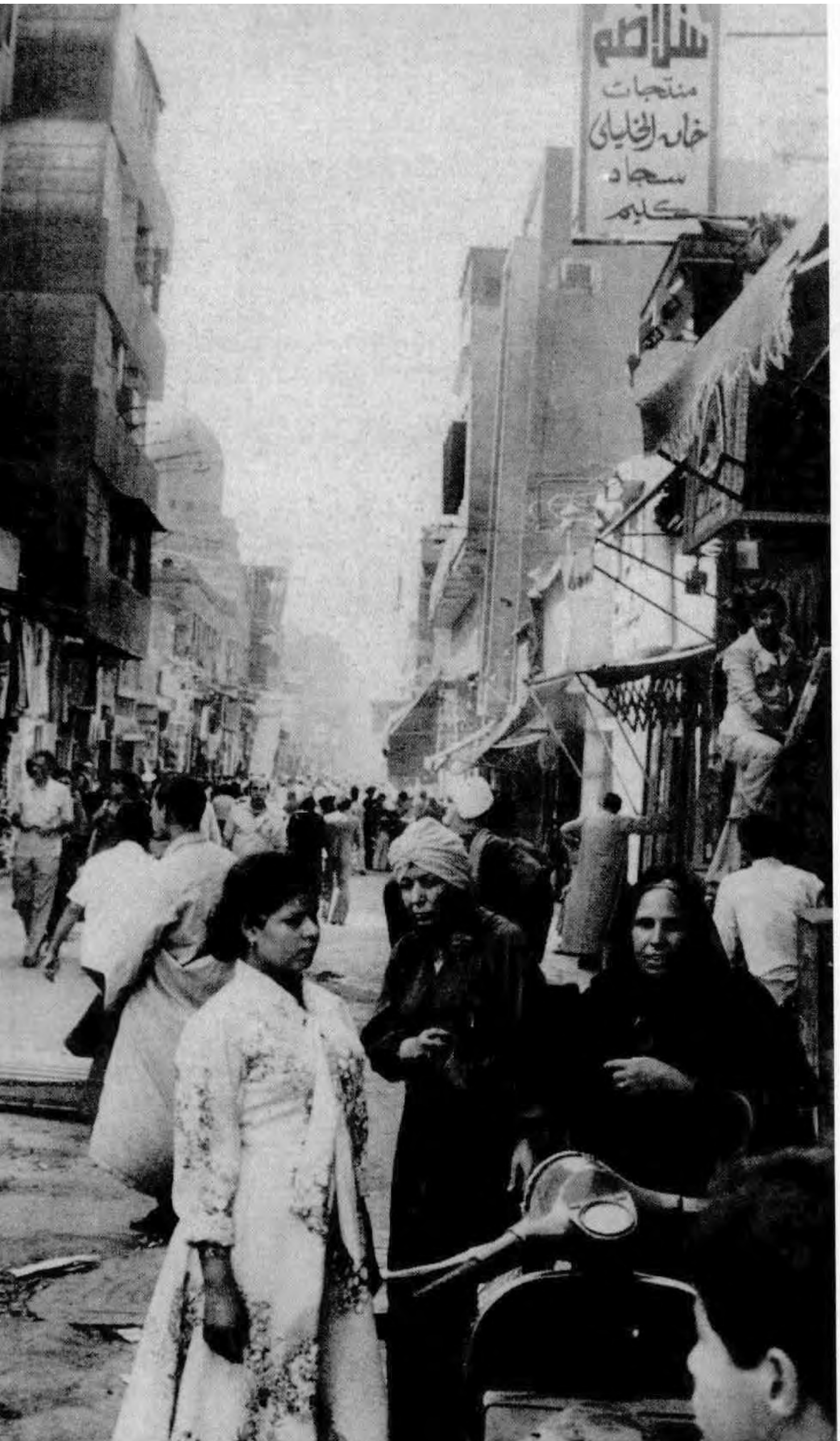
ترسل البحوث بالبريد المسجل على العنوان التالي:

ص.ب: ٨٩٣ - الدوحة - قطر.
أو البريد الإلكتروني M - DIRASAT@ ISLAM. GOV. QA
لمزيد من الاستفسار، يرجى الاتصال على:
هاتف: ٣٢٤٥٨٤ - ٣٢٤٥٨٦ - ٤٤٧٣٠٠ - فاكس: ٤٤٧٠٢٢ - (٠٠٩٧٤).

استطلاع

خان الخليلي

تذكارات قاهرة المعز في أشهر أسواقها



خالد محمد غازي

عندما زار الرحالة الإسباني بيروتافو مصر خلال القرن الخامس عشر الميلادي سجل انبهاره بالحيوية والرواج اللذين تتمتع بهما أسواق القاهرة، فقال: إن أحسن وأبهى وأروع شيء يراه المرء في القاهرة سوقها الذي تُعرَض فيه أكداس هائلة من شتى البضائع الواردة من الهند. وفي الوقت الحاضر ما زالت القاهرة مدينة للأسواق، ولا يستطيع أي زائر لها أن يتجول في شوارعها أو أحيائها القديمة دون أن يلتقي سوقًا من الأسواق التي حملت عبق الماضي وروائحه المثقلة بالحنين، واستعادت أزمنة المماليك والفاطميين والعثمانيين.



نجيب محفوظ يتذكر أيام زمان

مقابر الفاطميين الموحشة تتحول إلى قلب قاهرة المعز النابض

ومن أشهر الأسواق التي يحرص زائر القاهرة على ارتيادها سوق «خان الخليلي» بما يحمله من مكانة تاريخية، إذ يعود إنشاؤه إلى العهد الفاطمي، وكان التجار يتوافدون عليه من شتى بقاع الأرض. عمره يتجاوز مئتي عام، مبانيه متلاحمة ومتداخلة بشكل يصعب الفصل بينها، فهي قديمة قدم التاريخ. في طرقاته الضيقة، وبين جنباته تشم رائحة الماضي العتيق، جو من السحر الممزوج بسحابات البخور، هنا كنوز مصر الحقيقية، وعزها القديم. منتجات ذات شهرة عالمية، ومشغولات فريدة تبهر السائحين، فهنا الأسواق (البازارات) التي يقبل عليها الجميع من الغرب والشرق للتمتع برؤية ما تصنعه الأيدي المصرية من فن يفوق الخيال، هذا هو حي خان الخليلي أشهر شوارع قاهرة المعز.. ولكن ما حكاية هذا الحي العتيق؟

يعد «الخان» من أشهر الأسواق التجارية في القاهرة، ويقع في مواجهة «المشهد الحسيني» في قلب القاهرة القديمة، وتباع فيه مختلف أنواع الهدايا التذكارية كالحليّ المصنوعة من الذهب والفضة والمطعمة بالعقيق، وأشغال الصدف، والمصنوعات الجلدية والنحاسية، والمشغولات اليدوية ذات النقوش والرسومات الفرعونية والإسلامية والآيات القرآنية، والمخطوطات (ورق البردي)، والمسابح وغيرها من أعمال الأرابيسك التي يحرص السياح والزائرون على اقتنائها، والعودة بها إلى بلادهم كتذكار دائم من قاهرة المعز، ومجمع أسواق الشرق.

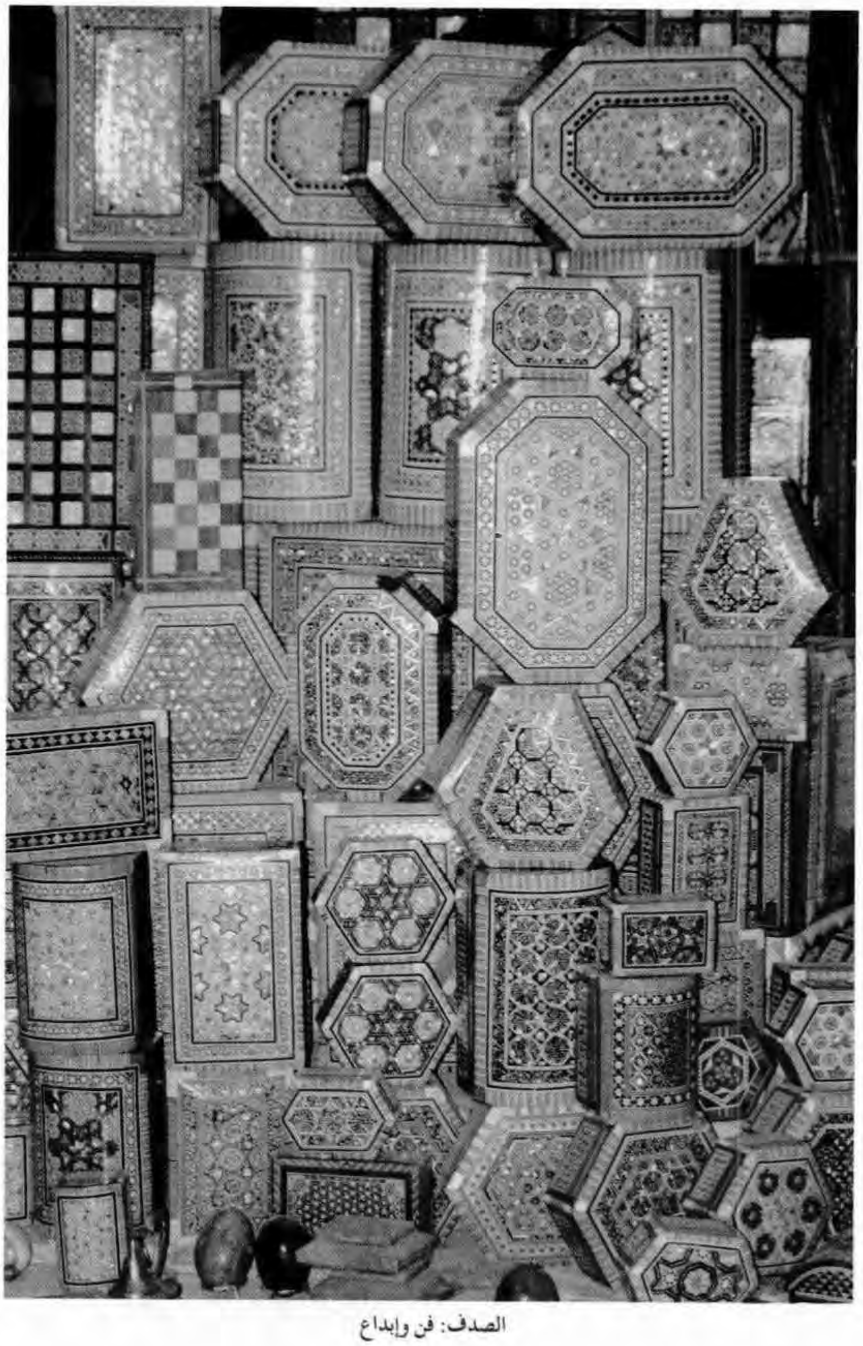
يقول الأديب نجيب محفوظ: علاقتي بمنطقة القاهرة القديمة علاقة قلبية.. روحية.. أنا مولود في هذه المنطقة.. واتصلت خيوط صباي بهذه الأماكن.. بسيدنا الحسين وبالجمالية وزقاق المدق، وخان الخليلي، وقهوة الفيشاوي.. وكنت، بعد أن تركت المنطقة إلى العباسية، أعود.. وأعود مراراً يشدني قلبي إلى كل المناطق التي طالما أحببتها.

تربة الزعفران

ويرجع تاريخ «الخان» إلى القرن الثامن الهجري حيث أراد الأمير جاهركس الخليلي في عصر السلطان برقوق أن يبني خاناً ليحل مكان «تربة القصر» التي شيدها المعز لدين الله الفاطمي لتضم رفات الخلفاء من قبله وبعده، وقد عرفت بـ «تربة الزعفران»، وعمل الأمير جاهركس على إخلاء المنطقة من القبور ونقلها إلى منطقة



الآلات الموسيقية الشرقية لها مكانتها في السوق



الصدف: فن وإبداع

الدراسة بعد أن أفتى له الفقهاء بجواز ذلك.

وفي موسوعة «مدينة القاهرة في ألف عام» يلقي د. عبدالرحمن زكي الضوء على تاريخ «خان الخليلي» بقوله: الخان اسم أطلق على مجموعة من الأبنية القديمة والجديدة يملكها أفراد كثيرون، وقد نشأت وامتدت في أزمنة متعاقبة، وكونت طرقات وأزقة فيها تجار العاديات، والمصنوعات العربية الدقيقة.

ويضيف د. زكي: وعلى الرغم من أنه غلبت على هذا الحي نسبته إلى جاهركس الخليلي، فالواقع أنه لم تبق هناك أبنية تمت بصلة إليه، فقد أعاد السلطان الغوري بناءه في أوائل القرن السادس عشر، ولم يكتف الغوري بإعادة بناء هذا الخان، بل أنشأ تجاهه وبجواره من الجهة الغربية ربعين وبوابتين عظيمتين حافلتين بالزخارف والرخام، ولايزال باقيًا على إحداهما اسم الغوري وألقابه، وقد أمر الغوري بمنع تجارة الرقيق في الخان، ونقلها إلى سوق آخر، وقد تعرض هذا الخان للحريق أكثر من مرة، فاحترق في عهد السلطان الغوري الذي أعاد بناءه متضمنًا أسواقًا ورباعًا تغلق عليها أبواب، ثم احترق في العهد العثماني، وأعيد تجديده، كما أضيفت إليه عدة حارات وشوارع جعلت مساحته أكبر بكثير من بداية إنشائه.

يقول الخبير الأثري د. عبدالحليم نور الدين: إن القاهرة التاريخية هي إحدى هذه البلدان التي تميزت بتنوع الحقبات التاريخية التي مرت عليها منذ الفتح الإسلامي حتى عصر محمد علي، وقد تركت كل حقبة بصمة واضحة تميز كل فترة بفنها المعماري والعمراني، مما يوجب علينا بوصفنا دولة عريقة في الحضارة أن نحافظ على الطابع التاريخي لهذه المناطق، ومنها: خان الخليلي، وهو ما يستلزم وضع تقنين للحفاظ على المناطق المحيطة بالأثر.

ويضيف د. نور الدين: ولاشك أن المجلس الأعلى للآثار يسعى للحفاظ على منطقة خان الخليلي، ويمضي نحو حل هذه المشكلات، مثل الإشغالات التجارية والسكنية، والتلوث، والمياه الجوفية، والصرف الصحي، وقد تم تشكيل لجنة برئاسة محافظ القاهرة، لحل مشكلات هذه الآثار، والتي شاء حظها أن تقع داخل مناطق مكتظة بالسكان، وذلك لحماية هذه الآثار من الكوارث، وحتى لا يتكرر ما حدث في زلزال أكتوبر /تشرين الأول ١٩٩٢م، وتصدع العديد منها.

سكان الخان

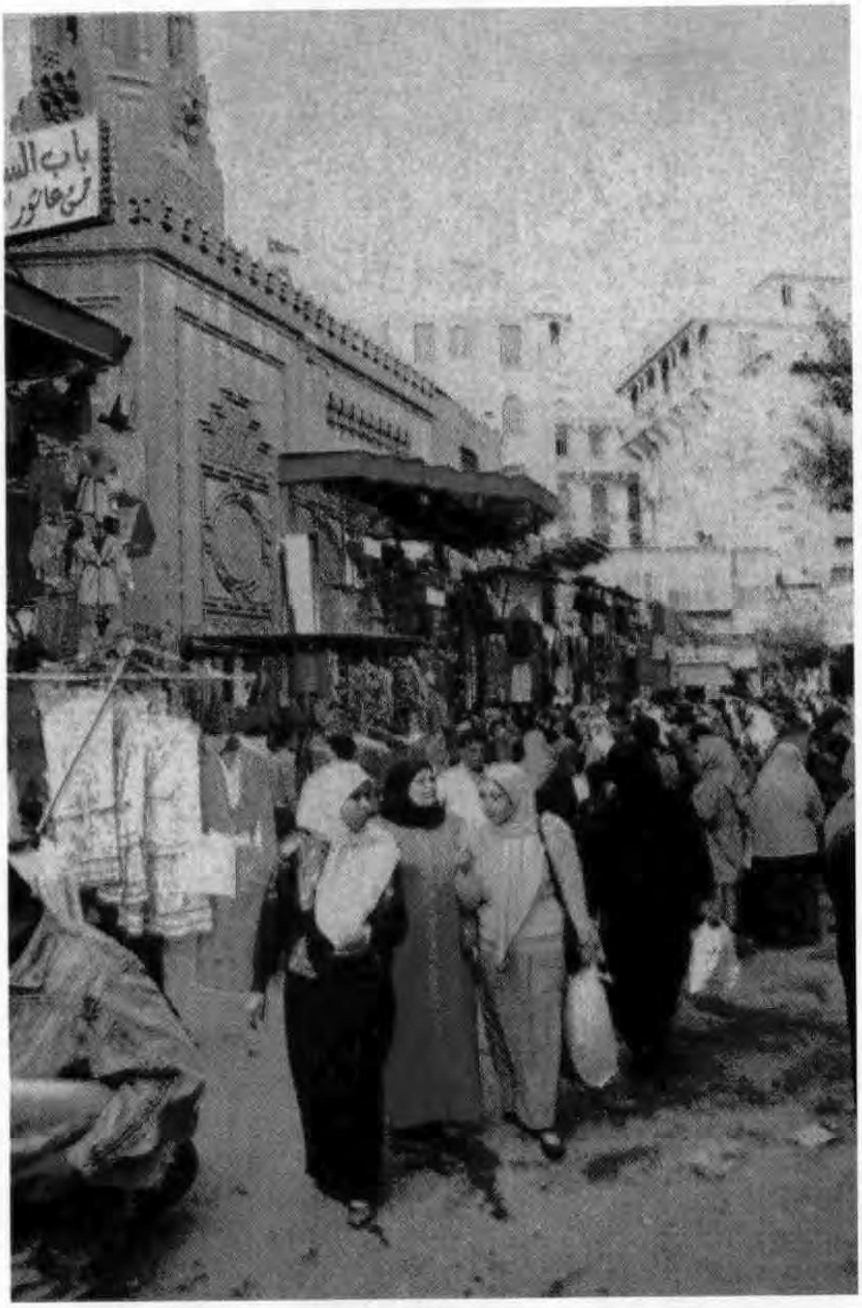
وقد سكن الخان بعد إنشائه عدد من التجار الأتراك، والطباخين، وصانعي

الحلوى، وتحققت لخان الخليلي شهرة واسعة، وارتاده الرحالة على مر العصور، وكان كثير من رجال العلم والأدب والسياسة يرتادون الخان، ويذكر التاريخ أن الزعيم سعد زغلول كان من نزلاء الخان في أثناء طلبه للعلم بالأزهر، وكان يعدّه من أحب الأماكن إليه، وكان طلعت حرب الاقتصادي المصري المعروف يتردد على مقهى مجاور للخان، والروائي الكبير نجيب محفوظ توثقت علاقته بـ (مصر القديمة) حيث ولد وعاش صباه وشبابه بين الأزقة والحارات والأسواق المعبقة برائحة الماضي، وكتب محفوظ العديد من أعماله التي عنونها بأسماء الأماكن الشهيرة في مصر القديمة، مثل: «زقاق المدق»، و«السكرية»، و«قصر الشوق»، و«بين القصرين»، و«خان الخليلي». كان الكاتب الكبير عادة يجلس في أحد المقاهي المجاورة لخان الخليلي يتصفح الجرائد، أو يدخن النرجيلة.

مقاه شهيرة

مازالت مقاهي خان الخليلي تشهد أفواجًا من البشر المتوافدين عليها من كل صوب، وتظل المقاهي عادة ساهرة حتى الصباح، وتنشط حركة الخان ليلاً ونهارًا.. وتتميز حوانيت الخان بعدم تخصصها في بضاعة واحدة، فهذا محل لبيع المشغولات الذهبية، وآخر لبيع منتجات الأرابيسك، وهكذا يستطيع الزائر أن يتفحص المعروضات بدقة حتى يقتني ما يريد.

ومن أبرز الفنون التي حفظت للخان شهرته وتميزه من الأسواق الأخرى صناعة النحاسيات والفضيات والأرابيسك والسجاد والتحف التي برع فيها صناع مهرة.. ومن تلك الصناعات الأطباق والصواني و(الفازات)، وأطقم القهوة النحاسية والخزفية، والمنتجات الصدفية، مثل: صناديق حفظ الحلي



الزحام سمة السوق

(الشكمجية)، وترابيزات الصدف، والكراسي، وحجرات الصالون (غرفة الضيوف).

أما صناعة الملابس فهي جلاليب فرعونية تمثل تاريخ مصر، وقمصان (تي شيرتات) تحمل رسومات للمعابد الفرعونية، ويباع أيضًا البرقع المصري القديم، وبدلة الرقص، والملابس النسائية.. ويتدافع السائحون الأوروبيون بصورة كبيرة إلى سوق خان الخليلي، وتزداد حركة البيع والشراء في شهر رمضان المعظم نتيجة لتوافد الآلاف على المشهد الحسيني، والتجوال في الأسواق المجاورة له، وارتياد المقاهي التي تتخلل السوق.

الإبداع اليدوي

نقوش زخرفية، لوحات طبيعية تنطلق بالحياة وبهجة الألوان..

خالد محمد غازي

مشغولات تسحر الألباب.. صنعتها أصابع رجال حفر الزمن خطوطاً فوق ملامحهم، ولكنهم مازالوا يؤدون عملهم بتركيز وإتقان، فالعمل لديهم له قداسته واحترامه الخاص، هم يعدّونه فناً في المقام الأول قبل أن يكون عملاً يرتزقون منه.

زمن طويل من السن المعدني الدقيق و(الشاكوش) الصغير، رحلة من الصمت والصبر الشديد لتخرج من بين الأنامل المشغولات النحاسية والفضية ذات النقوش والزخارف التي تسحر العقول نتيجة دقتها، وروعة جمالها، وتفردها في جميع أنحاء العالم. وإذا كان الخان يضم بين جنباته (البازارات) التجارية الكبيرة التي تعدّ مزاراً سياحياً يحرص على زياته كل سائح لشراء ما يحتاج إليه من منتجات و(أنتيكات)، فإن الخان أيضاً يضم بين جنباته (الورش) الصغيرة الخاصة بصناعة المشغولات الذهبية والفضية المطعمة بالأحجار الكريمة التي يتم نقشها على الطراز العربي أو الإسلامي والفرعوني أيضاً، كذلك المصنوعات الجلدية التي تقوم بها أيد عاملة نادرة، وتصميم الحليّ والإكسسوارات التي لا تمارس إلا داخل الخان الذي يحافظ على طابعه الخاص والمميز على مر العصور.

ويعدّ الدور العلوي من الحي هو منطقة (الورش) التي يحرص بعض السائحين على زيارتها لمشاهدة الصناع وهم يقومون بتصنيع المصنوعات داخل الورشة، قبل أن تخرج في شكلها النهائي، ولا سيما الأشكال النادرة منها، ويلاحظ أن هناك ارتباطاً قوياً بين الورش والمحال التي تقوم ببيع تلك المعروضات، ذلك أن بعض الزبائن قد يطلب تعديلات معينة في بعض المشغولات، ويجب أن يتم ذلك على وجه السرعة، ولذلك يجب ألاّ تكون الورشة بعيدة عن المحل المخصص للعرض، كذلك يلاحظ أن هناك تكاملاً حرفياً وتخصصاً، فكل ورشة من الورش مختصة بصناعة معينة، وتشكل فيما بينها تكاملاً فريداً لما تنتجه من مشغولات فريدة ومتميزة، وداخل كل ورشة يعرف كل صانع عمله جيداً، فهذا عليه أن يقوم بتجميع النحاس الخام، والآخر يقوم بصنفرته، وثالث عليه أن يحفر فوقه النقوش والرسوم الدقيقة، ورابع يتولى مهمة تطعيمه بالفضة، أو الصدف، أو الأحجار الكريمة، وهكذا..

أما المراحل التي تمر بها صناعة المشغولات النحاسية، يقول الحاج عبدالسلام علي (صاحب ورشة بالخان) عنها: إننا نأتي بالرمال من منطقة في



النحاسيات الفخمة للسائح العربي، والبرديات والمشغولات الفضية للأجانب



السبح لها سوق رائج

جبل المقطم، ومنها الرمال الصفراء، وأخرى بيضاء يطلق عليها «عرق الرمل»، وفي بعض الأحيان يتم خلط النوعين معا، لكي يتم إعداد الخام وصهره، ليتم بعد ذلك صبه في القالب (الفورما) ويوضع في فرن مبنيّ بالطوب والطين الحراري، وهو على شكل أسطواني، ويتم رفع النار إليها بواسطة مواسير خاصة بأسلوب «القوة الطاردة المركزية» حتى تتم عملية الانصهار والسبك.

ويتحدث أحد الشباب العاملين في الورشة، ويدعى محمد أمين، عن المراحل التالية في صناعة المشغولات النحاسية، فيقول: بعد الانصهار والسبك

حتى يأخذ الخام الشكل المطلوب يتم تبريد التمثال أو الشكل المنتج، ثم تليها مرحلة السنفرة الخشنة، ثم الناعمة حتى يصبح المنتج ناعم الملمس فيصل إلى مرحلة التلميع، ثم تليها مرحلة التلوين، وهي تتم إما بأسلوب الأكسدة، أو عن طريق الأحواض الكهربائية، وعادة تراوح الألوان بين الأبيض والأسود، والأصفر والأحمر، أو حسب الطلب.

كما أن المنتج اليدوي له خصوصياته الفنية، فهو أيضاً له أدواته المميزة، مثل الريزق والكبشة، وهي مصنوعة من الحديد الصلب، ويتم فيها صهر خام النحاس بكل أنواعه، ونقله إلى قالب الصب، كذلك توجد البوتقة، وهي القالب الذي يتم فيه صب الخام

السلطان الغوري أعاد بناء السوق بعد احتراقه

المنصهر، وتستخدم أيضاً أدوات (الدرج والتازجة)، وهي مسطرة حديد ومعلقة وماسورة وما يسمى بـ «سباتوليا ورملية» ويقوم بصناعة الفورمات (الفورمجي) أو المثال، وهو نحات على مستوى عال ومرتفع من الدقة والكفاءة في صناعته.

يجمع العاملون في الصناعات النحاسية على أن أكثر المشغولات رواجاً هي المشغولات ذات الطابع الفرعوني، مثل رأس نفرتيتي، ورأس توت عنخ آمون التي يقبل عليها السائح الأجنبي، أما السائح العربي فيفضل دائماً اللوحات النحاسية التي تحمل نقوشاً إسلامية، وآيات قرآنية، إلى جانب الشمعدانات النحاسية.

وفي داخل إحدى ورش الجلود جلس الحاج محمود الأربي الذي ورثها عن والده، ويوضح أن المنتجات الجلدية المصرية تستهوي السائح العربي والأجنبي؛ لأنها مصنوعة من الجلود الطبيعية، وعلى مستوى عالٍ من الجودة، ويقول: إن أهم المنتجات الجلدية التي يقبل عليها السائح هي الحقائب والأحذية.

وإذا كانت المشغولات الذهبية والفضية والنحاسية يحرص السائحون على اقتنائها لقيمتها، سواء على المستوى الفني أو المادي أيضاً، فإن ورشة «تصنيع الجمال» من الجلد والمشمع تعد مزاراً سياحياً خاصاً يحرص الأجانب على زيارته، وشراء هداياهم التقليدية منه لأصدقائهم بعد العودة إلى بلادهم كنوع من التذكار من قاهرة المعز، وحي خان الخليلي العتيق، والسائح الأجنبي يفضل المصنوعات الجلدية ذات النقوش الطبيعية البسيطة، بينما يفضل السائح العربي الجلود الطبيعية المزخرفة بالألوان والنقوش الذهبية.

مهن متوارثة

ويفسر د. فهمي عبدالعليم خبير الآثار الإسلامية بالقاهرة ظاهرة العمل اليدوي في الخان بقوله: طبيعة الأعمال والصناعات التي يحتويها الخان تحتم العمل اليدوي، وذلك لسببين:

الأول: أن زبون خان الخليلي يفضل الأشياء اليدوية، والحفر على النحاس، أو الحفر على الأخشاب.

الثاني: أن كل حرفي هنا ورث تقريباً هذه المهنة عن آبائه وأجداده، ومن ثم فهو لن يفرط في عراقتها استكمالاً لمسيرة آبائه، وللحفاظ على رونق شارع خان الخليلي وصناعاته.

ومن المعروف أن معظم المحال داخل الخان متوارثة جيلاً عن جيل، ولا يمكن لأي تاجر أن يفصح عن قيمة الإيجار، كأنه سر اتفقوا عليه، وأما العائلات التي تقدم على بيع محالها فهي محدودة جداً؛ لأن موضع قدم داخل هذه الشوارع الضيقة الرائعة التصميم والإضاءة، تساوي مئات الألوف.

وإذا كان الإبداع اليدوي، والحرف اليدوية مازالا سيدي الموقف فيما يتعلق بالمصنوعات الذهبية والفضيات والمشغولات النحاسية، لما تتميز به من دقة ومتانة وروعة في الجمال الذي يزداد كلما مر عليها الوقت، إلا أن المصنوعات التي تظهر على طريقة «الزنكوغراف» تتمتع هي الأخرى بإقبال كبير من بعض الفئات، لأنها تمثل نوعاً من التطور، وهي في الوقت نفسه لا تقل كثيراً في روعة جمالها عن المصنوعات اليدوية الأصلية، وكانت تطوراً طبيعياً نتيجة ندرة الأيدي العاملة الدقيقة والقادرة على الإبداع اليدوي، بسبب هجرة العمالة والصناع المهرة الذين تقوم عليهم تلك الصناعة، ففي الوقت الذي يمكن عمل قطعة واحدة في يوم واحد من الإنتاج اليدوي، يمكن للزنكوغراف أن يقوم بطبع مئات النسخ ونسخها من القطعة نفسها، ولكن مازال اليدوي هو الأكثر إبهاراً وجذباً للسياح.

وقد تعرض تجار الخان للعديد من الأزمات والكوارث خلال هذا القرن، فإلى جانب الكساد الذي لحق بهم في بعض الفترات، بدءاً من الحربين العالميتين الأولى والثانية، وما سببتا من أضرار اقتصادية بالغة على مستوى العالم، فقد تخلى الناس في ذلك الوقت عن شراء مقتنيات الخان؛ لأنها شكلت ترفاً زائداً، وكذلك الكساد الذي أعقب حرب الخليج في بداية التسعينيات، والحرائق التي التهمت نيرانها الأسقف الخشبية المزخرفة بالأرابيسك، وكان آخرها عام ١٩٨٦م، عندما اشتعلت النيران بإحدى (الورش).

العقيق اليماني.. فصوص السلا والبهجة



خواتم بفصوص العقيق اليماني

علي المقري

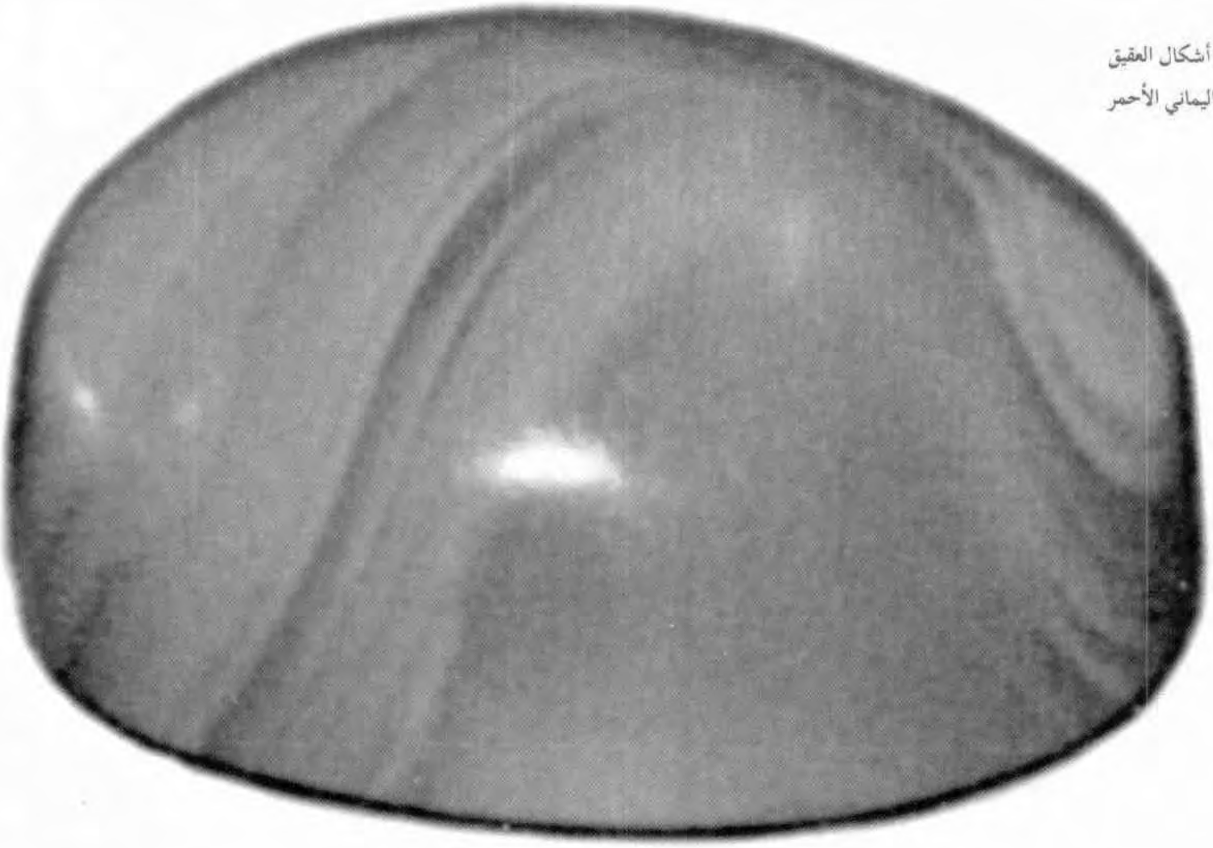
إذا رأيت هذا الحجر الباهي الصغير فإنه يمكن القول: إنك قد وصلت أخيراً؛ إذْ وصلت إلى حيث البهجة. وإذا ما لامست ضوءه وهو يخطف الأبصار في فضاء المكان كالبرق أصبح بإمكانك، أيضاً، أن تعطي شكلاً للبهجة، وتشير إلى العقيق اليماني.

لكن.. أي عقيق يماني هذا الذي يصفون، ويقولون: إنه بهجة الرّوح وروح البهجة، راح المؤمن وفص السلا، شكله خلاصة الأشكال، ملمحه وجه البهاء، اسمه جاء من البرق ومعدنه الأصلي يمان؟

فضّله أرسطو

حظي العقيق اليماني باهتمام من قبل الفلاسفة والمؤرخين والموسوعيين والعلماء والأدباء منذ ما قبل الميلاد وحتى الآن، فنجد ذكره عند أرسطو، والهمداني، والبيروني، والتيفاشي،

ـ من أشكال العقيق
اليماني الأحمر

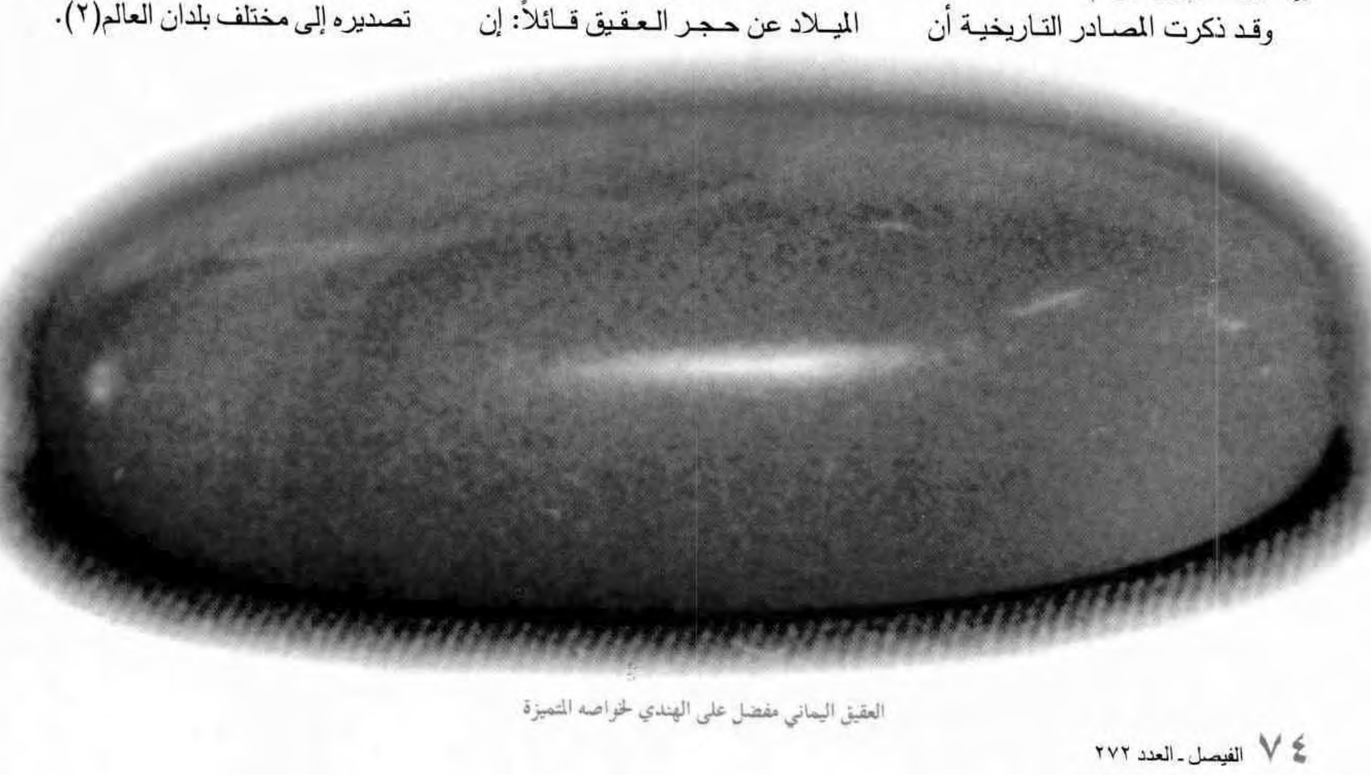


والأبشيهي، والأصطخري، والمقدسي، وابن حوقل، والقزويني، وابن سيده، وداود الأنطاكي، وابن منظور، والمرتضي الزبيدي، وجلازر، ونيبور، وإيتاليو كالفينو وغيرهم.

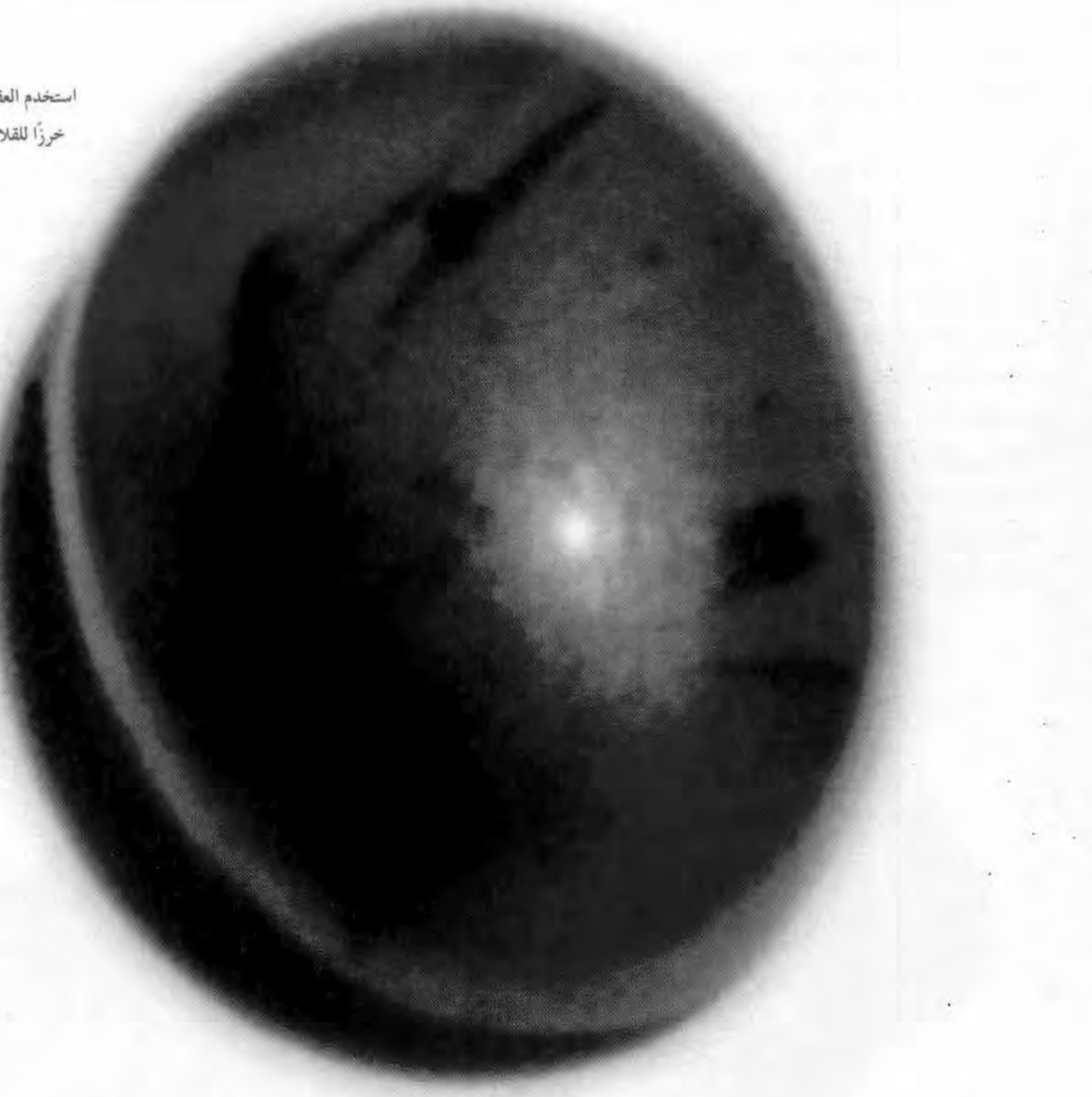
وقد ذكرت المصادر التاريخية أن العقيق اليماني عُرف في الحضارات اليمنية القديمة التي سادت قبل الميلاد، ومنها حضارة دولة سبأ.

كما وصل إلى أوربا بشكل مبكر، وتحدث أرسطو في القرن الرابع قبل الميلاد عن حجر العقيق قائلاً: إن «أصنافه كثيرة، وأجودها ما يجلب من اليمن، وأحسنه ما اشتدت حمرته، وصفت صفرته»(١).

و كان العقيق ينقل من صنعاء حيث مركز صناعته إلى عدن، ومن هناك يتم تصديره إلى مختلف بلدان العالم(٢).



العقيق اليماني مفضل على الهندي لخواصه المتميزة



استخدم العقيق اليماني قديمًا
خرزًا للقلائد والسبحات

واستخدم العقيق اليماني قديماً في الزينة كفصوص للخواتم، وخرز للقلائد والسبحات، وترصيع التيجان والأكاليل والتحف والمزهريات، وفي مقابض السيوف والسكاكين. وظلت تجارة العقيق والتفاخر والتهادي به من المميزات المرتبطة باليمن واليمنيين، لاسيما القادة والملوك منهم.

ويروي البيروني (ت ٤٤٠هـ) أن صنم (هبل) المعبود في أيّام الجاهلية كان من عقيق أحمر، منوهاً بتفضيل أهل خراسان والعراق للعقيق اليماني على العقيق الهندي، مع أن الأول كان يباع الفص منه في سوق بغداد بثلاثة دنانير(٣).

فصوص السلا

وإذا تتبعنا ما قيل عن العقيق اليماني من أجل اكتشاف سر اجتذابه للناس لوجدنا كلاماً يصل، أحياناً، إلى حد الخرافة، وأحياناً يكون الكلام مُشخصاً لما يمثله العقيق من بهاء ينعكس في صفاء اللحظة على فضاء الرّوح، وقد يراوح الكلام بين هذا وذاك، ومن ذلك ما نقله المرتضى الزبيدي عن داوود الأنطاكي في التذكرة بأن من تختمّ بالعقيق اليماني الأحمر «سكنت روعته عند الخصام، وزال عنه، الهم والخفقان، وانقطع عنه الدم من أيّ موضع كان، ولاسيما النساء اللواتي يدوم طمثهن، وشُربه يذهب الطحال، ويفتح السدد، ونحاتة جميع أصنافه تذهب حفر الأسنان، ومحروقه يُثبّت متحركها، ويشدّ اللثة، وقد ورد في بعض الأخبار «تختّموا بالعقيق فإنه بركة»(٤).

ويورد ما يشبه هذا الكلام التيفاشي

والأبشيهي؛ وفي الكثير من المراجع الموسوعية هناك إشارات إلى معتقد يقول: إن لبس العقيق اليماني يسر الخاطر، وإنه أحد أحجار السعد المرتبطة بعلم الفلك، ودائرة البروج، وبشهور السنة الاثني عشر حيث خُصص لكل شهر حجران يجلبان السعد.

ويردد بائعو العقيق أن الإيرانيين يرغبون باقتناء العقيق الأحمر اليماني (الرّماني) لاعتقادهم أن لبسه فيه بركة، وأن من صلّى وفي يده خاتم من العقيق اليماني تحسب صلاته بسبعين صلاة، لكن عبدالحكيم أحمد عثمان المتخصص بالأحجار النفيسة لايقر بصحة ما يردده هؤلاء، ويرى أنها أحاديث ضعيفة، وكان قد أشار في كتابه «الأحجار النفيسة»(٥) إلى أن «... الحقيقة التي لا يمكن إنكارها أن الأحجار الكريمة ببريقها الأخاذ، وألوانها الجذابة الجميلة تَسُرّ الخاطر وتريح النفس، وهي قرة عين وبهجة لحاملها والناظر إليها ... وقد بدأ إنسان العصر الحالي أبحاثه باستخدام بعض بلورات الكوارتز في علاج بعض الأمراض؛ وذلك من خلال ما تصدره تلك البلورات من إشعاعات غير مرئية تمثل موجات كهرومغناطيسية، ولعل ما اعتقده القدماء بمنافع الأحجار قد أصبح بعضها حقائق علمية بفضل التقدم العلمي والتقني الذي وصل إليه إنسان القرن العشرين».

اشتق من الأصل

تختلف المراجع عن أصل ومعنى تسمية العقيق، لكن أكثرها(٦) تورد أن العقيق هو (كل مسيل شقه ماء السيل) أو الوادي. وقيل: العقيقة والعقق: البرق إذا رأيته وسط السحاب كأنه سيف مسلول، والأصل في ذلك (عق) يعق عقا إذا (شق) وقطع فهو معقوق وعقيق، ومنه تسمية شعر المولود عقيقة، ويقال: انعقت السحابة أي تبجعت بالماء وانشقت، وكل انشقاق هو انعقاق، يقال:



من الجزع اليماني



تراجع تصنيع العقيق اليماني عن ذي قبل

انعق الثوب أي انشق عن ثعلب، وانعق البرق تشقق والتركيب يدل على الشق وما يستدرك عليه العقيق كأمير البرق وبه فسر بعضهم قول الفرزدق:

قفي ودعينا يا هنيد فإنني
أرى الحي قد شاموا العقيق اليمانيا

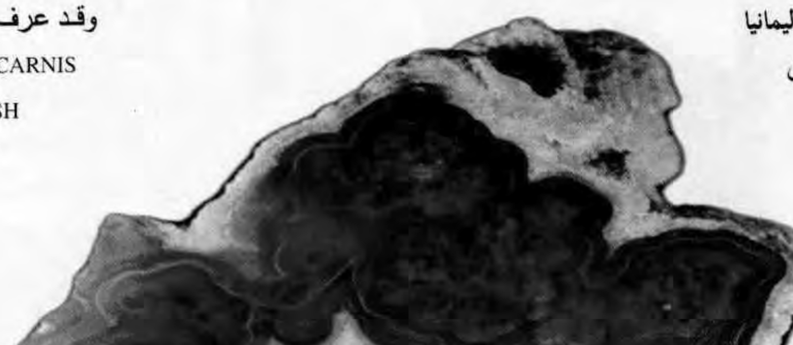
أي شاموا البرق من ناحية اليمن، وعق البرق: أنشق ويقال الانعقاق: تشققه والتبوّج تكشفه، وعقيقته شعاعه.

ويقول الباحث المعاصر عبدالحكيم أحمد عثمان(٧): إن العقيق «أخذ تسمياته من ألوان ثمر النخيل، وهي الينع، وهو العقيق الأحمر، والأحمر للصفرة رطب (الرطبي) والمائل إلى السواد تمر (التمري). أما أصل الاشتقاق فهو (عق) أي شق أو خرج عن الأصل، والعرب تقول: (أعق النخيل) أي أخرج العقان، وهو الثمر بألوانه، وهو الينع والعقيق أيضاً.

وما يؤيد قولنا هذا قول ابن الربيع:

انظر إلى النخل وما أبرزت
فروعها من درها والعقيق

وقد عرف العقيق باللاتينية بـ CARNIS، ومعناها: التمر اليانع FLESH، ومن اللاتينية اشتقت تسميته CARNELIAN بالإنجليزية، وعرف عند الفرنسيين باسم CORNALINE. ويلاحظ عدد من الباحثين وجود اضطراب في تسميات العقيق وتعريفاته بين كتب التراث، وسوق الأحجار اليمنية الحالية إضافة



اعتقد بعض الناس أن لبس العقيق اليماني فيه بركة



إلى تحريف اسمه في أوروبا ليصبح اجيت (AGATE). بينما خصائصه تنطبق على خصائص معدن الكارنليان.

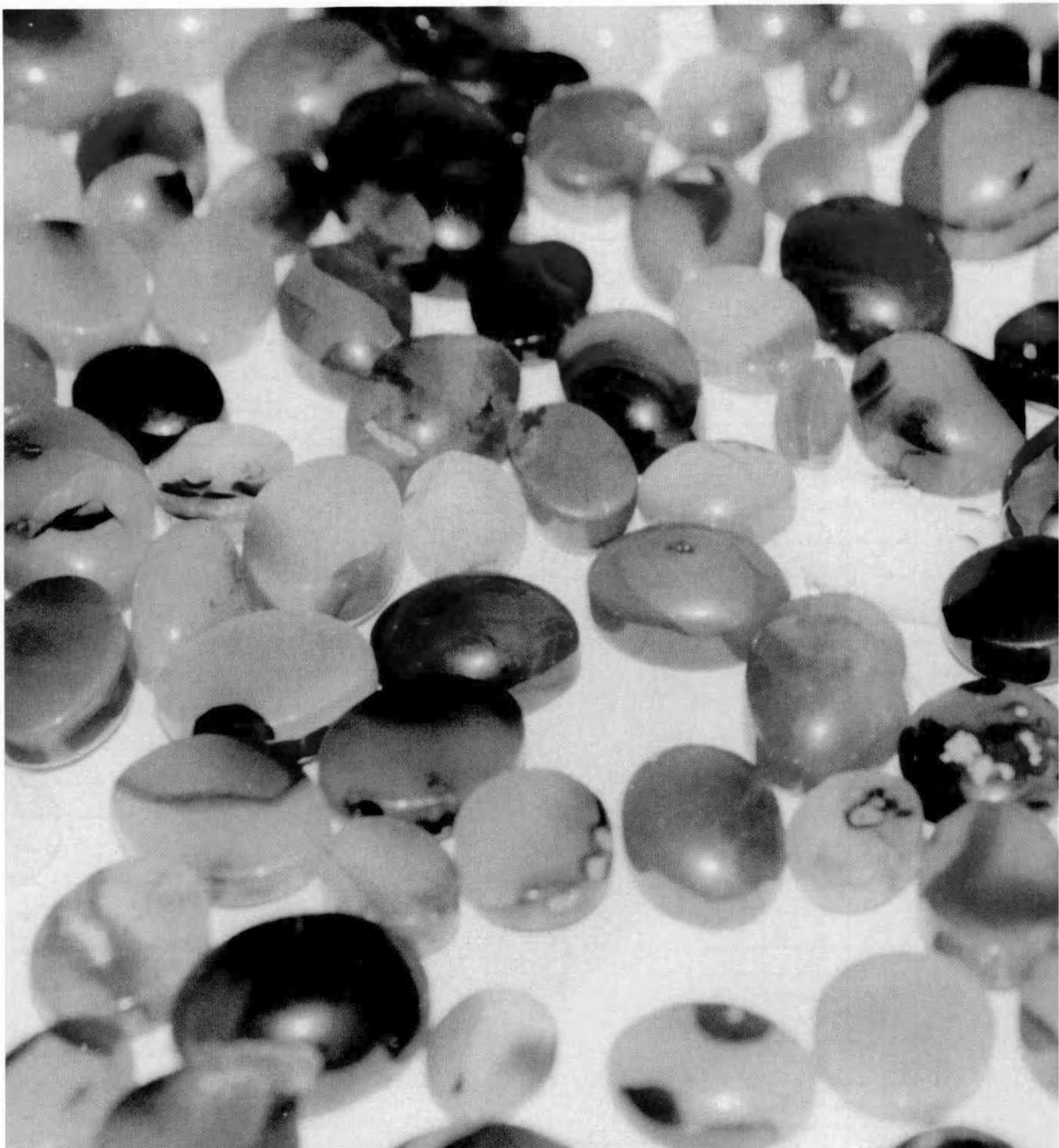
من مجموعة الخليقدون

لكي نعرف بعض ما توصلت إليه الدراسات الجيولوجية حتى الآن حول العقيق اليماني، وما هو واقع هذا الحجر الشهير في موطنه ذهبنا إلى المهندس عبدالحكيم أحمد عثمان أبرز المتخصصين في مجال الأحجار النفيسة في اليمن ومؤلف كتاب «الأحجار النفيسة ومعادن البقران والجزع والعقيق واليشب في اليمن» الذي حقق فيه لأول مرّة، وبطريقة علمية معاصرة، أصناف معادن هذه الأحجار وخصائصها.

وفي حوارنا معه تحدث، بداية، عن تصنيف العقيق كمعدن فقال: إنه «ينتمي إلى مجموعة (الخليقدون) التي تضم إلى جانب العقيق البقران والجزع واليشب.

والأصناف شبه الشفافة ذات البريق الشمعي من الخليقدون تسمى بحسب الألوان، الخليقدون الأبيض أو المزرق CHALCEDONY، والأحمر CARNELIAN، والبني SARD، وهي تمثل معادن العقيق التي تعزى ألوانها إلى محتبسات دقيقة من أكاسيد الحديد مثل الهيماتيت».

وعن تواجد هذه المعادن يقول: إنها «توجد في الصخور البركانية، وتحديداً صخور البازلت المتغيرة، والريولايت، ويتم اكتشاف مناطق العقيق من خلال تتبع الصخور البركانية التي تعرضت لعملية تغير، ومن خلال ظهوره بشكل عروق».



أشكال وألوان من العقيق اليماني

طريقتان للتصنيع

بالنسبة إلى واقع تصنيع العقيق اليماني، فإن هناك طريقتين للتصنيع هما، كما يقول عبدالحكيم أحمد عثمان: الطريقة اليدوية، وهي في الغالب تنتج النماذج ذات الجودة العالية، والطريقة الآلية باستخدام (دباشات) كهربائية، وغالبا ما يكون المُنْتج فيها أقل جودة من التصنيع اليدوي.

ويتم إعداد العقيق حاليًا كأحجار زينة بطريقة الفصوص CABOCHON، ويكون مقببًا من أعلى، ومسطحًا من أسفل حيث يركب في الخواتم، أما في السابق فقد استخدم في أشياء كثيرة».

ويضيف المختص اليمني قوله: إن الخامات «تتم معالجتها حراريًا قبل التصنيع، وذلك في عملية (الرمد)، أي دفنه بالرماد الحار فترة محددة، وتهدف هذه العملية إلى تحسين ألوان العقيق نظرًا لتأكسد مركبات الحديد في جسم معدنه».

سر التميز

ويتفق عثمان مع قول الغالبية من الناس على أن العقيق الأحمر المعروف بـ (الرّماني) أجود أنواع العقيق اليماني، يليه اللون الكبدي والتمري، ثم الموشى أو المزهى، وبعدها الألوان التي يقل طلبها كالأزرق والأسود والأبيض.

وهو إذْ يقول: إن استخراج العقيق في اليمن وصنعه وتسويقه يتم بجهود ذاتية من قبل المواطنين (المعدّنين)، فإنه ينوه بضرورة إيجاد مسوحات واستكشافات جيولوجية لتقدير كمية احتياطات هذه المعادن ودراستها.

ويلاحظ عبدالحكيم أحمد عثمان تراجع تصنيع العقيق اليماني مقارنة باستخداماته في الماضي، مع بقاء طلبه في الأسواق الإيرانية، ودول الخليج، وسورية، وتركيا، ولبنان، وألمانيا، واليابان، وغيرها.



أكسيد الحديد يجعل العقيق اليماني نقيًا صافيًا

ويؤكد أن العقيق ثروة وطنية «يمكن أن يكون له رصيد لا بأس به في دعم الاقتصاد الوطني إذا أحسن استغلاله تعدينًا وتصنيفًا وتسويقًا مقارنة بما يدره فن تشكيل واستغلال مثل هذه المعادن في مدينة أوبرشتين بألمانيا أو البرازيل أو الهند... وإذا علمنا أن العقيق الهندي والإيراني أقل جودة من اليماني إلا أن هناك تنوعًا في الاستخدام مع الاهتمام بجودة التصنيع مما يجعلهما يغزوان الأسواق العالمية، ومنها اليمن».

ويوضح سبب تميز العقيق اليماني من العقيق الهندي والإيراني بأنه «يرجع إلى وجود نسبة من أكسيد الحديد في العقيق اليماني تجعله نقيًا صافيًا، بينما الهندي أو الإيراني أكثر إعتامًا».

أخيرًا هل ما أوردناه هنا يغني عن الذهاب إلى إحدى مدن العقيق اليماني اللا مرئية كأناستاسيا؟

لا أعتقد.. فأناستاسيا هذه (المدينة الخادعة)، كما يقول الروائي الإيطالي الشهير إيتالو كالفينو(٨): «تملكك، إن تعمل فيها ثماني ساعات في اليوم كقاطع يشب، أو عقيق يماني، أو حجر كريم أخضر، فكدحك الذي يعطي للرغبة شكلاً، يأخذ من الرغبة شكلها، وتظل تعتقد بأنك تتمتع بأناستاسيا بينما أنت عبدها».

الهوامش

١ـ عبدالحكيم أحمد عثمان، الأحجار النفيسة ومعادن البقران والجزع والعقيق واليشب في اليمن، ص ٥٢، إصدار خاص، صنعاء ١٩٩٨م، نقلاً عن كتاب «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات» لزكريا القزويني.

٢ـ المرتضى الزبيدي، «تاج العروس»، مادة (عقّ)، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت. (د.ت).

٣ـ عبدالحكيم أحمد عثمان، مصدر سابق، ص ٨، ص٥٣ نقلاً عن «الجماهر في معرفة الجواهر» لأبي الريحان البيروني.

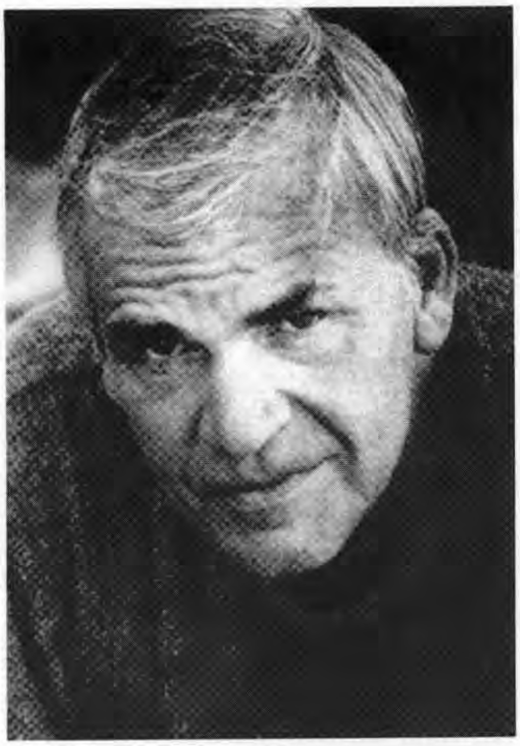
٤ـ المرتضى الزبيدي، مصدر سابق، مادة (عق).

٥ـ عبدالحكيم أحمد عثمان، مصدر سابق، ص١٠.

٦ـ المرتضى الزبيدي، مصدر سابق، مادة (عق).

٧ـ عبدالحكيم أحمد عثمان، مصدر سابق، ص٧١، ٨٩.

٨ـ إيتالو كالفينو؛ «مدن لا مرئية» ترجمة ياسين طه حافظ، دار المأمون ـ بغداد ١٩٨٧م.



حوار مع الروائي التشيكي
ميلان كونديرا

كونديرا يحدد الحرب الأولى لحظة بدء العولمة ويقرر وفاة الشعر

ترجمة: فائز أبّا

لاشك أن رواية «خفة الكائن اللامحتملة» قد وضعت كاتبها التشيكي الأصل والفرنسي الجنسية الآن: ميلان كونديرا في صدارة المشهد الإبداعي الروائي الأوروبي الذي اضطر إلى الالتفات إلى هذا الكاتب المتميز القادم، ممّا كان يسمّى بكتلة أوروبا الشرقية، وجاء اختلافه مع النظام الحاكم في براغ بعد اضطهاد طويل ليرفع الحرج عن أوربا الغربية في اعتنائها بتراث كاتب قادم من الشطر المعادي في القارة. أخيرًا غادر كونديرا بلاده ليقيم في فرنسا منذ السبعينيات، وليكتب آخر أعماله بالفرنسية مباشرة. ومع أن كثيرًا من النقاد يصنفون روايات كونديرا ضمن تجليات ظاهرة ما بعد الحداثة post-modernism إلا أن كونديرا - كمعظم الكتاب المهوّسين بقيمة إبداعاتهم العميقة - يرفض أن تصنف أعماله تحت أية لافتة. وفي هذا العدد الحوار الموسّع - الذي كان في أصله جزءًا من حوار مطول أجراه كريستيان سالمون لباريس ريفيو أعاد كونديرا صياغته بنفسه ليضمه إلى كتاب تنظيري عن فن الرواية - يبتدع الكاتب (الإيروطيقي) بامتياز مصطلح التساؤل التأملي أو التأمل المتسائل بوصفه خلاصة جوهر أعماله الروائية والقصصية المقتصرة على مجموعة وحيدة هي غراميات مرحة.

ترجمة: فائز أيّا

وكذلك يخوض مع محاوره الشرس، الذي تهيأ للحوار بقراءة عميقة لكل أعمال الكاتب علاوة على خلفيته الثقافية المتميزة، في عدد من القضايا الفنيّة من منظور جديد، كما يوضح ما يقصده بخفة الكائن التي يرتكز عليها، علاوة على قضايا أخرى كثيرة، ويبقى أن نشير إلى ما حظيت به أعمال هذا الكاتب الذي ترجمت جميع أعماله إلى العربية ربما باستثناء رواية وحيدة هي «الخلود»، ومسرحية لم يكتب غيرها بعنوان «جاك القدريّ»، علماً بأن آخر مؤلفاته المعنون بـ «عهود منقوضة» قد صدر في ترجمة حديثة في القاهرة تحت عنوان اخترعته المترجمة في تصرف عجيب لا مسوّغ له على الإطلاق، لاسيما أن الكتاب قد صدر في سلسلة «آفاق الترجمة» التي ترعاها الهيئة العامة للكتاب ولم تضع المترجمة العنوان الأصلي ولو كعنوان فرعيّ.. على أية حال للقارئ الكريم أن يستطلع آفاق كونديرا في هذا الحوار.

المترجم

أودُّ أن أناقش معك جماليات رواياتك ولكن من أين نبدأ؟

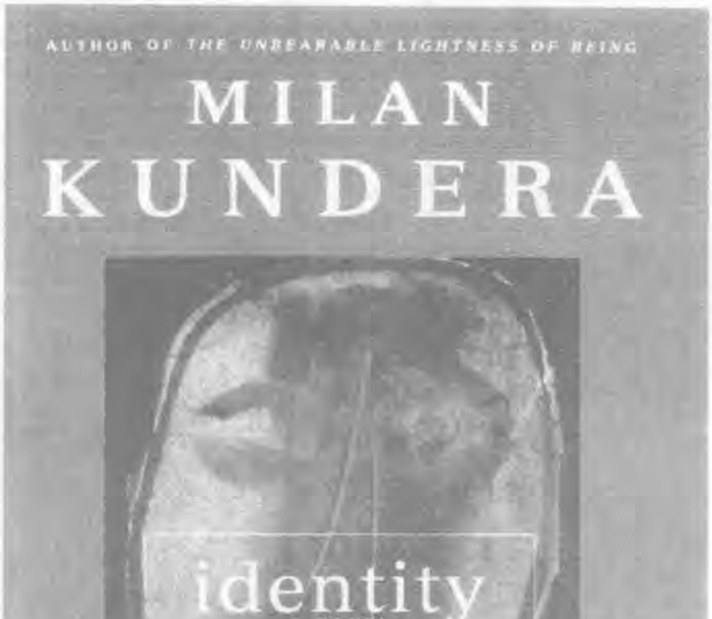
نبدأ من هذه الفرضية، أن رواياتي ليست نفسية «سيكولوجية».. بدقة أكثر نستطيع القول: إن جماليات رواياتي هي خارج ما اصطلح على تسميته بالرواية السيكولوجية..

ولكن أليست كل الروايات سيكولوجية أي معنية بغموض النفس البشرية؟

فلنكن أكثر دقة. إن جميع الروايات في كل العصور معنية بدرس غموض النفس البشرية، فبمجرد أن تبدع كائناً خيالياً: شخصيةً، فإنك ستواجَه بالسؤال الماثل: ما النفس؟ وكيف يمكن استيعابها؟

إنه سؤال أساسي ترتكز عليه الرواية: أيًا كانت هذه الرواية، ووفقًا للإجابات المختلفة عن ذلك السؤال نستطيع أن نتبيّن الاتجاهات المختلفة، وربما حتى الحقب المتباينة في تاريخ الرواية، فالمنهج النفسي لم يكن معروفًا للقصاصين الأوروبيين الأوائل. إن بوكاتشيو يروي لنا الأحداث والمغامرات فقط، ومع ذلك فبوسعنا أن نتبيّن وراء كل هذه الحكايات المسلية مفهومًا ما، فمن خلال الحدث/ الفعل ينطلق كل إنسان من الكون اليومي، حيث يشبه كل فرد الآخر ليتمايز من سواه بما يقترفه/يفعله.. ولقد قال دانتي الليجيري كلامًا كهذا حين صرّح أنه في أي فعل تكون النية الأساسية لفاعله أن يكشف/ يجلو شخصيته هو.. صورته، هذا هو مغزى الجملة المروية عن دانتي. وهكذا، فمن البداية يعدُّ الفعل تصويراً شخصياً للذات التي تقترف الفعل. وبعد أربعة قرون من وفاة بوكاتشيو يصير ديدرو أكثر شكًا وأقل قبولاً لما يقال: حيث يغوي بطل روايته جاك فتاة صديقه، فيضربه أبوه ضربًا مُبرِّحًا، ويتفق أن تمر كتيبة عسكرية فينضم إليها لإغاظة أبيه.. وفي أول معركة يخوضها يُصاب برصاصة تتركه يعرج بقية حياته.

لقد كان يحسب أنه بصدد مغامرة عاطفية، ولكنه بدلاً من ذلك يندفع نحو إصابته، وما من سبيل يتيح له التحقق من ذاته في الفعل الذي يرتكبه.. إذ تنداح هوّة عميقة بين الفعل والذات، فالإنسان يريد للفعل أن يعكس صورته، بيد أن ذلك الفعل لا يشبهه بحال من الأحوال. أي إن الطبيعة التناقضية للفعل إحدى مُكتشفات الرواية.. ولكن إن كانت النفس عصية على الإرادة عبر الفعل، فعندئذ متى وكيف يتسنى استيعابها؟ لهذا جاء الوقت الذي أجبرت فيه الرواية - في بحثها الدؤوب عن النفس الإنسانية - على الإشاحة عن عالم الفعل المرئي، لتسبر بدلاً منه الأعماق الحيّة الخفية وبواطنها المرئية. ففي منتصف القرن الثامن عشر يكتشف ريكاردسون شكل الرواية التي تعتمد الرسائل وسيلةً لجلاء أفكار الشخصية ومشاعرها والبوح بها.





كونديرا يحدد الحرب الأولى ...

هل كـــان هذا مـــولد الرواية السيكولوجية؟

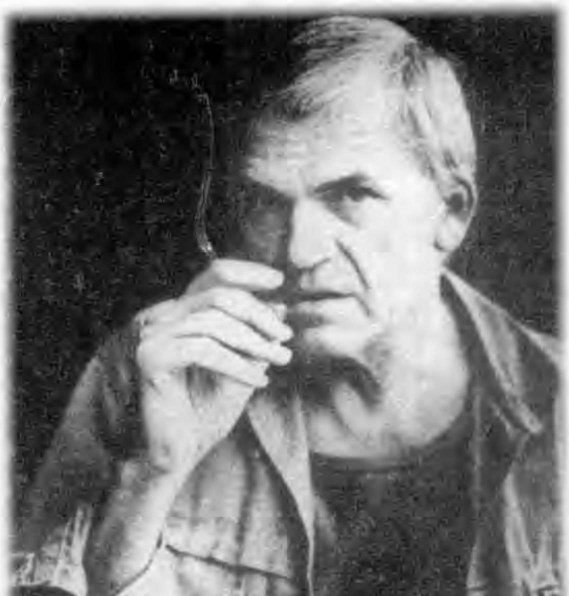
هذا المصطلح غائم وتقريبي وغير دقيق؛ لذا دعنا نتجنبه، ونحاول أن نلتف حوله ببضع عبارات مسهبة. لقد وضع ريكاردسون الرواية على طريق استكشاف حياة الإنسان الباطنة، ونحن نعرف الكُتّاب العظام الذين جاؤوا بعده: جوته صاحب «آلام فرتر»، ولالكوس، ثم ستندال، وكُتّاب عصره، ويأتي أوج ذلك التطور لدى بروست وجويس، كما يبدو لي. إن جويس يحلل شيئًا أصعب في استيعابه من زمن بروست المفقود، وهو الزمن الحاضر.

وللوهلة الأولى قد لا يبدو أن ثمة ما هو أكثر وضوحًا، وأسهل استيعابًا من الوقت الراهن، ولا أكثر حسية (إدراكًا)، ومع ذلك فهو يتخلص وينسرب منا بالكامل. وجماع أحزان الحياة نابعٌ من هذه الحقيقة. ففي غضون ثانية واحدة تسجل حواسنا: أبصارنا، وآذاننا، وأنوفنا، أسرابًا من الأحداث، كما تمرُّ بأدمغتنا مواكب وأرتال من الأحاسيس والأفكار، وتمثل كلُّ لحظة كونًا صغيرًا ينمحي - لا محالة - في اللحظة التالية، بلا أدنى أمل في استرجاعه، ويتكفل مجهر جويس بتوقيف تلك اللحظة الهارية واعتقالها، ليجعلنا نراها. بيد أن البحث عن النفس ينتهي مرة أخرى بمفارقة، فكلما ازدادت ضخامة عدسة المجهر الذي يرقب النفس ازدادت وتيرة تفلّتها، وتفلّت فرادتها. لذا نجدنا جميعًا متماثلين تحت العدسات الجويسية العظيمة التي تفتت الروح إلى ذرات. ولكن إن كان إدراك النفس وفرادتها في حياة الإنسان الباطنة متعذرًا.. فأنّى لنا أن ندركها؟ وكيف؟.

وهل إدراكها ممكنٌ على الإطلاق؟

بالطبع لا ، لقد انتهى كل بحث عن النفس فيما مضى وسينتهي كل بحث فيما سيأتي إلى مفارقة غير مرضية،، وأنا لا أقول هزيمةً واندحارًا؛ لأن الرواية لا تقدر على تجاوز احتمالاتها الخاصة، وقد أصبحت إضاءة هذه الحدود اكتشافًا عظيمًا ونصرًا مؤزرًا للإدراك، ومع ذلك، أو برغمه فقد بدأ الروائيون العظام بوعي وبلا وعي في البحث عن مسار جديد، بعد أن بلغت الرواية الأعماق القصية بسبب إبحارها العميق والمفصّل في الحيوات الباطنة في النفس البشرية. وكثيرًا ما نسمع عن الثلاثي المنزه في مضمار الرواية: بروست وجويس وكافكا، وفي نظري أنه لا وجود لهذا الثالوث، وأن كافكا هو الذي أتاح الوجهة الجديدة للرواية، وجهة ما بعد بروست فطريقته في فهم النفس وإدراكها غير متوقعة كليًا: ترى ما الذي يُميز كاف كمخلوق فريد؟ إن بنيانه الجسماني وسيرة حياته مجهولان لنا، وكذلك اسمه وذكرياته وميوله، وحتى عُقده.

فهل هي تصرفاته التي تميزه من سواه؟ كلاّ، لأن مجال الفعل لديه محدود إلى درجة مؤسية. فهل هي أفكاره/، نعم فكافكا لا يتوقف عن تتبع انطباعاته وأفكاره، ولكنها أفكار وانطباعات تدور حول الحدث الآني، وتقصي ما عداه.. فمثلاً ما الذي يجب فعله في الظروف الحالية؟ هل يذهب لإجراء التحقيق أم يتجنبه؟ هل يستجيب لنداء القديس له ويمْثُل بين يديه؟ ان دخيلة نفس «كاف» تُجلى لنا عبر المأزق الذي يقع في شراكه والفخ الذي يستوعبه، فتتضح لنا أفكاره، وتأملاته الغيبية (الميتافيزيقية)، وآراؤه في الناس. بالنسبة إلى بروست يشتمل كون الإنسان الداخلي على معجزة وعلى «اللانهاية» التي ماتني تدهشنا، ولكن ليس ذلك ما يدهش كافكا ويجتذبه.. إن كافكا لا يتساءل عن الدوافع الباطنة التي تحفز الإنسان، وتشكل نزوعه السلوكي، انه يصوغ سؤالاً يختلف عن ذلك جذريًا، إذ يتساءل عمّا يتبقى للإنسان في الكون مادامت محددات سلوكه الخارجية قد تعاظمت إلى حدٍّ لم يُبقِ للنوازع الداخلية أية أهمية؟ هل كان من الممكن أن يتغير مصير كاف لو أنه كان يعاني ميلاً للمثلية الجنسية، أو شقاء قصة حب تعسة؟ كلا، على الإطلاق.



التساؤل التأملي هو القاعدة الأساسية التي بُنيت عليها جميع رواياتي

هذا ما تقوله في روايتك «خفة الكائن اللا محتملة»: إن الرواية ليست اعترافات الكاتب بل مساءلة للحياة الإنسانية في العالم الذي استحال فخًا ما معنى ذلك ؟ وما هو الفخ؟

أما كون الحياة فخًا، فهذا ما عرفناه على الدوام...من جهة أخرى، فإن شسوع

العالم واتساعه باستمرار تعد بإمكان الهرب. يومًا ما كان بمقدور الجندي أن يهجر الجيش، ويهرب إلى بلد مجاور يعيش فيه، في هذا القرن الذي نعيشه أطبق العالم فجأة علينا، وأحكم طوق حصاره. ومن المؤكد أن اللحظة الحاسمة لوقوع هذا التحول حدثت سنة ١٩١٤م مع اندلاع الحرب التي سُميت لأول مرة في التاريخ حربًا عالمية.. وقد كان إطلاق صفة العالمية عليها خطأ، فهي حرب تورطت فيها أوربا فقط. بل إن أوربا لم تكن بأكملها مشاركة فيها، غير أن إطلاق صفة العالمية على تلك الحرب يُعبّر بشكل أكثر وضوحًا عن حقيقة خلاصتها أنه: من الآن فصاعدًا لن يحدث على ظهر الكوكب الأرضي ما يمكن أن نعدُّه حدثًا محليًا، فالكوارث تعني العالم بأسره، وكنتيجة لذلك، فنحن نتعرض للمزيد من التحكم في مصائرنا من قبل ظروف خارجية، ومواقف لا يستطيع أحدٌ الفكاك منها، وهي التي تجعلنا نزداد شبهًا بعضنا ببعض أكثر فأكثر.. أرجو أن تفهمني! فأنا حين أضع نفسي خارج دائرة الرواية السيكولوجية فليس معنى ذلك أنني أحرم شخصيات رواياتي من أن تكون لهم حيوات باطنة، بل المقصود ان ثمة غوامض وخوافي أخرى وأسئلة مغايرة تسعى رواياتي لاستجلائها/لاستيضاحها؛ وذلك لا يعنى أيضًا أنني اعترض على الروايات المفتونة بالسيكولوجي، والواقع أيضًا أن ما طرأ على الموقف من تغيّر منذ بروست يجعلني نهبًا للحنين. فمع بروست بدأ جمالٌ مهول يبتعد عنا شيئًا فشيئًا إلى الأبد، وبشكل لا يمكن استعادته. ولقد خطرت ببال قومير فيستنر فكرة هزلية وأصيلة في الآن ذاته، فقد قال إن وزن النفس يتحدد بحجم السكان في الكوكب، وبذلك يكون وزنه «ديمقريطس» ١/٤٠٠ مليون أمّا زنة البراهما، فهي ١/بليون، ووفقًا لذلك الحساب واللانهائية البروستية، فإنّ زنة النفس وحياتها الباطنة تصبحان أخفّ فأخف، وفي ذلك التسابق نحو الخفة، نكون قد عبرنا حدودًا مصيرية.

إن خفة النفس غير المحتملة هي هاجسك منذ كتاباتك الباكرة، وأنا أفكر هنا في مجموعتك القصصية «غراميات مرحة» كمثال، حيث حكاية إدوارد والآلة، إذ يستبد به إحساس بالتوعك إثر أولى لياليه مع أليس، فيأخذ في تأملها وتدور بذهنه هذه الأفكار: «إن ما تعتنقه خارجي بالنسبة إلى مصيرها، وكذلك مصيرها



جيمس جويس

«خفة الكائن» ليست اعترافات كاتب بل مساءلة للحياة الإنسانية التي أصبحت فخًا

مقارنة بجسدها.. كان يراها كاتصال / كرابطة عشوائية بين الجسد والأفكار، ومسار الحياة، رابطة غير عضوية؛ عشوائية وغير مستقرة.. وكرّة أخرى في قصة «حكاية لعبة طلب توصيل»، ففي الجزء الأخير تعصف بالفتاة التعاسة بسبب عدم تيقنها من هويتها، فتشهق مكررة.. إنني أنا.. إنني أنا.. إنني أنا؟

في «خفة الكائن اللامحتملة» نجد تيريزا تحدّق في نفسها في المرآة وتتساءل: كيف كان شكلها /هيئاتها، ستتغيرلو أن أنفها نما بقدر ملليمتر واحد يوميًا، كم هي المدة التي تستغرقها ليصبح وجهها غير معروف، ثم إذا صار وجهها وجهاً آخر غير وجه تيريزا (فكيف يكون الأمر؟).. أيّان تبدأ النفس وأيّان تنتهي؟

إنه ليس الاندهاش من « لانهائية»الروح التي لا يمكن إدراكها، بل إنه الاندهاش من الطبيعة غير اليقينية للنفس وهويّتها..

ليس ثمة حوار باطني (مونولوج داخلي) في رواياتك؟

لقد زرع جويس مكبر صوت (ميكروفونا) في دماغ «بلوم».. فبفضل تجسس الحوار الباطني البديع عرفنا عن ذواتنا الكثير الكثير، لكنني لا أستطيع أن استخدم ذلك الميكروفون.

في رواية «يوليسيز» لجيمس جويس يسود الحوار الباطني الرواية كلها، إنه عماد معمار الرواية وأبرز عناصرها، فهل نستطيع القول: إن التأمل الفلسفي يؤدي دورًا موازيًا في رواياتك؟

أعتقد أن كلمة فلسفة هنا غير دقيقة. فالفلسفة تنتج فكرها في بيئة/ مجال تجريدي بلا شخصيات وبلا مواقف..

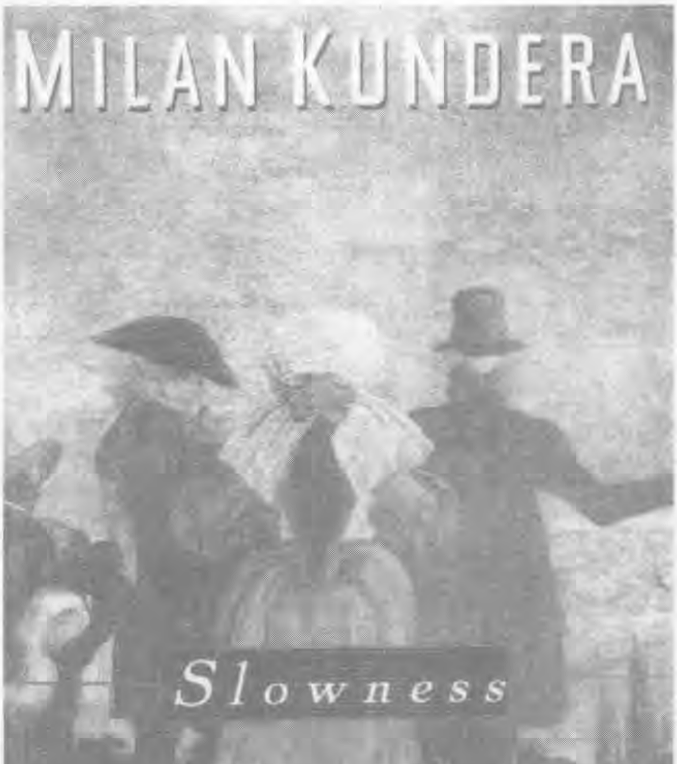
لكنك تستهل روايتك «خفة الكائن اللا محتملة» بالتعليق على مقولة نيتشه عن العَوْد الأبدي، أليست هذه فكرة فلسفية طوّرتها،/طرحتها بشكل تجريدي، بلا شخصية أو موقف؟

على الإطلاق، إن الجملة التي تشير



كونديرا يحدد الحرب الأولى ...

إليها من أول سطر في الرواية تُبرز الموقف الأساسي لشخصية توماس وتحدد مشكلته: خفة الكينونة/ الوجود في عالم ليس به عَودٌ أبدي، وها نحن أولاء نعود مرة أخرى إلى سؤالنا: ما الذي تبطنه الرواية السيكولوجية - أو ما يُسمى كذلك؟ بطريقة أخرى: ما الذي يمكن للعناصر غير السيكولوجية أن تفهم به النفس؟ وبالنسبة إليّ، فإن فهم النفس واستيعابها في رواياتي يعنى إدراك جوهر معضلتها الوجودية واستيعابها، بالإضافة إلى استيعاب مفتاح «شيفرة» تلك المعضلة. وعندما كنت أكتب «خفة الكائن اللا محتملة» أدركت أن «شيفرة» هذه الشخصية أو تلك تتكون من عدد من الكلمات الرئيسة، فبالنسبة إلى تيريزا: الجسد - الروح - الضعف - الفردوس، وبالنسبة إلى توماس: الخفة/ خفيف، وفي الجزء المعنون بكلمات أسيء فهمها، أقوم بفحص الشيفرات الوجودية لفرانزو سابينا، وذلك بتحليل عدد من الكلمات: المرأة، الإخلاص، الخيانة، الموسيقى، الظلام، النور، حشود، جمال، ريف، مقبرة، قوة، وكل مفردة من هذه لها معانٍ مختلفة عن الشيفرة الوجودية للشخص الآخر. وبالطبع، فإن الشيفرة الوجودية لا تفحص على المستوى التجريدي، بل إنها تفصح عن نفسها مع التقدم الحثيث للحدث وفي المواقف.. خُذْ مثلاً الجزء الثالث من رواية «الحياة هي في مكان آخر» حيث نجد البطل جارمويل الخجول.. فذات يوم بينما كان يمشي بصحبة فتاة تضع رأسها فجأة على كتفه، فتغالبه السعادة إلى حدّ الاستثارة الجسدية.. أقف لدى جزئية الحدث هذه وأدوّن هذه الملحوظة: كانت ذروة السعادة التي بلغها جارمويل حتى تلك اللحظة في حياته هو وجود رأس فتاة على كتفه. ومن خلال هذا أحاول أن أتوصل إلى كنه (أيروطيقيته) وطبيعتها. فرأسُ فتاة يعنى له



أكثر بكثير مما يعنى الجسد! وهذا لا يعنى أنه لا يكترث بالجسد - كما أحاول أن أوضح - لكنه لم يكن يتحرّق لرؤيته متجردًا. كانت أشواقه تتمحور حول بهاء وجهها الذي أظهره وجلاه تجردها/ تعريها، هو لم يكن يعاني رغبة في امتلاك الجسد.. كان يتحرّق لامتلاك فتاة تمنحه نفسها حبًا، أي بدافع الحب، وأحاول أن أصف ذلك فأختار مفردة الرقة، وأفحصها متسائلاً عن معناها، ما هي الرقة، فأتوصل إلى أجوبة متتابعة «تتخلق الرقة حين تدفع الحياةُ الرجلَ إلى عتبة البلوغ». فيدرك - متوترًا - مزايا الطفولة التي لم يقدرها حق قدرها حين كان طفلاً. بعدئذ تعريف آخر: «الرقة هي الرعب الذي يُثيره البلوغ»، ثم آخر «الرقة هي خلق/ استحداث مساحة ضيقة يُتفق فيها على أننا سنعامل الآخرين كأطفال»، ومثلما ترى فأنا لا أريك ما يعتملُ في نفس جارمويل، بل ما يعتمل فيَّ، إذ أُمضي وقتًا طويلاً أتأمل جارمويل، وأحاول خطوة بخطوة أن أصل إلى مكنون/جوهر موقفه.. لكي أفهمه وأستوعبه وأسميه.

وفي خفة الكائن تعيش تريزا مع توماس، ولكن حبّها يتطلب تحريك كل قواها واستنفارها.. فجأة.. تعجز عن الاستمرار وتتوق إلى العودة إلى القاع الذي جاءت منه، فأسأل نفسي: ما الذي جرى لها؟

غالبتها الدوخة والدوار، ولكن ما هي الدوخة؟ عندئذ أجد لها التعريف التالي: إنها اشتياق عنيد إلى السقوط لا يُغالب. ولكن سرعان ما أصحح لنفسي وأزيد من حدّة التعبير ودقته. فالدوار هو دوخة الضعيف. والإنسان الذي يدرك ضعفه يقرر الاستسلام له، بدلاً من تحديه، فهو مُنْتش بضعفه، يتمنى أن يكون أضعف. يتمنى أن يسقط أمام الجميع في أكبر ميادين البلدة، ثم أن يهوى إلى القاع وقاع القاع.

فالدوار / الدوخة أحد المفاتيح الرئيسية لشخصية تيريزا، لكنه ليس مفتاح فهم

شخصيتك أو شخصيتي، ومع ذلك، فنحن نعني أن الدوار احتمال وجودي لكلينا من بين الاحتمالات العديدة.. لذا كان عليّ أن اخترع ذاتًا تجريبية - هي شخصية تيريز؛ لأفهم الدوار (واحتمالاته الوجودية). ولكن ليست مجرد المواقف المعينة هي التي تجرى مساءلتها بهذه الطريقة. إن الرواية كلها ليست سوى تساؤل/ سؤال واحد طويل - إن التساؤل التأملي والتأمل المتسائل هو القاعدة التي بُنيت عليها جميع رواياتي.

وعليك أن ترى في روايتي «الحياة هي في مكان آخر»، لتتأكد أن معمار جميع رواياتي هو التساؤل التأملي أو التأمل المتسائل.. لقد كان عنوان الرواية الأصلي هو: [العمر الزاهي الغنائي) غيرته في اللحظة الأخيرة تحت ضغوط الأصدقاء وإلحاحهم، وأعتقد أنني كنت غبيًا حين استجبت لضغوطاتهم، لأنهم كانوا يرونه عنوانًا بلا طعم ولا نكهة له.. كنتُ غبيًا لهذه المجاملة، لأنني أومن في أعماقي أن تسمية الرواية وفقًا لما تنتمي إليه من تحديد/تصنيف رئيس تحمله في مضمونها هو أمرٌ جيد وحقيقي. فمثلاً رواياتي «المزحة»، «كتاب الضحك والنسيان» ، و«خفة الكائن اللا محتملة» وحتى «غراميات مرحة»، لا ينبغي أن تعد قصص/ حكايات حُب مسلية.. لأن فكرة الحب مرتبطة دائمًا وأبدًا بالجديّة.. وفي حالة قصص «غراميات مرحة»، فإن الحب يوجد فيها خلوًا من الارتباط بالجدية، هذا صحيح، ولكنها هنا فكرة نقدية تستهدف الرجل الحديث/العصري، غير أننا لو عدنا إلى رواية الحياة (ليست هنا هي في مكان آخر) لوجدناها تقوم على أسئلة محددة.. ما يُسمى غنائيًا؟ ما الموقف/ الهيئة/ الوضع الذي نستطيع أن نسميه غنائيًا، وكيف يكون الشباب عمرًا غنائيًا؟

سينتهي البحث عن النفس البشرية إلى مفارقة غير مرضية



وما مغزى الثالوث الغنائي/الشباب/ الثورة، بل ما معنى أن يكون الإنسان شاعرًا؟

أذكر أنني بدأت تلك الرواية بافتراض عملي هو تعريفٌ دونته يومًا في دفتر مفكرتي «الشاعر هو شاب تدفعه أمهُ لكي يضع نفسه بمواجهة عالم لا يستطيع أبدًا دخوله أو الانغماس فيه».. وها أنت ترى أن هذا التعريف ليس اجتماعيًا ولا جماليا، وهو كذلك ليس سيكولوجيا.

هو إذًا ظاهراتي(فينومولوجي)؟

الظاهراتية هذه ليست بالنعت السيئ أو الصفة الرديئة، ولكنني أخذت على نفسي عهدًا بعدم استعمالها.. إنني أرتعد من الأساتذة (البروفسورات) الذين لا يعني لهم الفن أكثر من مجرد انزياح عن مسارات الاتجاهات الفلسفية والتنظيرية، لقد اكتشفت الرواية اللاشعور قبل فرويد، وعرضت لصراع الطبقات قبل كارل ماركس،ومارست الظاهراتية (بمعنى فحص كنه المواقف الإنسانية).

دعنا نلخص ما سبق، ثمة وسائل عديدة للتوصل إلى جوهر النفس أولها الحدث، وثانيها الحياة الباطنة، والنفس بالنسبة إليك - كما تُعلن - مُحصلة يحددها جوهر معضلتها الوجودية، ولهذا المنظور عدد من النتائج في أعمالك (الروائية)، فإصرارك على فهم جوهر المواقف يجعلك ترى كل التقنيات السردية منقرضة، وأنت لا تكاد تورد أية ملامح جسدية لشخصياتك. أنت لا تحفل كثيرًا بتفحص الدوافع السيكولوجية (لهم) ولأنك أكثر اهتمامًا بتحليل المواقف، فأنت شحيحٌ جدًا فيما يتعلق بإضاءة ماضي الشخصيات، ولكن ألا ترى في المنحى الموغل في التجريد مخاطرة تجعل شخصياتك (شخصيات رواياتك) أقل حيوية، وأنأى عن الحياة اليومية؟

حاول أن توجه السؤال نفسه إلى أعمال كافكا وموزيل، وفي الواقع إنه قد أُثير قبلاً عن موزيل فقال بعض كبار المثقفين إن موزيل لم يكن روائيًا حقًا، وقد كان والتر بنجامين معجبًا بذكائه لا بفنه، وكان إدوارد روديتي يرى أن شخصيات روايات موزيل متخشبة لاتنبض فيها حياة، وهو في نظره يقتفي أثر بروست. ويتساءل - روديتي مقارنًا - كم هي حقيقية ومفعمة بالحياة شخصية مدام فيردورين قياسًا إلى شخصية ديوتيما؟!



كونديرا يحدد الحرب الأولى ...

الواقع أن قرنين من التحليل السيكولوجي قد أرسيا تقاليد غير قابلة للانتهاك، إذ على الكاتب - أولاً: أن يعطي أقصى قدر ممكن من المعلومات عن الشخصية، كالمظهر الجسماني (الفيزيقي) وطرائقه في السلوك، ولوازمه في الحديث، وثانيا: عليه أن يكشف للقارئ ماضي الشخصية، لأنّ دوافع أفعالها في الحاضر موجودة في ذلك الماضي، وثالثاً: لابدّ للشخصية أن تتمتع باستقلال تام، بمعنى أن على الكاتب أن يختفي، ومعه كامل اعتباراته /تصوراته لكيلا يزعج القارئ الذي يريد أن يسلم نفسه للإيهام وقبول التخييل كواقع. أما الآن فقد حطم موزيل العقد الذي بين القارئ والرواية (التواطؤ على اعتبار التخييل واقعاً)، وكذلك فعل كتّاب آخرون، فما الذي تعرفه مثلاً عن ملامح شخصية إسك الجسمانية وهي أعظم شخصية أبدعها بروخ؟ لا شيء سوى أسنانه الكبيرة، وماذا نعرف عن طفولة كاف أو سكفيك؟

إن موزيل وبروخ وقومبر وفيسشنر ما كانوا يحسّون بأدنى حرج من كونهم موجودين في أعمالها الروائية فكريًا. إن الشخصية ليست احتذاءً أو نسجاً على منوال شخصية كائن حي. إنها كيان متخيل. إنها ذات تجريبية بتلك الطريقة تعاود الرواية الارتباط ببدايتها، فدون كيخوته شخصية لا يمكن تخيلها في أرض الواقع، ومع ذلك، فهل توجد شخصيات لها مثل ذلك الحضور في ذواكرنا؟

أرجو أن تفهمني فليس قصدي أن أسفه القارئ ورغباته (مع سذاجتها وعدم مشروعيتها) بالتحليق مع العالم التخييلي للرواية لدرجة الخلط - أحيانا - بينها وبين العالم الواقعي. ولكنني لا أعتقد أنه لا يمكن الاستغناء عن تقنية الواقعية السيكولوجية لهذا السبب.. لقد قرأت القلعة لأول مرة حين كنتُ في الرابعة عشرة.. في الفترة ذاتها كنت معجباً بلاعب هوكي يسكن بجوارنا، وكنت أتخيله كاف كلما نظرت إليه، وما زلت أراه كذلك حتى اليوم. ما أعنيه هو أن خيال القارئ يُتمم خيال الكاتب تلقائياً (اتوماتيكيا).



هل كان توماس فاتح البشرة أم غامقاً؟ هل كان أبوه غنياً أم فقيراً؟ اختر لنفسك ما يحلو.

لكنك لا تتبع هذه القاعدة دوماً .. «في خفة الكائن اللامحتملة»، حيث لا ماضي لتوماس، تقدم لنا تيريزا لا بماضيها فحسب، بل بماضي أمها أيضاً؟

ستجد في الرواية هذه الجملة «كانت حياتها بأكملها تتمة لحياة أمها، مثلما أن مسار /انزلاق الكرة على طاولة البليارد هو تتمة لحركة ذراع اللاعب»، فإن كنتُ تحدثت عن الأم، فليس بدافع تقديم بيانات (داتا) عن تيريزا، ولكن لأن الأم هي موضوعتها (تيمتها) الأساسية؛ لأن تيريزا تتمة لأمها، وهي تعاني من ذلك، .. هذه المعلومة مهمة جداً، لأن الجسد موضوع (تيمة) أساسي لتيريزا، وفي المقابل، فإنني لم أذكر شيئاً عن طفولة زوجها توماس ولا عن أبيه لأمه أو عائلته، كما يبقى جسده وتقاطيع وجهه مجهولة تماماً لنا؛ لأن جوهر معضلته الوجودية يكمن في تيمات /موضوعات أخرى، لكن عدم وجود تلك المعلومات لا يجعله أقل حياة. وذلك بدوره يعني التعمق في قاع/نهاية موقف ما، موتيفة (موضوعة) ما، وحتى بعض المفردات التي تمنحه ملامحه.. لا أقل ولا أكثر.

إذاً يمكن تعريف مفهومك للرواية بأنه تأمل شعري في الوجود، وإن كانت رواياتك لم تُفهم دوماً على هذا النحو؛ لأنها تحوي أحداثاً سياسية عديدة أثارت تفسيرات اجتماعية (سيسولوجية) وتاريخية وفكرية(أيديولوجية)، فكيف توفق بين اهتمامك بالتاريخ الاجتماعي ومفهومك للرواية المعنية أساساً، وبشكل رئيس بسبر غموض الوجود واستكناهه؟

إن هايدجر يصف خصائص الوجود

في صيغة شهيرة جدًا تجعل الوجود مساوياً للكينونة في العالم، فليست علاقة الإنسان بالكون كعلاقة فاعل بمفعول (ذات/موضوع)، أو كعلاقة العين باللوحة، بل حتى كعلاقة الممثل بالمسرح المهيأ، إن الإنسان والكون ممتزجان الواحد بالآخر مثل الحلزونة وقوقعتها.

فالعالم جزء من الإنسان، وهو الذي يشكل أبعاده، وكلما تغير العالم تغيّر الوجود كذلك، ومنذ بلزاك صار العالم كينونتنا طبيعة تاريخية، وصارت حيوات الشخصيات تتكشف في إطار زمني تحدده التواريخ، ولن تستطيع الرواية أبداً التحرر من ميراث بلزاك.. وحتى قوميرو فيسشنر الذي يبتدع قصصاً فانتازية (غرائبية) غير ممكنة الحدوث، والذي يعبث بكل قوانين الصّدقية، ومماثلة الواقع لا يستطيع أن يهرب من التاريخ، فرواياته تحدث في زمن معين، ولها تواريخ تجعلها تاريخيةً بامتياز. ولكن ينبغي عدم الخلط بين أمرين، فمن جهة، هناك الرواية التي تفحص/تبحث/تناقش البُعد التاريخي للوجود الإنساني، ومن جهة أخرى، هناك الرواية التي تصور مواقف تاريخية. تصور مجتمعاً مُعيناً في منعطف/ لحظة تاريخية محددة: الجغرافيا والتاريخ [المزيج الجغراتاريخي] في نسيج روائي، وأنت تعرف الروايات التي كتبت عن الثورة الفرنسية.. عن ماري أنطوانيت، عن القيادة الجماعية في الاتحاد السوفييتي أو ضدها، عن رواية جورج أورويل سنة ١٩٨٤م.

هذه كلها صيغ شعبية عمومية تترجم المعرفة غير الروائية إلى لغة الرواية، ولكننا لن نملّ من ترديد هذه العبارة. إن السبب الوحيد لوجود الرواية هو أن تقول ما لا يستطيع سوى الرواية قوله.

لكن ماذا تستطيع الرواية وحدها أن تقول عن التاريخ؟ وما طريقتك في معالجة التاريخ؟

إليك بعض المبادئ/ القواعد التي أتّبعها، أولاً: أتعامل مع الأحوال/ الظروف التاريخية كافة بمنتهى الإيجاز والاختزال، إنني أعامل التاريخ بالطريقة ذاتها التي ينتهجها المخرج المسرحي لإعداد مشهد على نحو تجريدي، باستخدام وسائل قليلة وشديدة الصلة بالحدث، ولا يمكن الاستغناء عنها أبداً.

أما المبدأ الثاني، فهو اقتصاري على الأحداث التي تخلق/توجد مواقف وجودية ـ حياتية لأبطال شخصيات رواياتي. ففي رواية «المزحة» يشاهد لودفيك كل أصدقائه وزملائه يرفعون أيديهم للتصويت على إقصائه من الجامعة، ومن ثم تدمير حياته بمنتهى السهولة، فيخطر له أنهم قد يصوتون لشنقه/إعدامه بالبساطة نفسها. ومن هنا يجيء تعريفه للإنسان بأنه ذلك الذي يستطيع في أي موقف أن يبعث جاره لحتفه. وبذا يكون لخبرة لودفيك الإنسانية (الإنثروبولوجية) الأساسية جذرها التاريخي، ولكن وصف التاريخ نفسه [بما هو: دور الحزب /الأسس السياسية للرعب، تنظيم المؤسسات الاجتماعية.. الخ..الخ] ، فهو لا يهمني ولن تجده في الرواية، والمبدأ الثالث أن مزيج الجغرافيا والتاريخ [الجغراتاريخية] يكتب تاريخ المجتمع لا الفرد، ولذلك، فان الأحداث التي تعرض لها رواياتي تكون عامة مُهملة تغفلها الجغراتاريخية.



كافكا

أفكار كافكا وتأملاته تتجلى في تساؤله عما تبقى للإنسان في هذا الكون

فمثلاً في السنوات التي تلت الغزو الروسي لتشيكوسلوفاكيا سنة ١٩٦٨م مهد لعهد الرعب وإرهاب الجماهير بمذابح كلاب منظمة رسمياً. ولقد نسيت تلك الحلقة تماماً، إذ ليست لها أية أهمية في نظر المؤرخ وعالم السياسة، لكن لها أهمية إنثروبولوجية قصوى، ومن خلال هذه الحلقة استمدت الإيحاءات التاريخية لرواية فالس الوداع/ حفلة الوداع.

مثال آخر: في جزء حيوي من رواية «الحياة هي في مكانٍ آخر» يتدخل التاريخ في هيئة سراويل قصيرة رثة لم يكن يوجد سواها، ولذا يلجأ جارمويل ـ بطل الرواية الذي يرتدي هذه السراويل القصيرة الرثة ـ إلى الهرب خشية افتضاح أمر سراويله الرثة في موقف واجهه فيه أجمل مناسبة إيروطيقية في حياته، حين يخشى أن يبدو منظره سخيفاً فلا يرضى أن يخلعها وينطلق هاربا. الرثاثة: ظرف تاريخي آخر منسي، ولكن كم هي أهميته لمن عاش



كونديرا يحدد الحرب الأولى ...

ويلات النظام الشيوعي، وعانى نيره.

ولكن المبدأ الرابع هو أكثرها إيغالاً، حيثُ لا يتوجب على الظروف التاريخية أن توجد ظروفًا وجودية فقط لشخصية في رواية، بل إن علينا أن نفهم التاريخ ونحلّله كموقف وجودي. والمثال على ذلك من رواية «خفة الكائن اللامحتملة» حيث نجد الكساندر دوبتشيك - بعد إلقاء القبض عليه وسجنه وتهديده وإرغامه على التفاوض مع بريجنيف - يعود إلى براغ ويتحدث في الإذاعة لكنه لا يقوى على الكلام، وتنقطع أنفاسه، فيتوقف طويلاً في منتصف الجمل وقفات مرعبة وطويلة. وما تكشفه لي هذه الواقعة التاريخية[وهي واقعة نُسيت تماماً لأن الفنيين في الإذاعة قد طلب إليهم بعد ساعتين إزالة الوقفات تلك من خطاب دوبتشيك] ، هو الضعف، والضعف أحد التصنيفات الوجودية الأكثر عمومية وشيوعاً.

و«أيما إنسانٍ يواجه بقوى عاتية ضعيفٌ ولو كان رشيقًا ذا قوام رياضي مثل دوبتشيك». ولا تقوى تيريزا على احتمال منظر الضعف ذاك، الذي يُهيجها ويملؤها إحساسًا بالذل، فتختار أن تهاجر. لكنها حيال خيانات توماس تغدو - مثل دوبتشيك في مواجهة بريجنيف - ضعيفة وعزلاء. وقد سبق لك أن عرفت الدوخة/ الدوار/انتشاء الإنسان بضعفه ورغبته الملحة التي لا تقهر في السقوط. فجأةً تدرك تيريزا أنها تنتمي لمعسكر الضعفاء، وواجبها أن تخلص لهم لسبب محدد هو تقطيعهم الجمل من اللّهاث وانبهار الأنفاس.. وفي انتشائها بالضعف تترك توماس وتعود إلى براغ. عَوْدًا إلى مدينة الضعفاء، والحادثة التاريخية هنا ليست خلفية أو مسرحاً يتجلى فيه الموقف الإنساني، ويتضح أنها هي ذاتها موقف إنساني.. موقف وجودي متنامٍ.

وفي حالة مشابهة، فإن ربيع براغ في رواية «كتاب الضحك والنسيان» لا يوصف من جوانبه السياسية والتاريخية والاجتماعية، بل كموقف وجودي أساسي، فالإنسان (جيلٌ من البشر يقدمُ على الفعل [يصنع ثورةً] لكن فعله ينزلق/ينسرب من قبضته/تحكمه ولا يعود يُطيعه [تضطرم الثورة غضبًا: تقتل وتحطم]، وهنا يبذل أقصى جهده ليستعيد السيطرة عليها، ويقمع ذلك العصيان - جيل جديد يبدأ في تشكيل معارضة وحركة إصلاحية)، ولكن دون جدوى، فالفعل نقترفه، ويخرج من أيدينا حتى يصبح من المستحيل استعادته والتحكم فيه..



من معالم تشيكوسلوفاكيا

وهل هذا ما يستدعي موقف جاك القدري الذي ناقشته في البداية؟

نعم، ولكن هذه المرة هي مسألة موقف تاريخي جماعي..

وهل من الضروري معرفة تاريخ تشيكوسلوفاكيا لقراءة رواياتك؟

كلا على الإطلاق، إن الرواية نفسها تحكي/تقصُّ ما يحتاج إلى الإضاءة/المعرفة.

ألا تقتضي قراءة الروايات (عموما) معرفة بالتاريخ؟

لدينا تاريخ أوروبا منذ عام ١٠٠٠ ميلادية حتى وقتنا الحاضر، الذي غدا تجربة عامة وموحدة. إننا جزء من ذلك (التاريخ)، وكل فعل من أفعالنا - فرديًا كان أم وطنيًا - لا تتضح أهميته الفائقة إلا حين يوضع في ذلك السياق. صحيحٌ أنني أستطيع فهم دون كيخوته من دون معرفة تاريخ أسرته، ولكنني لن أستوعبها بعمق من دون إلمام - مهما كان عموميًا - بتجربة أوروبا التاريخية وبعصر الفروسية والشهامة مثلاً، عن الحب في القصور والبلاطات الحاكمة، وعن النُقلة من العصور الوسطى إلى العصر الحديث.

في رواية «الحياة هي في مكان آخر» نرى كل مرحلة من حياة جارمويل متداخلة مع أجزاء من سِير رامبو وكيتس وليرمنتوف وهلّم جراً، كذلك تتداخل سيرة الأول من مايو في براغ مع مظاهرات الطلبة في باريس سنة ١٩٦٨م، وبهذا تضع لبطلك إطارًا هائلاً يحوي أوروبا بكاملها مع أن أحداث روايتك تجري

في براغ وتبلغ ذروتها مع التمرد/العصيان الشيوعي سنة ١٩٤٨م؟

هي في رأيي رواية عن الثورة الأوروبية في هيأتها/شكلها المكثّف، هكذا أراها.

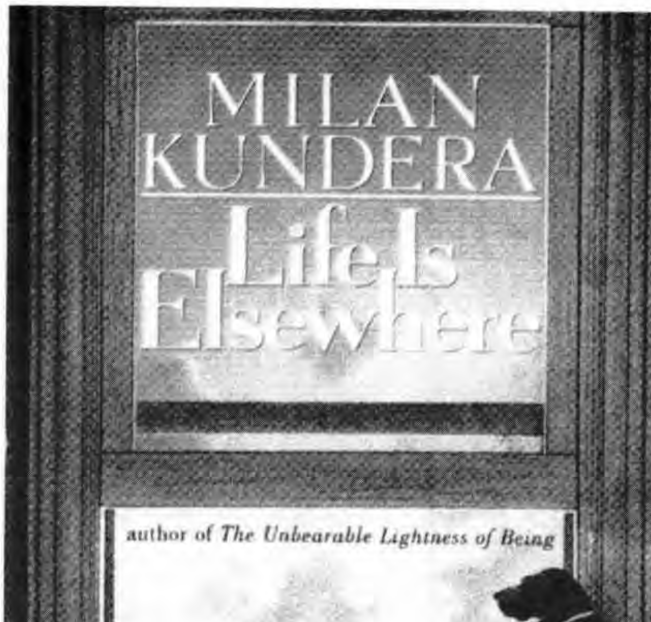
ثورة أوروبية؟! تلك الانتفاضة المحدودة والمستوردة فوق ذاك من موسكو؟

مهما كان مدى زيف وعدم أصالة تلك الانتفاضة، إلا أنها تجربة وخبرة ثورة،مع كل خطبها الجوفاء/أوهامها/استهاماتها/انعكاساتها/أحداثها/جرائمها. وإنني لأراها اليوم كمحاكاة ساخرة ومكثفة للتقاليد الثورية الأوروبية، وأراها/أعدّها استكمالاً وإنجازاً تشوبه الغرابة لحقب الثورات الأوروبية، ومثلما هو بطل ذلك الكتاب (الرواية) جارمويل امتداد وتتمة لفيكتور هوجو ورامبو: إنجاز غريب للشعر الأوروبي.

وفي رواية «المزحة» يكمل ياروسلاف التاريخ العتيق للفن الشعبي في وقت تلاشيه، والدكتور هافل في «غراميات مرحة» دون جوان - زير نساء - في وقت لم تعد فيه الدونجوانية ممكنة، كذلك فرانز في «خفة الكائن اللاّمحتملة» يمثل الصدى الحزين الأخير للمسيرة الأوروبية الجيدة لليسار الأوروبي، وتيريزا في قريتها المجهولة في بوهيميا لا تنسحب فقط من الحياة العامة في بلادها، بل من الدروب التي يتقدم الإنسان حين يسلكها، ويمضي فيها قُدُماً بوصفه مالك الطبيعة وسيّدها المسيطر. كلُّ هذه الشخصيات لا تنجز/تحقق تاريخها الشخصي فحسب، بل تنجز كذلك التاريخ الشخصي للتجربة الأوروبية.

مما يعني أن أحداث رواياتك تقع في آخر فصول الحقبة التي نسميها فترة التناقضات الحديّة القصوى؟

لك أن تقول هذا إن شئت، ولكن دعني أصحح أو أزيل أي سوء فهم (ممكن). عندما كتبتُ قصة هافل في «غراميات مرحة» لم تكن لديّ النيّة لوصف الدونجوانية في زمن كان يشهد انتهاءها، كنتُ أكتب قصة وجدتها مرحة ومضحكة،



ذلك كل شيء.. وكل الملاحظات التي أثيرت عن التناقضات الحدية الأبدية.. إلخ، لم تسبق الرواية، بل انبثقت منها، فعندما كنتُ أكتب «خفة الكائن اللامحتملة، بوحي من الشخصيات التي ابتدعتها، وهم جميعاً منسحبون من الحياة بشكل أو بآخر - عندئذ خطر لي مصير

عبارة صاغها ديكارت عن: الإنسان مالك الطبيعة وسيدها، إذ بعد تحقيقه معجزات في العلم والتكنولوجيا بدأ سيد الطبيعة هذا ومالكها يُدرك أنه لا يملك شيئاً، وأنه لا يتسيّد شيئاً أو طبيعة، (وهي قد بدأت في التلاشي شيئاً فشيئاً من هذا الكوكب)، كما اكتشف أنه لا سلطان له على التاريخ (الذي فرّ منه وأفلت من قبضته)، ولا على نفسه (إذ تُسيّره القوى غير العقلانية المنبثقة من روحه)، ولكن إن كانت القوى الكلية قد انتهت، ولم يعد الإنسان مسيطراً، فما الذي يُسيِّر الأمور؟ إن الكوكب (الأرضي) يمرُّ عبر الفضاء..، وثمّة تكمن خفة الوجود التي لا تُحتمل.

أليس في وصف اللحظة الحاضرة بالنهاية سرابٌ من الأنانية المتمحورة حول الذات؟ وكم مرة من قبلُ اعتقدت أوروبا أنها تعيش النهاية الكارثية التي تراها الآن لحظة خاصة في زمننا هذا؟

بين كل التناقضات الحدّية (القصوى) ثمة واحدة عن النهاية نفسها، وعندما تُعلن ظاهرة ما نهايتها الوشيكة مقدماً، فإن كثيرين سيسمعون الخبر، وربما يأسفون له، ولكن حين تقترب نهاية الفجيعة نجد أننا قد بدأنا نحدّق في مكان آخر. يغدو الموت خفياً غير محسوس. لقد مرَّ زمن على اختفاء النهر والقُبّرة وممرات الحقول من ذهن الإنسان، لا أحد يحتاج إليها الآن، وحين تختفي الطبيعة في الغد من الكوكب (الأرضي) فمن سيلحظ؟

أين خلفاء أوكتافيوباث أو رينيه شار؟ أين الشعراء العظام الآن، هل تلاشت أم



كونديرا يحدد الحرب الأولى ...

أصبحت أصواتهم غير مسموعة؟ على أية حال هو تغيُّر هائل في أوربا التي لم يكن من الممكن تخيُّلها بلا شعراء، ولكن إن كان الإنسان قد فقد حاجته إلى الشعر فهل سيلاحظ اختفاءها، إن النهاية ليست انفجاراً كارثياً، وقد لا يكون هناك ما هو أهدأ من النهاية.

نسلّم بذلك جدلاً، ولكن حين يكون شيء ما ينتهي فلنا أن نخمن أن آخر في طور البداية؟

بالتأكيد.

لكن ما هو هذا الشيء الذي مازال في طَوْر بداية التشكل؟ إن ذلك غير واضح في رواياتك ومن هنا يجيء الشك، أليست رؤيتك قاصرة ولا ترى إلا نصف حقيقة موقفنا التاريخي؟!

هذا احتمال وارد، وليس على جانب من الخطورة، فالواقع أنه من المهم فهم ما هية الرواية. إن المؤرخ يروي لك أحداثاً وقعتْ، في المقابل، فإن جريمة سكولينكوف لم تحدث قط. أي إن الرواية لا تفرض الواقع ولا تبحثه، بل تفحص الوجود، والوجود ليس ما وقع بل أفق الاحتمالات الإنسانية، كلّ ما يمكن للإنسان أن يكونه، وكل ما يقدر على فعله.

وكتّاب الرواية يرسمون خارطة الوجود باكتشافهم هذا الإمكان الإنساني أو ذاك، ولكن مرة أخرى، فإن معنى أن توجد هو أن تكون في العالم، ومن ثمّ فلابد من فهم الشخصية والعالم كاحتمالات ممكنة، وذلك كله واضحٌ تماماً لدى كافكا، إن العالم الكافكوي لا يشبه أي واقع معروف.. إنه احتمال قصيّ لا يتحقق في العالم الإنساني، وإنه لصحيح أن هذا الاحتمال الممكنة يتراءى كأشباح خلف عالمنا الحقيقي، ويبدو كأنه تمنحنا تخييلا مسبقًا لمستقبلنا. لهذا يتحدث الناس عن بُعد التنبؤ في أعماله ولكن حتى إن فقدت أعماله هذه الميزة (التنبؤ بالقادم)، فلن تفقد قيمتها لأنها وعت/قبضت على أحد احتمالات الوجود (احتمال للإنسان وعالمه)، وجعلتنا نرى ما نحن وما نستطيع أن نفعل.

لكن رواياتك أنت تجري في عالم حقيقي حتى النخاع؟

- تذكر ثلاثية هيرمان بروخ «المشّائين في المنام» التي تحوي ثلاثين عامًا من التاريخ الأوروبي، ووفقًا لبروخ فلقد كانت



تلك الحقبة التاريخية هي مرحلة تحلُّل دائم للقيم، والشخصيات سجينة لهذه العملية، كأنما هي في قفص ولابدّ أن تجد طريقة للعيش توائم التلاشي المطّرد للقيم العامة، وقد كان بروخ مقتنعًا بصواب حكمه التاريخي، أي إنه كان مقتنعًا أن العالم الذي وصفه كان احتمالاً تحقق وصار واقعًا. ولكن دعنا نتخيل أنه كان مخطئًا، ولنفترض أنه بموازاة تحلل القيم كانت تجرى عملية أخرى: تطورٌ إيجابي عجز بروخ عن رؤيته، فهل كان ذلك سيقلل من قيمة «المشّائين في المنام»؟ كلا، لأن عملية تحلُّل القيم واهترائها إمكانية لاجدال فيها في العالم الإنساني، لأن كل ما يهم في هذه الحالة هو فهم الإنسان المنهمك في تلك الدوامة، وفهم إيماءاته ومواقفه.. لقد اكتشف بروخ مناطق لم تكن معروفة في الوجود قبلاً. ومعنى منطقة من مناطق الوجود هو إمكان الوجود، أما كون تلك الاحتمالية ستصبح واقعًا فهو أمرٌ ثانوي.

وإذًا، فإن فترة التناقضات الحدّية (القصوى) التي تجرى فيها أحداث رواياتك ينبغي أن نعدها إمكانًا لا واقعًا؟

- نعم، هي إمكانية لأوروبا، رؤية محتملة لأوروبا، وموقف محتمل للإنسان.

ولكن، إن كنت تحاول اصطياد احتمال غيرواقعي، فلماذا نأخذ الصورة التي تقدمها لبراغ مثلاً بجدية؟ ولماذا نتعامل مع وقائعها بالجدية نفسها مادامت مجرد احتمالات؟

إنْ عدَّ الكاتب موقفًا تاريخيًا ما احتمالاً بكرًا وكاشفًا للعالم الإنساني، فإنه سيرغب في وصفه كما هو، ويبقى الإخلاص للواقعة التاريخية، والدقة حيالها مسألة ثانوية في قيمة الرواية.

إن الروائي ليس مؤرخًا ولا متنبئًا، إنه شخص يرتاد الوجود ليسبر أغواره.

أستطيع أن أفهم (دون كيخوتة) دون معرفة تاريخ إسبانيا.. لكن في ضوء التاريخ الأوروبي

يسألونك عن قانون مورفي

سعد بساطة

الحياة مملوءة بالمضايقات الصغيرة والكبيرة مما يدفع الإنسان إلى الشعور بأن الكون والحياة والمجتمع تقف جميعها صفًا واحدًا ضده.. إن مضايقات الحياة في الحقيقة، ليست عشوائية كما تبدو لنا في الظاهر، بل إنها ذات جذور علمية تعرف في المراجع الحديثة باسم «قانون مورفي»، وعنها سيجري الحديث التالي:

عندما تكون متأخرًا عن العمل، وعند البحث باهتياج في جارور الجوارب، للعثور على زوج متماثل، فإن البحث يطول من دون قدرة على إيجاد زوج متماثل في ظل الفوضى المختلطة.

وفي المطبخ، تسقط شريحة الخبز المحمص من الطبق، وتستقر على البلاط، ولسوء الحظ فالوجه المغطى بالزبدة يكون في الأسفل.. وبعد جهد جهيد تغادر المنزل متجها إلى عملك، تصل إلى محطة القطار، وتنضم إلى صف الانتظار المتوقف لشراء بطاقة القطار.. وبينما أنت واقف تراقب طوابير البطاقات تفاجأ بأن الخطوط الأخرى على طرفيك تتقدم بسرعة، بينما يبقى الصف الذي أنت فيه يراوح مكانه لسبب أو لآخر.

هل تحدث جميع هذه المصائب بالمصادفة؟.. هل تعبر هذه الحوادث الاحتمالية عن حظك السيئ؟ أم إن هناك شيئًا ما، سببًا ما يدفع الكون كي يسلك هذا الطريق دون غيره؟ والغريب في الأمر أن هناك إشارات قوية يمكن الوصول إليها فيما يتعلق بالتفسير الأخير، وهناك دلائل على أن الكون يسير ضدك!!!

والجدير بالذكر أن الفكرة كانت على مدى سنوات عدة جزءًا من الحكمة الرائجة حتى إنها حملت اسم: «قانون مورفي». وهذا القانون يفسر كما يلي: «إذا كان هناك شيء ما يمكن أن يعمل بالشكل الخاطئ، فهو حاصل لا محالة»، ومع أن الأشخاص غير العلميين لم يشكوا قط بفعالية هذا القانون، إلا أن العلماء يرفضون الفكرة، بدعوى أنها ليست سوى نتاج ذاكرتنا الانتقائية من أجل المرات التي لا تسير بها الأمور على ما يرام.

في هذه الحالة، يبدو العلماء وكأنهم يطردون حكمة رائجة بشكل متسرع؛ وبغية تحري الوضع الراهن تفحص روبرت ماثيوس، وهو باحث في علوم الحاسوب (الكمبيوتر) في جامعة أستون في برمنغهام الإنجليزية، وهو المراسل العلمي لجريدة سنداي تلغراف في لندن، تفحص قانون مورفي باستعمال مجال واسع من الرياضيات والعلوم، من نظرية الاحتمالات إلى حركية الجسم الصلب، وتوصل إلى نتيجة غير مريحة تنص على أن التجليات الأكثر شهرة لقانون «مورفي» ذات جذور في الواقع، علما أن الباحث المذكور نشر نتائج أعماله في مجلة ساينتيفيك أمريكان الأمريكية في عدد نيسان (أبريل) ١٩٩٧م. وعن هذه المجلة اقتبسنا المقالة الحالية.

إن عمر النسخة المألوفة لقانون «مورفي» لا يتجاوز خمسين سنة، ولكن الفكرة الجوهرية خلفها كانت موجودة قرونًا من الزمن. ففي عام

للنسخة الحديثة من قانون مورفي جذور في دراسات السلاح الجوي الأمريكي أجريت في عام ١٩٤٩م

١٧٨٦م لاحظ الشاعر الإسكوتلندي روبيرت بيرنز أن: «أفضل المشاريع عن الرجال والفئران، معرضة أن تنفذ بشكل غير صحيح». وفي عام ١٨٨٤م وصف الشاعر الساخر من العصر الفيكتوري جيمس باين ما يعدّ - ربما - أشهر مثال عن «قانون مورفي»:

لم أحظ بقطعة خبز محمص
بالطول والعرض نفسه
إلا ووقعت على البلاط الوسخ
ودوما على الطرف المدهون بالزبدة

إن للنسخة الحديثة من قانون «مورفي» جذوراً في دراسات سلاح الجو الأمريكي التي أجرتها القيادة في عام ١٩٤٩م على تأثير إنقاص السرعة المفاجئ في الطيارين.

ربط المتطوعون على زلاجة sledge ذات دفع صاروخي، وتمت مراقبة حالتهم عند إيقاف الزلاجة بشكل مفاجئ. وقد استعملت من أجل المراقبة ألكترودات ربطت إلى المقود صممها النقيب إدوارد. أ. مورفي.

استمرت التجربة يوماً كاملاً، وتمت في ظروف مثالية، وخيل للجميع أن التجربة تمت من دون أخطاء، إلا أن وسائل المراقبة أخفقت في تسجيل أية بيانات مما حيّر المسؤولين عن التجربة. بعدها تبين لمورفي أن الآلكترودين كانا موصلين بشكل خاطئ، مما حرضه على القول: «إذ كانت هناك طريقتان لأداء عمل ما، إحداهما تؤدي إلى كارثة، فإن أحدهم سيؤدي العمل بالطريقة الكارثية حتماً».

وفي مؤتمر صحفي لاحق، كانت مشاهدات «مورفي» المبطنة بالحسرة، قد قدمت إلى مهندسي المشروع كافتراض عملي ممتاز، وذلك في هندسة حد الأمان الحرج، ولكن قبل مضي زمن طويل من كدر مورفي، فقد تم تحويل مبدئه إلى تصريح قبيح عن لعنة الأحداث اليومية مما زاد في تكدر مورفي وانزعاجه. والمؤسف في الأمر أن مورفي فقد السيطرة على كلماته؛ لذا فقد أصبح أول ضحية للقانون الذي رمز له باسمه.

يقول روبرت ماثيوس: في عام ١٩٩٤م أثارني موضوع قانون «مورفي»؛ وذلك



قد يتضمن اليوم حوادث سيئة غير متوقعة كأن تصطحب الواقية من المطر إذ تكتشف فيما بعد أن اصطحاب المظلة لم يكن ضروريا

بعد أن قرأت رسالة في مجلة تصف ما الذي يحصل عندما ينزلق كتاب ذو غلاف كرتوني من على المنضدة، حيث افترض المؤلف أن الكتاب إن كان موضوعًا، وغلافه الأمامي متجها نحو الأعلى يجب أن يقع غالبًا ووجهه إلى الأسفل. والسؤال هو: هل لهذه الحالة أية علاقة بقطعة الخبز المحمص الممسوحة بالزبدة؟

«لعل رد فعلي الأولي كان مطابقًا لرد فعل غالبية العلماء، إذ فكرتُ أن احتمال وقوع الكتاب وغلافه الأمامي نحو الأعلى يكافئ احتمال وقوعه ووجهه السفلي إلى الأعلى، وأن القارئ لم يكرر التجربة عددًا كافيًا من المرات؛ لأن قوانين الاحتمالات لا تصبح علمية إلا مع العدد الكبير للحوادث العشوائية. ولهذا السبب قمت بالتجربة. عندما أصبح من الواضح أن سلوك الكتاب «البهلواني» كان بعيدًا عن الطبيعة العشوائية. إن وضعيته الأخيرة قد أملاها بوضوح معدل اللف الذاتي للكتاب، والذي كان أقل من اللازم، وبشكل نمطي كي يسمح للكتاب أن يظهر غلافه مرة أخرى عندما يصطدم بالأرض. إن العزم المتحرض بواسطة الجاذبية عندما ينقلب الكتاب ـ أو قطعة الخبز المحمص ـ فوق حد الطاولة، لن يقود بكل بساطة إلى معدل عال وكاف للف الذاتي للكتاب أو قطعة الخبز».

«إن القياسات المباشرة والحسابات الديناميكية تعدّ الكتاب (أو قطعة الخبز المحمص) بشكل تقريبي كصفيحة رقيقة صلبة وخشنة، مما يثبت أن الحركة ليس لها علاقة بالتأثيرات الحركية الهوائية أو الجوية (الإيروديناميكية)، والتي تعدّ في حالتنا مهملة. من ناحية أخرى فإن وجود طبقة رقيقة من الزبدة، أيضًا، لا علاقة له، فوقوع قطعة (التوست) ووجهها المطلي بالزبدة إلى الأسفل هو، مبدئيًا، نتيجة الجاذبية واحتكاك السطح».

«علمتُ كذلك مؤخرًا أن آخرين قد نشروا تحليلاً مماثلاً لظاهرة قطعة الخبز المحمص المتحركة قبل ذلك بسنوات، وكان هذا عندما بدأت أنقب عميقًا عن الأسباب بحيث اكتشفت شيئًا مدهشًا فعلاً: هناك صلة وصل قوية بين حركة (ديناميكية) قطعة الخبز المحمص المتحركة وثوابت الطبيعة الأساسية».

من الواضح أن قطعة الخبز المحمص ستقع وسطحها المغطى بالزبدة إلى الأعلى إذا وقعت من على سطح طاولة أعلى بشكل كاف. ولكن لماذا يكون ارتفاع الطاولات على ما هو عليه حاليًا؟ لأنها يجب أن تكون ملائمة للبشر. ولماذا يكون طول الناس بالقدر الذي هم عليه؟

قبل سنوات أشار«ويليام. هـ ـ بريس» أستاذ الفيزياء الجوية بجامعة هارفارد إلى أن الكائنات ذات القدمين، وبشكل جوهري الحيوانات المنتصبة، التي تتحرك على قدمين، أي نحن البشر، غير ثابتة نسبيًا تجاه السقوط. فلو أننا كنا أطول بشكل كاف، لكنا معرضين إلى مخاطر جسيمة تصيب رأسنا في كل مرة نقع فيها. وعليه فإن احتمالات الضرر التي قد تصيبنا تعني أن هناك حدودًا لارتفاع الإنسان تحددها القوى النسبية للروابط الكيماوية المكوّنة لجمجمتنا ترتبط بقوة الجاذبية التي تجرّنا».

ثوابت كونية

إن شدة هاتين القوتين بدورها تمليها ثوابت أساسية متعددة مثل شحنة الإلكترون التي حددها الانفجار الكوني الكبير BIG BANG والذي حصل قبل ١٥ مليار سنة مضت.

وباستعمال مناقشة مماثلة لما فعله «بريس»، وجدتُ أن قيم بعض هذه الثوابت تتطلب أن يكون طول الإنسان الأعظمي هو نحو ثلاثة أمتار، وهذا الطول أقل بمرتين من اللازم كي نتجنب سقوط قطعة الخبز المحمص ووجهها المطلي بالزبدة نحو الأسفل. ويبدو أن هذه القطعة تميل إلى السقوط بهذا الشكل؛ لأن الكون مصمم بتلك الطريقة.

إن نشر هذه النتيجة في المجلة الأوروبية للفيزياء في عام ١٩٩٥م قد ولد مقدارًا مدهشًا من الإعجاب الشعبي. وسرعان ما وجدتُ نفسي مطالبًا بتوضيح أمثلة أخرى متعلقة بقانون «مورفي»: لماذا يكون الطقس دومًا أسوأ خلال عطلة نهاية الأسبوع منه خلال أيام الأسبوع العادية. أو لنقل لماذا تتعطل سياراتنا عندما نكون في طريقنا إلى اجتماع مهم؟ والمشكلة مع كثير من مثل هذه الأمثلة أنها إما ليست صحيحة، أو أنها بكاملها أخبار للتندر، ومن ثم فهي لا تدخل في صلب التحليل الحالي. بالنسبة إلى بعض الأشخاص، فإن التفسير العلمي النموذجي لحادثة

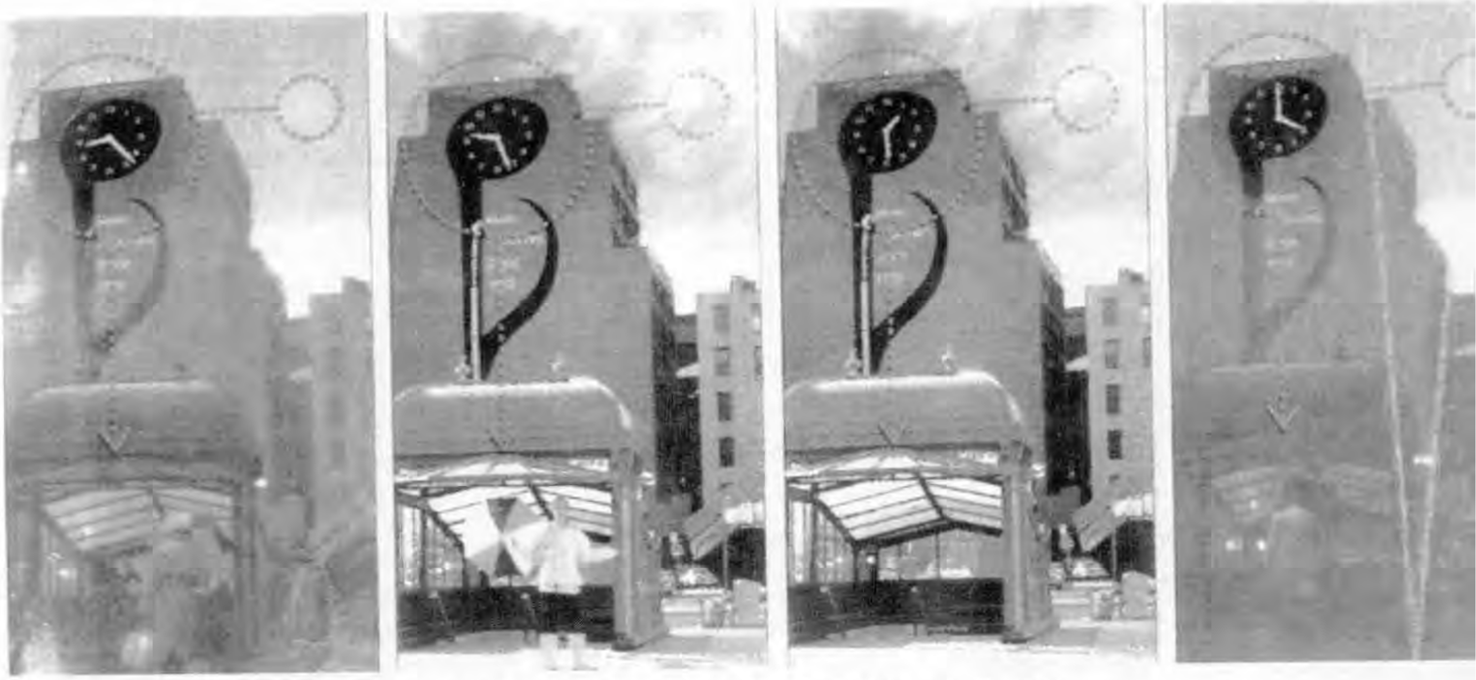


إذا كان هناك شيء ما يمكن أن يعمل بالشكل الخاطئ، فهو حاصل لا محالة

مؤسفة ما، مثل تعطل السيارة، قد يُردّ إلى «الذاكرة الانتقائية»، والتفسير يبدو معقولاً، ومع ذلك، فقد وجدت بعض الظواهر الموضحة لقانون مورفي تذعن بسهولة للتحليل. ومرة أخرى، نقول إن النتائج تميل إلى دعم الاعتقاد السائد بصحة القانون المذكور.

ضائع على الدرب

إحدى تجليات مبدأ «مورفي»، التي يمكن توضيحها بسهولة هي قانون مورفي في الخرائط (المصورات)، وهذا يمكن التعبير عنه كما يلي:



الجوارب المفردة يحتمل أن تتراكم كنتيجة لضياع الجوارب المتكرر كما يبين التحليل الرياضي

«إذا كان المكان الذي تبحث عنه واقعاً في جزء الخريطة غير المناسب للبحث، فمن المتوقع أن يكون هناك». وعلى ما يبدو فإن السبب يتضمن دمجاً لطيفاً للاحتمالات مع الوهم البصري. افترض أن الخريطة مربعة الشكل، و«منطقة مورفي» مكونة من أجزاء المصوَّر القريبة من أطرافه، وأسفل خطها المركزي المتوسط، حيث يكون اتباع الطرق إلى وجهتها سيكون الأصعب إجمالاً. والهندسة البسيطة ترينا أنه إذا كان عرض «منطقة مورفي» فقط عُشر العرض الكلي للخريطة، فإنها مع ذلك ستشغل أكثر من نصف مساحة الخريطة. ولهذا السبب فإن نقطة ما نختارها عشوائياً على خريطة تتمتع باحتمال قدره ٥٠ مقابل ٥٠ أن تقع ضمن «منطقة مورفي». وهذه النتيجة الغريبة هي جذور الحقيقة التي تنص على أنه على الرغم من أن منطقة مورفي تبدو ضيقة، ولكن حدودها الخارجية تقود إلى الأبعاد الأكبر في المصور، وبذا فالمساحة الكلية لهذه المنطقة ضخمة بشكل مضلّل.

مثال آخر على قانون مورفي هو قوانين مورفي للطوابير، وهذا المثال يسهل شرحه: «الطابور القريب منك سينتهي أولاً، طبعاً إذا وقفت في طابور خلف عائلة مكوّنة من ١٢ فرداً يتسوقون للشتاء، فلن تُصاب بالدهشة إذا انتهت كل الطوابير قبلك. ولكن ماذا يحدث لو كان الصف الذي تقف فيه مماثلاً بطوله وتكوينه لكل الطوابير الأخرى؟ ومع أن كل التصورات توحي بالتأكيد أنك ستكون في مأمن من قانون مورفي، إلا أنه يؤسفنا أن نقول: إن الجواب هو بالنفي. حسب مبادئ نظرية الاحتمالات، فإن كل الطوابير - كمعدل وسطي - ستسير بالسرعة ذاتها بفرق بسيط بالزيادة أو النقصان، وكل طابور يعاني بشكل متساو من نوع من التأخيرات العشوائية التي تحصل عندما لا يكون لدى موظفة المحاسبة شريط بديل لآلة جمع النقود مثلا، أو عندما يرغب أحد الزبائن باستعمال شيك شخصي مسحوب على مصرف مغمور لدفع قيمة علبة من العلكة. ولكن خلال أية رحلة إلى المجمع الاستهلاكي التسوقي، لا تهمنا المعدلات، نحن نرغب فقط من طابورنا أن ينتهي أولاً، وفي هذه الحالة فاحتمال أن نكون قد اخترنا الطابور الذي سيشهد أقل إزعاج بسبب التأخيرات العشوائية هو N/١حيث N: الرقم الكلي لعدد الطوابير في ذلك المجمّع. وحتى لو كنا مهتمين فقط بالتغلّب على

الطابورين الموجودين على طرفي طابورنا، فاحتمال أننا سنتمكن من إنجاز هذا الهدف هي واحد من ثلاثة. وبكلمات أخرى، في ثلثي الوقت، فإن الطابور الذي على يميننا أو على يسارنا سيتفوق على طابورنا.

إن نظرية الاحتمالات ونظرية المجموعات، والدراسات الرياضية للتراتيب، تشكل المفتاح إلى مثال آخر ذي سمعة رديئة عن قانون مورفي:

«إن أمكن تكوين جوارب بفردات أحادية، فإن ذلك حاصل لا محالة، إن أيًا منا يبحث ويفتش عبر الجارور عن جوربين متماثلين، سيفاجأ بأن جميع الجوارب الموجودة هي مفردة. والفولكلور الشعبي أنحى بالملامة على الكل ابتداء من المحافظ إلى الثقوب السود. إلا أن هناك إمكانية لسبر أغوار هذا الغموض المتعلق بموضوع الجوارب المفردة من دون التفكير لا عن مآل هذه الجوارب ولا مصيرها.

كي ترى كيف، تخيل أن لديك جاروراً يحتوي فقط أزواجاً كاملة من الجوارب. والآن لنفرض أن أحدها قد ضاع، من دون أن نهتم أين ضاع أو كيف؟ وعلى الفور سيكون لديك جورب مفرد متروك وحده في الجارور. بعدها تضيع فردة زوج جوارب ثان، وقد تكون تلك إما الفردة الوحيدة التي تكونت على الفور أو - على الأرجح - ستكون فردة من زوج آخر كامل، وعليه تتكون فردة أخرى وحدها في الجارور. وبهذا الشكل نستطيع فوراً ملاحظة النزعة الطبيعية الممكن تأييدها بالتحليل المجموعاتي.

إن ضياع الجورب عشوائياً يميل دوماً إلى تكوين العدد الممكن الأعظمي من الجوارب المفردة، أكثر من أن يتركنا متحررين من الأشياء المفردة. وعلى سبيل المثال لنفترض أننا انطلقنا من عشرة أزواج كاملة، فما إن يصبح نصف جواربنا ضائعاً، فإن احتمال أن يصبح الجارور مملوءاً بالجوارب المفردة هو أربعة أمثال احتمال أن يكون الجارور ممتلئاً بأزواج كاملة فقط. والنتيجة الأكثر احتمالاً هي وجود زوجين كاملين ضائعين بين ستة جوارب مفردة. وعندها يجب ألاّ نتعجب أن الأزواج المتماثلة يمكن أن تكون صعبة المنال صباحاً.

إن نظرية الاحتمالات تلقي أيضاً الضوء على «قانون مورفي» المتعلق بالمظلات: «إن حمل مظلة عندما تتنبأ النشرات الجوية الصادرة عن مركز الأرصاد بهطول المطر، يجعل المطر أقل احتمالاً للسقوط». وحيث إن خبراء المناخ يدّعون أن معدل دقة التنبؤ بهطول

مورفي كان الضحية الأولى للقانون الذي رمز له باسمه

المطر تزيد على ٨٠٪ فمن الواضح أن حمل مظلة بناءً على نصيحتهم ستكون صحيحة أربع مرات من كل خمس مرات. إلا أن هذا المنطق، على أي حال، لا يأخذ بالحسبان ما يُدعى «بالمعدل الأساسي للمطر».

إذا كان المطر غير متكرر على الإطلاق، فإن أغلب التنبؤات الصحيحة والتي نتجت في تلك النسبة المؤثرة ذات الـ ٨٠٪ من الدقة كانت تنبأت بعدم هطول المطر.

لا تأخذ المظلة:

وعليه، عندما تتساءل بينك وبين نفسك: هل آخذ المظلة؟ فعليك أن تأخذ بالحسبان احتمال هطول المطر خلال الساعة أو الساعة والنصف التي تشكل فترة تريّضك، وهذا الاحتمال يكون عادة منخفضاً في كثير من أقطار العالم. وعلى سبيل المثال لنفترض أن المعدّل الأساسي الساعي للمطر هو ٠,١، مما يعني أن احتمال عدم هطول المطر خلال ساعة التريض هو أكبر بـ ١٠ مرات من احتمال هطول المطر.

من نظرية الاحتمالات نعلم، أنه إن كان التنبؤ بهطول المطر دقيقاً ويبلغ ٨٠٪ فإن احتمال الحصول على تنبؤ دقيق يبرهن مرتين كاحتمال على أنه خطأ كصحح خلال مسيرك.

وسينتهي بك الأمر إلى حمل المظلة من دون لزوم. وفي الواقع، فحتى مع التقدم الحاصل في التنبؤ الجوي إلا أن عمليات التنبؤ ما تزال غير جيدة بما فيه الكفاية، وعليه فهي ما تزال غير موثوقة، مما يؤكد مقولة: «كذب المنجمون ولو صدقوا».

لعل النقيب مورفي يتذمر مما كان من وجهة نظره الابتذال لمبدئه القيم للهندسة المسؤولة عن الأمان الحرج. ومع ذلك، فقد حقق القانون درجة لا يستهان بها من الشعبية والانتشار.

إن كثيراً من تجليات قانون مورفي ذو أساس مقبول مما يعطي الانطباع بضرورة أن يهتم العلماء أكثر بتوضيح الأبعاد العلمية لهذا القانون، وألاّ يتسرعوا بإطلاق التصريحات المتشائمة التي توحي إلى الناس بأن القانون وهم صرف.

ومع الكثير من التفسيرات المعتمدة على أنظمة تراوح بين ديناميك الجسم الصلب، ونظرية الاحتمالات، فإن تحليل التجليات العديدة لقانون مورفي، يمكن أن يساعد أيضاً بتحريض الطلاب على دراسة ما يعد مواد جافة.

ولكن ربما كان الدرس الأكثر أهمية خلف قانون مورفي هو عرضه الرقيق القلب لما يبدو ظاهرياً ظواهر مبتذلة، إلا أن تفسيراتها ليست عديمة الأهمية دوماً.

الاحترار والتغير العالميان

عمر عبدالرزاق أبو عون

ظل العلماء فترة طويلة مدركين أن تلوث الهواء يؤثر في المناخ المحلي، فالدخان المتصاعد من المصانع يزيد، وبشكل علمي، كميات الأمطار الهاطلة على المناطق المواجهة للرياح. وبسبب توافر الأدلة والبراهين القاطعة في السنوات الأخيرة، فقد ثبت تأثير تلوث الهواء في المناخ العالمي. ولكي نفهم سبب ذلك، علينا أولاً أن نفهم كيفية التوازن الطاقي العالمي، وأسس مناخ كوكبنا الأرضي.

التوازن الطاقي العالمي

في كل يوم تستحم الأرض بأشعة الشمس، إلا أن ثلث الأشعة التي ترتطم بالأرض وغلافها الجوي يرتد منعكسًا إلى الفضاء. وتُمتص البقية من الهواء والماء والأرض والنبات. وتتحول هذه الأشعة الممتصة إلى حرارة أو إلى الأشعة تحت الحمراء، التي تعود ببطء إلى الغلاف الجوي. ويمكننا القول أخيراً: إن كل الحرارة تنفذ من الغلاف الجوي للأرض، وتعود إلى الفضاء؛ وكنتيجة لذلك، فإن الطاقة الداخلة تتوازن مع الطاقة الخارجة.

واكتشف العلماء أن هذا التوازن الدقيق قابل للتغير بسبب بعض ملوثات الهواء، ومن أبرزها: غاز ثاني أكسيد الكربون CO2، وأكاسيد الآزوت N2O، والميثان CH4، والكلوروفلورو كربونات CFCS، والسؤال الآن: كيف يمكن لهذه الغازات أن تؤثر في التوازن الطاقي للأرض؟

يعدّ ثاني أكسيد الكربون الغاز الذي يسمح لأشعة الشمس بالمرور من الغلاف الجوي وتسخين الأرض ماصًا الأشعة تحت الحمراء المرتدة عن سطح الأرض، ومانعًا لها من المرور. هذه العملية هي التي تسمح بثبات درجات حرارة الأرض، ويمكن لهذا التوازن أن يختل إذا ازدادت تركيزات

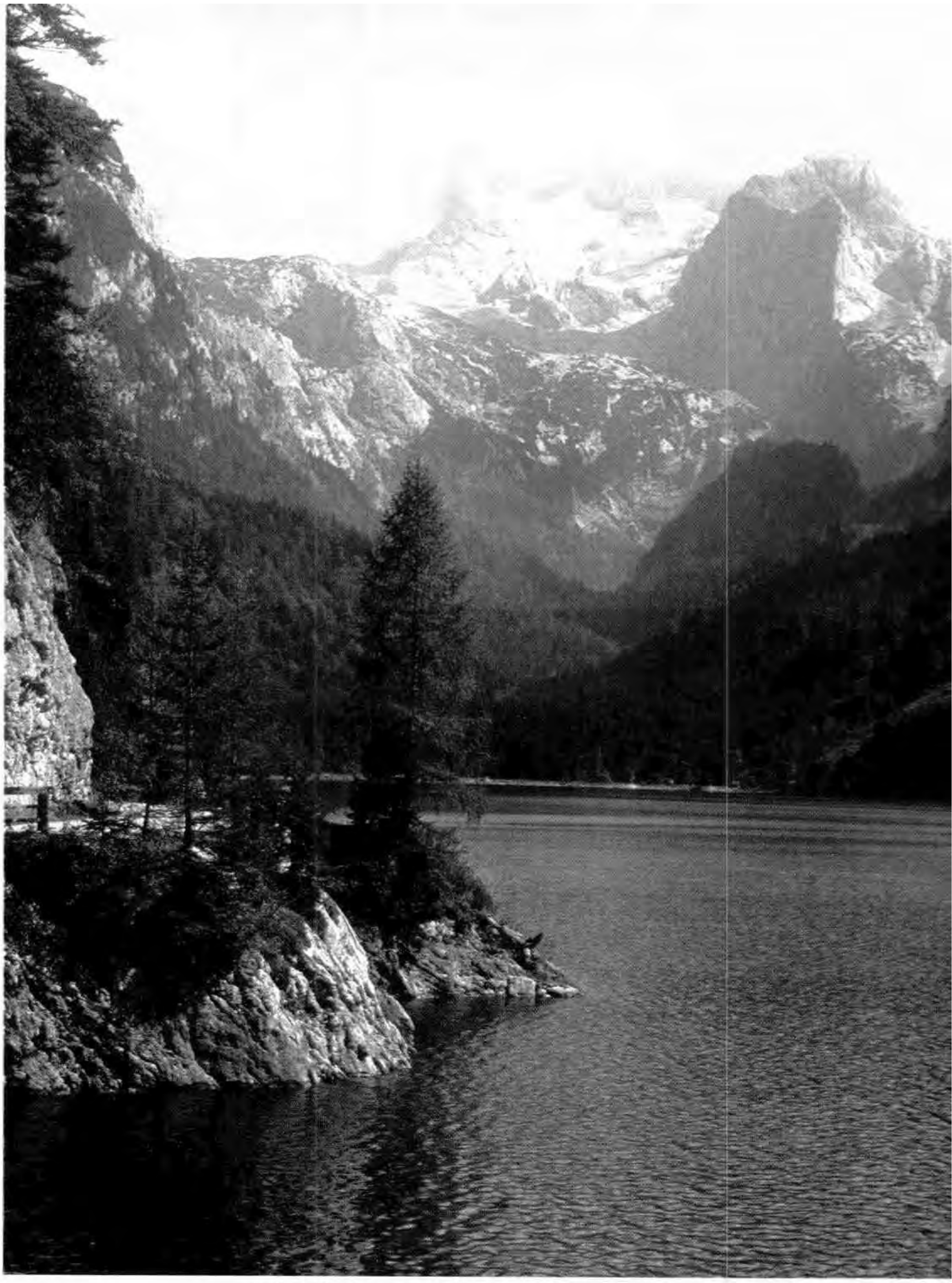


طبيعية، وهذه الغازات تأتي أيضًا بكميات كبيرة من مصادر ذات علاقة بمستخدمات الإنسان، وتعد CFCS الوحيدة من بينها التي تأتي من مصادر بشرية فقط.

وقد ازدادت نسبة إنتاج وتحرير غازات الاحتباس الحراري ذات المصادر البشرية في الأربعين سنة الماضية، وقد كان هناك تركيز كبير من العلماء والبيئيين على هذه الظاهر المسماة بظاهرة الاحتباس الحراري أو التسخين، وهذا التزايد في درجات الحرارة سببه زيادة نسب الغازات المسببة لاختلال التوازن الحراري للأرض.

إن تركيز غاز CO2 قد ازداد بين عامي ١٨٧٠ - ١٩٩١م بنسبة ٢٣٪ (من ٢٩٠ - ٣٥٥ PPM)، ويعزى هذا الأمر إلى تزايد استهلاك الوقود الأحفوري، وإزالة الغابات وحرقها، وبخاصة في المناطق المدارية.

ويمكن لنسب غاز CO2 أن تتزايد حسب اعتقاد العلماء إلى الضعف بين عامي ٢٠٣٠ - ٢٠٥٠ إذا استمرت نسبة استهلاك الوقود الأحفوري كما هي في الوقت الراهن. وللتنبؤ بتأثير هذا التزايد يقوم العلماء باستخدام نماذج من المناخ العالمي وبرامج حاسوب تتضمن معادلات رياضية في محاولة تعرّف الأشكال الممكنة وكيفية تغيرها، وباستخدام مثل هذه النماذج تتنبأ جمعية المرشحين عن بلادهم التي ترعاها الأمم المتحدة حول التغير المناخي IPCC أنه إذا استمرت غازات الدفيئة بتزايدها نفسه في الوقت الراهن، فإن درجات الحرارة على سطح الأرض ستزداد تقريباً (٥ر٠) ف في كل عشر سنوات أو (٣ - ٨) ف في القرن المقبل، ووفقاً لهذه النماذج العلمية فستتعرض أكثر أراضي الولايات المتحدة وكندا للجفاف، وإذا حدث



ارتفاع درجات الحرارة سيؤدي إلى ذوبان الجليد

ثاني أكسيد الكربون عن مستوياتها الطبيعية، ومع هذا التزايد، فإن حرارة أكثر ترتد إلى الأرض، وتسبب تسخين الغلاف الجوي.

ويسلك الزجاج في البيت الزجاجي سلوكًا مشابهًا، إذ يقلل من كمية الحرارة المنعكسة عن داخل البيت، وبناء على ذلك يدعى غاز CO2 والغازات الأخرى المماثلة له في الوظيفة نفسها بغازات البيت الزجاجي أو (غازات الاحتباس الحراري).

اختلال التوازن: ظاهرة الاحتباس الحراري

تأتي ثلاثة أرباع غازات الاحتباس الحراري من مصادر

الاحترار والتغير العالميان

هذا، فإن الكثير من ولايات الغرب الأوسط الزراعية التي تعتمد على مياه الأمطار ستعاني من انحدار إنتاجها ورداءته، وستصبح الولايات المتحدة وكندا، وهما أكبر مصدر للطعام، أكثر الدول احتياجاً إليه.

التأثيرات المناخية لغازات الدفيئة

على الرغم من أن ظاهرة الدفيئة تبدو ضربا من الخيال العلمي، إلا أنها ليست كذلك. فقد عرفها العلماء منذ أكثر من مئة سنة. وقد لاحظ علماء المناخ الأوائل أن المستويات الطبيعية لغاز CO_2 جعلت الأرض في حالة طبيعية، ولولا غاز ثاني أكسيد الكربون لكانت الأرض أبرد مما هي عليه الآن بثلاثين درجة مئوية، وربما تكون باردة بشكل يؤدي إلى فناء أشكال الحياة كافة، وغاز ثاني أكسيد الكربون، كالعديد من الأشياءالتي تحيط بعالمنا، جيد إن كان بكميات قليلة، وقد يكون مدمراً إذا أصبح بكميات كبيرة.

ويعتقد بعض العلماء أن التسخين العالمي قد بدأ مؤخراً؛ إذ لاحظوا أن أحر سبع سنوات من المئة سنة الخالية كانت بين عامي ١٩٨٠ - ١٩٩٢م.

كان عام ١٩٨٨م عاماً حاراً على وجه الخصوص، إذ أدت الحرارة والجفاف الشديدان إلى تقليص نسبة إنتاج الحبوب في الولايات المتحدة بنسبة ٣٣٪ تقريباً، فقد كان المزارعون الأمريكيون في السنوات العادية ينتجون ٣٠٠ مليون طن من الحبوب، يستهلك منها الشعب الأمريكي ٢٠٠ مليون طن، وما تبقى، وهو يعادل ١٠٠ مليون طن، يصدر أو يخزن، ولكن الجفاف القاسي في عام ١٩٨٨م قلل الإنتاج المحلي إلى ١٩٥ مليون طن، أي ما دون الاستهلاك المحلي، وقد قوبلت التزامات التصدير بمخازن فارغة، ومع نهاية العام ذاته وجدت صناديق التخزين الأمريكية فارغة أول مرة منذ عدة سنوات.

ومع أن السنوات اللاحقة كانت أشد حراً، إلا أن الانخفاض في إنتاج الحبوب لم يكن عنيفاً إلى ذلك الحد، ولو حصل تكرار لجفاف عام ١٩٨٨م، فإن الإنتاج المحلي والعالمي للغذاء يسوء، وسيصبح رديئاً، وفوق هذا كله فإن أمريكا ستذوق مرارة عواصف غبارية أشد وطأة، ربما تدوم عقوداً من الزمن.

وتدل نماذج المناخ العالمي أن التسخين العالمي سينتج طقساً عنيفاً ومناخاً غريباً، ومن الجدير بالذكر أن العواصف والفيضانات التي تشاهد في الولايات المتحدة وغيرها من مناطق العالم سيزداد عددها في السنوات المقبلة، وستمنح البحار الدافئة طاقة أكبر للغلاف الجوي مما يولد مثل هذه العواصف، والزيادة في هذه العواصف المدمرة ستؤثر بشكل جدي في الاقتصاد بسبب تخريب المحاصيل وارتفاع ثمن الغذاء، مما يعني ارتفاع نسبة التأمين.

إن التسخين العالمي سيجعل المدن غير محتملة في الصيف، وتبين النماذج المناخية العالمية أنه في عام ٢٠٣٠م سيزداد عدد الأيام التي تفوق درجة حرارتها ٣٢°س (٩٠ف) في العاصمة واشنطن إلى ٨٧ يوماً بدلاً من ٣٦ يوماً.

وسيزداد عدد الأيام من ١٧ إلى ٧٨ يومًا في دالاس، وستزداد حاجة الشواطئ إلى البرودة والحاجة إلى المياه من أجل الري، وستصبح الحياة غير مريحة للملايين من الناس.

إن المجتمعات البحرية ستكون عرضة للمعاناة أيضًا؛ إذ تتنبأ IPCC أن مستويات مياه البحار سترتفع ما بين ٣٠سم (١٢بوصة) إلى ١١٠سم (٤٤ بوصة)، وذلك بحلول العام ٢١٠٠م، وسيكون هذا الارتفاع في مستوى مياه البحار نتيجة ذوبان الجليديات في القارة القطبية الجنوبية، وستتمدد مياه البحار نتيجة درجات الحرارة المرتفعة، مما سيهدد المدن الساحلية في كل أنحاء العالم.

إن أكثر من نصف سكان العالم اليوم يعيشون في مدن ساحلية، وفي الحقيقة فإن أكبر أربعين مدينة في العالم تقع في أقاليم ساحلية، ومن بين أكثر المدن تعرضاً للخطر: ميامي، ونيواورليانز، وبانكوك، وهامبورغ، ولندن، ولينينغراد، وشنغهاي، والإسكندرية، ودكا.

ويعيش نصف سكان الولايات المتحدة ضمن خط ساحلي على المحيط يبلغ طوله ٨٣كم (٥٠ميلا)، وسيؤدي التزايد المتوسط في مياه البحار إلى غمر الأراضي الرطبة والحقول المنخفضة وكذلك المدن، وهذا الارتفاع في مستوى مياه البحار سيزيد من ضرر العواصف وسوئها، وستؤدي الأمواج الناشئة عن الأعاصير والعواصف إلى جرف الأجزاء الداخلية من البلاد، وستضر بأكثر المنازل والمدن بشكل أكبر مما هو عليه الآن، وسيضطر العديد من الناس إلى تغيير أماكن سكنهم، وستجبر المدن على بناء الحواجز والسدود لتكبح جماح البحار، أو أن تنقل إلى أراض مرتفعة لعزل الأبنية.

إن اتجاه الزحف الداخلي للبحار سيكون لاحتلال الحياة البرية والمزارع، وسيجعل الناس يتنافسون لاحتلال مساحة محدودة من الأراضي، إن الدول النامية ستعاني هي الأخرى بشكل كبير من ارتفاع مستوى البحار؛ إذ ستقوم العواصف الهائجة بحمل المياه المالحة إلى بعض الحقول المتبقية مما سيقتل المحاصيل، ويسمم التربة.

ستتعرض بنغلاديش على وجه الخصوص، وهي دولة يبلغ عدد سكانها ١١٨ مليون نسمة حسب إحصائية ١٩٩٠م، إلى ضربة قوية لوقوع أكثر أراضيها فوق مستوى سطح البحر، وحسب التقديرات، فإن ١٧٪ من مساحة بنغلاديش ستكون مغمورة بالمياه بحلول عام ٢٠٣٠م

تركيز ثاني أوكسيد الكربون يزداد عاماً بعد عام



مما سيزيد الازدحام الداخلي سوءًا.

وستواجه العديد من الأنواع النباتية والحيوانية أوقاتًا عصيبة بسبب سخونة الكوكب، وإذا ما استمرت درجات الحرارة بالتغير حسب النسبة المتوقعة فسينقرض العديد من الأنواع، وستعاني أنواع أخرى من انحدار أعدادها، وسيكون عدد محدود فقط قادراً على التلاؤم أو الهجرة إلى أماكن مناسبة. ومن الطريف أن نذكر أن أكثر الأنواع والأماكن قد تعرضت للظروف المتغيرة وقتها فترة من الزمن؛ ولهذا فإن التسخين العالمي نفسه سيكون أقل تركيزاً من النسبة التي ظهر بها.

وعلى الرغم من قدرة الأنواع على تغيير أماكنها، إلا أن الانتقال لن يكون بالسرعة المطلوبة، ومع نهاية العصر الجليدي الأخير على سبيل المثال، هاجرت الأشجار الشاطئية باتجاه الشمال، وذلك بنثر بذورها بسرعة قدرها ١٠ كيلو مترات في كل ٥٠ سنة، وهذه السرعة أبطأ بكثير من الهجرة المتطلبة على مدى ٥٠٠ كيلو متر لتفادي خطر التسخين العالمي المتوقع خلال ٥٠ سنة.

وبشكل عملي فإن كل نظام على الأرض سيتأثر بالتسخين العالمي، وأكثر هذه الأنظمة البيئية أهمية وتهديداً هي الأنظمة البيئية الساحلية، ومن أكثرها مشاهدة مستنقعات المنغروف، والمستنقعات الساحلية. إن مستقبل هذه المناطق والخدمات التي تزود بها، ومن بينها حماية الأقاليم الساحلية من التعرية والانجراف، وتزويد المنطقة بالأنواع الغذائية والتجارية المهمة غير واضح المعالم.

هذا وقد لاحظ عالمان من جامعة كاليفورنيا أن النسبة المتوقعة لازدياد مستوى مياه البحار السنوات المئة القادمة ستجعل من المؤكد هلاك أكثر أشجار المنغروف، وترى بعض الدراسات أن نمو النبات سيزداد في حال غنى العالم بغاز CO_2، وأن غاز CO_2 أساسي لنمو النبات.

إلا أن دراسات أخرى أحدث بشأن هذه القضية اقترحت أن المنافع المصرح بها لازدياد غاز CO_2 أمر مُغالى فيه، وسابق لأوانه؛ وفي الحقيقة فقد أظهرت هذه الدراسة أن ارتفاع نسبة غاز CO_2 قد ينفع نباتات محدودة، ولكنه سيضر بنباتات أخرى، من بينها قصب السكر، والذرة، والعديد من الأعشاب، بالإضافة إلى أن تزايد نسبة غاز CO_2 ستؤدي إلى تناقص نسبة غاز النتروجين في كل النباتات لأسباب مجهولة. إن التغيرات في جودة الأغذية النباتية ستؤثر في الشبكة الغذائية، وقد أظهرت الدراسات أن الحشرات تضطر، في سبيل التعويض عن القيمة الغذائية، إلى أكل كميات أكبر، إن هذه النزعة في ازدياد العدد لدى الحشرات ستكون على حساب الطيور والأنواع الحشرية الأخرى.

تستجيب الحيوانات هي الأخرى كالنباتات للتغيرات الحرارية، وذلك بالانتقال إلى أماكن جديدة، إلا أنه ليس لكل الحيوانات المقدرة على الهجرة إلى أماكن بعيدة حسب الضرورة، ويتنبأ روبرت شوب ROBERT SHOPE من جامعة ييل YALE للبحوث الطبية أن بعض الأمراض المحصورة في المناطق المدارية، ربما تجتاح مساحات أوسع بسبب تسخن الكوكب، ومثال ذلك احتمال انتقال داء الكلب بوساطة الخفافيش وامتداده باتجاه الشمال ابتداء من المكسيك، والذي سيسبب ضررا في ماشية تكساس مقداره مليار دولار سنوياً.

ويمكن الملاحظة من نماذج المناخ العالمي أن الظروف البيئية ستفسد بأسرع من المتوقع بسبب التغير في الظروف، الذي ربما يؤدي إلى أخطار على التغذية الاسترجاعية الإيجابية FEED BACK، وتحدث التغذية الاسترجاعية الإيجابية عندما يقود عامل واحد إلى زيادة عامل آخر، وتندر آليات حدوث التغذية الراجعة الإيجابية في الطبيعة، وتكون هذه الآليات في الأنظمة المتغيرة من قبل الإنسان شائعة بشكل خطير ونوضح ذلك ببعض الأمثلة:



تلعب المحيطات دور المستودع لغاز ثاني أكسيد الكربون، إذ إنها في الحقيقة تخزن منه أكثر مما يخزنه الغلاف الجوي بنسبة ٦٠٪، ولولا المحيطات لكانت نسبة غاز CO_2 في الغلاف الجوي أعلى مما هي عليه الآن بكثير.

وبما أن درجات حرارة الأرض تزداد، فإن ذلك سيؤدي إلى التغير المستمر في مقدرة المحيطات على حفظ وإذابة غاز CO_2، وبذلك ستقوم المحيطات بإطلاق كميات كبيرة من غاز CO_2 الذي كانت قد خزنته.



ارتفاع درجات الحرارة يهدد الحياة النباتية

بالإضافة إلى أن غاز CO_2 الموجود في الغلاف الجوي سيسرع منحى التسخين، وستنخفض كميته الموجودة في مياه المحيطات بشكل كبير، وستبدأ آليات حدوث التغذية الاسترجاعية الإيجابية، وربما يؤدي ذوبان الجليديات إلى تقليل قدرة سطح الأرض على عكس الأشعة الشمسية مما سيسبب زيادة كمية الأشعة المختزنة، وتوليد حرارة أكبر مما يسرّع التسخين العالمي، وستتطلب درجات الحرارة المرتفعة طاقة أكبر تستخدم في التبريد في الصيف مما سيضيف كميات أكبر من غاز CO_2 إلى الغلاف الجوي، والذي سيسرّع مرة أخرى الارتفاع في درجات الحرارة، وهكذا دواليك. ومما لوحظ موخراً أن زيادة تراكيز CO_2 في الغلاف الجوي ناتجة من إزالة الغابات خصوصاً في المناطق المدارية، والولايات المتحدة، وفي الجزء الشمالي الغربي منها الواقع على المحيط الهادي، إذ إن الأشجار تمتص غاز CO_2 لصنع الجزئيات وبناء الأنسجة، وبما أن قطع الغابات يستغرق وقتاً أقل بكثير من إعادة زراعتها، فإن إزالة الغابات ستؤدي إلى زيادة في غاز ثاني أكسيد الكربون مقدارها ربع ما هو موجود منه في الغلاف الجوي، وإلى زيادة في درجات الحرارة تعادل ١٣٪، كما يمكن للأشجار أن تموت نتيجة التغيرات المناخية، كدرجات الحرارة المرتفعة، والجفاف، والحرائق.

وهذا النقصان في عدد الأشجار سيصبح جزءاً مسرعاً لآلية التغذية الاسترجاعية الإيجابية والتي تسبب هي الأخرى زيادة في كمية غاز

CO_2 في الغلاف الجوي، وتغيراً سريعاً في درجات الحرارة العالمية.

...وهناك عدة عوامل تبطل هذه القوى، وأخرى تمنع الزيادة في درجات الحرارة أو تقللها، فالمحيطات على سبيل المثال تعمل كمصد للحرارة، وتمنعها من التزايد، بالإضافة إلى أن زيادة درجات الحرارة قد تؤدي إلى زيادة الغيوم في الجو، ومن ثم تقلل أشعة الشمس النافذة، ودرجات الحرارة العالية، وتؤدي زيادة الدقائق الترابية المعراة والجافة إلى عكس الطاقة الشمسية الآتية.

وأعلن علماء في الأمم المتحدة UN من الهيئة الاستشارية في تشرين ١٩٩١م أن هناك تناقصاً في تراكيز الأوزون في طبقة ستراتو سفير، وأظهرت دلائل حديثة أن استنزاف طبقة الأوزون في هذه المنطقة سيكون له تأثير مبرد على المناخ العالمي، وتضمنت تسجيلات لدرجات الحرارة خلال العقدين الأخيرين صحة هذا الأمر، إذ بردت طبقة الستراتوسفير بشكل خفيف خلال تلك الفترة، وبضم هذه المعلومات الجديدة عن استنزاف الأوزون فإن التنبؤ بازدياد درجات الحرارة سيقل بنسبة ٢٠٪.

ومعلومة جديدة أخرى تقترح تعديلاً في الاتجاه العاكس وقد أظهرت الدراسة التركيزات لمواد كيماوية معينة في الغلاف الجوي



إزالة الغابات من أسباب زيادة تركيز غاز ثاني أوكسيد الكربون

المعروفة باسم شوارد OH، ويمكن أن تكون أقل (أدنى) مما هو معتقد. إن هذه الجزئيات تتفاعل مع بعض غازات الدفيئة، وتزيحها من الجو، إن المستويات التي هي أدنى مما هو متوقع لجزئيات OH تدل على أن الجو لا ينقي نفسه من الملوثات المؤذية بالسرعة التي كان يعتقد بأنه يقوم بها، ومن ثم فهو بحاجة ملحة إلى مراجعة أفقية لدرجة الحرارة العالمية.

في عام ١٩٩١م نشرت دراسة ضمت ١٧ نموذجاً مناخياً في مجلة العلوم SCIENCE أظهرت أن التسخين العالمي قد يؤثر في الهطولات الثلجية، ومعدلات درجات الحرارة بأساليب غير متوقعة، ويعتقد واضعو هذه النماذج أن التسخين العالمي سيؤدي إلى انخفاض قليل في نسبة التغطية الثلجية، وهذا حسب رأيهم سيؤدي إلى زيادة في الامتصاص الحراري والتسخين العالمي، ومع ذلك فقد أظهرت أفضل خمسة نماذج مناخية عالمية أن الانخفاض في التغطية الثلجية سيبرد الغلاف الجوي وسيبطل جزءاً من تأثير ظاهرة الدفيئة، وربما يكون التأثير المبرد ناتجا من الزيادة في الغيوم أو الزيادة في الإشعاع الحراري إلى الفضاء.

وفي الخلاصة فإن كثيراً من أنماط المناخ التي يعترف بها أنها نماذج دارجة لا تقوم بعمل جيد في تحريض سلوك الغيوم، وبكل عدم التأكد هذا فإن بعض الناس يفضلون أن يلتزموا أسلوب (انتظر وراقب)، فهم غالباً ما يعارضون التدابير التي ترمي إلى قطع بث الغازات من الدفيئة. ويناقش النقاد أن أكوام الغازات عالية جداً، وأن الفوائد الاقتصادية والبيئية للتوقف عن استهلاك الوقود الأحفوري قيمة جداً، بحيث إنه يجب التحويل، على الرغم من عدم التأكد من النتائج، وباختصار، فإن كلفة قبول فرضيات الدفيئة والعمل طبقاً لذلك أقل بكثير من الكلفة المحتملة لرفضها.

الحلول الدائمة للمشكلة

ولهذه القضية، كما لقضايا أخرى، العديد من الحلول المتنوعة، وأكثرها فعالية التخلص من هذه المشكلة من جذورها؛ وذلك بالحد من إطلاق الغازات المسببة لهذه الظاهرة وهي CFCS, CH4, CO2 وأكاسيد النترات، وليس من المستغرب العلم أن أكثر هذه الطرائق قابلة للتطبيق حسب الأسس الحيوية (البيولوجية)، ونذكر من هذه الحلول:

الترميم (العودة إلى الوضع السابق)

إن تقليل نسبة غاز CO_2 في الغلاف الجوي، وإيقاف الزيادة الممكنة في درجات الحرارة العالمية يتطلبان إعادة تشجير الغابات على سطح الأرض، وقد أعلنت أستراليا مؤخراً عن إقامتها لمشروع يعمل على زرع مليار شجرة في عام ٢٠٠٠م، والهدف من هذا تغير منحى التسخين العالمي جزئياً، وهناك عدة نداءات من بعض الدول من بينها الصين على الرغم من أن الجهود أقل مما يتطلبه أي تأثير ممكن الحدوث.

ويناقش نورمان مايرز NARMAN MAYERS، وهو خبير دولي في الغابات المدارية، أن زراعة ٦ر٢ مليون كيلو متر مربع (مليون ميل



كيف تعود الطبيعة إلى سابق عهدها؟

مـربع) مـن الغـابات المطيـرة سيؤدي إلى انخـفاض أي إصدار لغـاز CO_2 بنسبـة ٤١٪ (أي مـا يعـادل ٢٫٥ مليـون طن)؛ وعلى الـرغم مـن أن هذا المشـــروع الطمـوح سـيكلف ١٠٠ مليـار دولار، إلا أن مـا يرز يعـترض ويقول: إن هذا الثمن بخس ندفعه خـصوصـًا إذا أخـذنا بالحسبـان الضـرر في المقـدرة الاقتـصـادية الذي سيسـببه التسـخين العالمي. وطبـقًـا لـ USEPA فـإن حـمـاية السواحل الشرقية من ارتفاع مياه البحـار سيكلف الولايات المتحدة ما يراوح بين ٧٥ ـ ١٠٠ مليار دولار، إذ إن التسخين العالمي سيجعل من الضروري إعادة بناء السدود الهيـدروليكية والتي تكلف ما يقدر بـ ١٠٠ مليـار دولار. إن إعـادة تشـجيـر الغـابات سـتجلب العـديد من الفوائد للدول النامية؛ وذلك بوساطة الإنتاج التغذوي والصناعي الذي تقدمـه الغـابات، والتـقليل من فـرص التـعـرية، وسـتـؤدي إلى دوام المحاصيل الغذائية من الغابات.

وبمكن للأفـراد كـذلك المسـاهمة في زراعـة أشـجـار في المناطق الجـرداء، وعلى جـوانب الطرقـات، وفي الحـقـول المـهـجـورة، وفي الساحـات الخلفيـة للمنازل. وإذا أردت حـقًا أن توقف إنتـاج غاز CO_2 من حيـاتك فعليك زراعـة نحو ٤٠٠ شـجرة، وعلى عـائلة مكونة من أربعة أفـراد زراعة ٢٫٥ هيكتـار (٦فدانات) من الأشـجـار السـريعة النمـو لمنع إنتاج غـاز CO_2 من حـيـاتـها، ومن الواضح عـدم قـدرة كل شخص على زراعـة الأشجار، ولكن الأفراد يمكن أن يشـاركوا بدعم مشاريع إعادة التشجير العامة والخاصة.

إعادة التدوير والفعالية الطاقية

يمكن للأفراد ورجـال الأعمـال من جميع أنحـاء العالم المسـاهمة في تقليل مستويات غاز CO_2 وذلك بإعادة تدويره واستخدام كل المواد على أوسـع نطاق ممكن. ويقـارن الجـدول التـالي المرافق الطاقـة المسـتخدمـة في العلب والقارورات؛ إذ يـظهر أن إعادة تدويـر الزجاج والألمونيوم تتطلب أقل طاقة، وينتج في الوقت ذاته أقل نسبة لغاز CO_2 الملوث للهواء من العلب المصنوعة من المعدن الخـام التي تستخدم مرة واحـدة فـقط، وتبـقى العلـب تنتج أقل كـمـيـة من غـاز CO_2 حـتى ولو استخدمت عشر مرات.

ويعدّ الاكتـفـاء في الطاقة وسـيلة أخـرى من وسـائل تخفـيض إطلاق غاز CO_2 وغاز الميـتان، ووفقًا للخـبيرين في الطاقـة (آموري لوفـينز) AMORY LOVINS من مـعـهـد جـبال الروكـي، و(كرسـتـوفـر فلافين) CHRISTOPHER FLAVIN من معهد المراقبة العالمية فـإنه يمكن منع ٣ ملايين طن سـنويًا من غاز CO_2 خـلال عقـدين؛ وذلك بواسطة التقنيـة الفعـالة والمربحة، ولا نحتـاج في ذلك إلى أي تقدم في التـقنية، وبإعادة التشـجير مع الطرق المدونة أعلاه فإنه يمكن لهـذه الجهود أن تحد تقريبًا من إطلاق غاز CO_2.

ويمكن للأفراد أن يقللوا من الطاقـة المتطلبة؛ وذاك بواسطة المشي، وركـوب الدراجـات، أو ركـوب الحـافلات إلى المدرسـة أو إلى العـمل، إعـادة التدوير، اسـتخـدام تطبيـقات فـعـالة أو فعل بعض الأشيـاءباليد (كالمزج باليد بدلا من اسـتخدام الخلاط الكهربائي، أو نشـر الثياب على حبـال الغسيل بدلا مـن استخـدام المجفف) أو شراء أدوات أكـثر فعـالية كثـلاجات جديدة فـعالة تضبط اسـتخدام الكهـرباء في المنازل وتقلل من طلب الكهرباء مـن ١٢٠٠ كيلو واط ساعي إلى ٧٥٠ كـيلو واط ساعي سنويًا، وتم حاليًا إصدار نماذج من الثـلاجات تقلل الاستخدام إلى ٢٤٠ كيلو واط ساعي سنويًا.

الطاقة المستهلكة لعلب سعتها ١٢ أونصة

الوعاء	الاستخدام	الطاقة المستخدمة BTUS
علبة من الألمونيوم	مرة واحدة	٧٠٥٠
علبة من الفولاذ	مرة واحدة	٣٧٣٠
إعادة تدوير علبة من الفولاذ		
زجاجة جعة	مرة واحدة	٢٢٥٠
إعادة تدوير علبة من الألمونيوم		
إعادة تدوير زجاجة جعة	عشر مرات	٢٥٣٠
زجاجة قابلة للتعبئة		٦١٠

إن كـفاءة الطـاقة يمكن أن تحـرَّض جـزئيًا بالحوافـز المسـتندة إلى السـوق، على سـبـيل المثـال: إنّ نزع الدعـم عن الزيت ـ الفـحم ـ الغـاز الطبيعي بوضع ضرائب على المحروقات (الوقود الأحفوري)، يمكن أن يحفز كثيرًا من الشركات إلى تخفيض استهلاكها من الوقود الأحفوري الذي يصدر CO_2.

وقامت دراسـة أخرى من قـبل مكتب المالية الأمـريكي CBO أظهرت



إعادة التدوير واستخدام كل المواد توفر الطاقة وتقلل التلوث

تأثير ضريبة الكربون على الوقود الأحفوري، إذ بدأت الضريبة بـ ١١ دولاراً لكل طن من الكربون، وسترتفع إلى ١١٠ دولار في عام ٢٠٠٠م، هذه الضريبة ستقلل نسبة إطلاق غاز co2 في الولايات المتحدة بنسبة ٣٧٪، وستجعل ٢٧٪ من الشركات أكثر فعالية بالمقابل، فإن المشروع سيقلل الاقتصاد الوطني بنسبة ٤٥ مليار دولار أي نحو ٠,٦٪ من GNP؛ لأن الشركات ستنفق أكثر للوقود الأحفوري. إن تغير أطوار الضرائب على مدى خمس أو عشر سنوات سيخفف الإرهاق الاقتصادي، وربما يحفز الأفعال الطوعية التي يمكن أن تقلل من طلب الطاقة، وتبدأ بإنقاذ المال مما يمنع أية خسارات، وتناقش المحامون بأن ضرائب الكربون يمكن أن تتوازن بالتقليل في الدخل الآتي من أشكال الضرائب كافة، وهذا سيحد أو على الأقل سيقلل من التأثير الاقتصادي لضريبة الكربون؛ وحتى هذا التاريخ فإن كلاً من دول السويد والنرويج وفنلندة قد طبقت ضرائب الكربون هذه، وحتى كتابة هذه الأسطر فإن الولايات المتحدة تفرض ضريبة على كل أنواع الطاقة.

الطاقة المتجددة والتنظيم العائلي

إن المحاولات القائمة لتبطئة ـ وربما لإيقاف ـ النمو السكاني ستؤدي إلى تبدل في مشكلات البيئة، ويمكن للمصادر الطاقية المتجددة أن تقلل، وبشكل مثير، من إطلاق غاز الميتان وثاني أوكسيد الكربون، وتعدّ هذه الخطوات أساسية لحل المشكلات البيئية الأخرى وإحداث مجتمع دائم سليم.

وأخيراً: فإن الحد من الكلوروفلورو كربونات CFCS ربما يساعد في كبح التسخين العالمي، خصوصا أن الكيمائيات المسببة لاستنزاف الأوزون مسؤولة أيضا عن ربع تأثير ظاهرة الدفيئة.

التعاون الدولي لوقف التسخين العالمي:

إن المؤتمر العالمي ذا المستوى الرفيع هو الذي عنون مثل هذه المشكلات الضاغطة، كحماية الغابات، والتسخين العالمي، وكانت إحدى نتائج هذا اللقاء المعاهدة التي تدعو كل الدول إلى التقليل من إطلاق غاز co2، كما وقعت الدول اتفاقا على حماية الغابات.

وعلى الرغم من أهمية كلتا الاتفاقيتين فإنهما أخفقتا نتيجة التقصير في العمل، وقد توقع العديد من العلماء في المعاهدة الأولى لحماية الأوزون أن الدول ستحتاج إلى خطوات جبارة لإيقاف التسخين العالمي.

وفي الختام فإنه من المهم أن نلاحظ أن هذه المشكلات العالمية البيئية الثلاث وهي: استنزاف الأوزون، والاحترار العالمي، والمطر الحامضي، تحدث منسجمة بعضها مع بعض، ومتزامنة مع اثنتي عشرة مشكلة أخرى، ويعد الإلحاح مستحسناً لأن العديد من المشكلات تبدو متركزة في الوقت الحاضر، وسيؤدي تأثيرها المتجمع والمتعاون إلى حدوث العديد من المشكلات المتقاربة التي تبدو أعظم من المتوقع.

ويبرز التقارب والتعاون بين هذه المشكلات الحاجة إلى حلول جذرية، كالتدوير، والترميم، والموارد المتجددة وغيرها.

ومن الممتع أن هذه الحلول تزوّد بتعاون ممتاز بنفسها: إن الطاقة المستخدمة لإعادة تدوير علبة من الألمنيوم كافية لإضاءة مصباح كهربائي لمدة ٤ ساعات. إنّ إبدال أشعة فلورية مكان الأشعة الناتجة من المصباح المتوهج يزيد الطاقة المدخرة الناتجة من تدوير علبة الألمونيوم إلى عمل المصباح مدة ١٦ ساعة، وكما أن المشكلات ربما تتزامن وتسرّع الانحراف، فإن الحلول يمكن أن تتعاون أيضاً للتقليل من تأثيراتها الضارة، والعمل على بناء مجتمع سليم دائم.

«لا يمكنك أن تتخلص من مسؤولية الغد بتجنبها اليوم»

إبراهام لنكولن: رئيس سابق للولايات المتحدة.

المراجع

1 - Bazzaz, F.A. and Fajer, E.D. (1992) plant life in a Co2-rich world "Scientific AmericanS" 264:68-74.

Describes some of the effects of rising carbon dioxide levels on plants, outside of temperature-induced changes.

2 - Cohn, J.P. (1989) Gauging the Biological Impacts of the Greenhouse Effect "BioscienceS" 39 (3): 142-146.

Interesting look at some of the projectes biological impacts of global warming.

3 - Hammond, A.L., Rodenburg, E.and Moomaw, W.R. (1991). Calculating national Accountability for Climate Change. environment 33 (1): 11-15,33-35.

Shows the major contributors to global warming.

4 - Jacobson, J.L. (1989). Swept Away. Worldwatch 2(1): 20-26. Exceptional account of the problems arising from flooding as a result of global warming.

5 -Myers,N. (1989). The heat is on: Global warming Threatens the World. Greenpeace 14(3):8-13.

Excellent overview of the threats of global warming. (1991) Trees by the Billions: A Blueprint for cooling international wildife 21 (5):12-15.

Superb article showing the potential to replant tropical forests to reduce global carbon dixide levels.

6 -Schneider, S.H. (1989). The changing Climate. Scientific American 261(3): 70-79 Excellent overview.



حُلُم

نضال إسماعيل

إني أحبّك
فانظريني ألفَ عامْ
لا بدّ آتٍ من ضباب الحلمِ
ريحًا أو غمامْ
لا بدّ آتٍ من قوافي الشّعرِ
يقتلني الهيامْ
لو كنتُ أملك غير شعري
لبنيت قصرك فوق رابيةٍ
تطلّ على بنفسج
ونظمت من ياقوت بحر الشوق
عقدًا.. أو قلادهْ
وغزلت من ريش اليمامِ
منامةً لك أو وسادهْ
لو كان لي قمر تكوّره يداي
لجعلت من هدبي وشاحًا ترتدينهْ
وكتبت قصة حبنا
فوق جدران المدينهْ

يا أجمل الملكات كوني ريشتي
لأصيد ناي
لا تسأليني
كيف أبحث في غموضك عن خطاي
إني وجدتك يا ملاكي ومضةً
تهب الجمال بهاءَهُ
وتبعثر الحزن المخبأ في رؤاي
البحر فيك وأنت سرّهْ
الوردُ منك وأنت عطرهْ
ماذا عسايَ أقولُ
وأنت أجملُ من لساني
أ أقول عنكَ قصيدةً
والحرف في لغتي أسيرٌ
لا تطاوعُهُ المعاني
هذا كلام متيّمٍ
واللهُ أعلم بالجنان
* * *



صدى

أيمن صادق

في يدي ألفُ فسيلَهْ
والمدى.. نافذة للموتِ
في كل مساءٍ..
أفرد الخوفَ
وأحصي ما تبقى في يدي
«ألف فسيلَهْ
.. وفسيلَهْ
.. وفسيلَهْ
وبلادٌ أرهقت سعيي إليها
كلما راودتها عن خصبها
لم تتهيأ لي..
وخانت ظمأ الغرسِ
ولم تشفِ غليلَه»
ها هو الموت..
من النافذة الزرقاء طريقي
ربما..
ينتعل الآن طريقي
ربما..
يشحذ لي منجلَه.. أو
ربما يسرج بالباب خيولَهْ
وأنا لم أتهيأ بعد
في كفّي بقايا الطين.. ما زالت
وفي قلبي نجيماتٌ
إلى الحلم أشرأبّتْ كي تطولَهْ
لم أزل..
أغرس للغيب قصورًا
وقميرًا يهجع الحزنُ إليه
وفسيلاً..
أسأل الله نخيلَهْ
في يدي ألف فسيلَهْ
ونشيدٌ أزغبٌ
رفرف بالوهم،
ولم يدرك إلى النور سبيلَهْ
إنَّه الموتُ..
وفي كفّي بقايا الطينِ
هل يمهلني حتّى أزيلَهْ؟!!



قصائد قصيرة

عبدالله السمطي

أمنية

لو أني أكتبُ في صفة الليل منازلَ
لو يتوددُ نجمٌ لخطايْ
لو تهطلُ أسماء في ذاكرتي
وتسافرُ ما بين الدمع وبين النايْ
لو..
كنتُ تراءيتُ قليلاً
أو أجلستُ البحر على ظمئي
وتذكرتُ الموجَ القادم من خلف دمايْ

طائر

سلامٌ عليّ
سأدنو من الريحِ
لا قلق اليوم تحتي
وهذى الرمال كتابٌ لآخرة الأرضِ
والناسُ أشباهُ ليلٍ يغادرُ أروقة الصبواتِ
سلامٌ عليّ
على خطواتي التي لم تكن لي سوى خطواتِ
وبعض لغهْ
وبعض مكانِ
سأذهبُ أعلى من الشجراتِ. فقطْ
أنا طائر الغيْبِ. هذى الطفولة لن تسجعَ الآن
لا وقت خلف منامي
لتبصرني عتماتي

رحلة

... ونحن الذين انتظرنا بزوغ الحصى من قرونِ
إلى أين نذهبْ
مشينا إلى شرفةٍ
وصعدنا الطريقَ رويدًا.. رويدًا
ركضنا إلى البئر كي يتعبَ العشبُ فينا
ركضنا إلى ما يشابه أمواتنا في القصيدةِ
لكنما البرقُ أصغرُ من أن يرانا
وأن يتكوكبْ
إلى أين نذهبْ

غناء

بي رغبةٌ أن أجرحَا
جدارَ أيامي وأن أريدُ شيئًا جامحَا
وأن أرى
غدي يسيلُ من غناء الناي يبكي وطنًا
يذكّر الرمل بزهرةٍ
ويترك الرياح تحدو المطرحا

قبيل العيد

ابتسام شاكوش

أمسك بطنه بشدة خوفًا على جداره أن ينشق فتندلق منه الأمعاء، وتنزل على أرض السيارة القذرة، تطلّع في وجوه الركاب الآتي، لم يبال به أحد ولا بخوفه، ألفى بعضهم قد أخذته سنة من النوم، والآخرين غارقين في جدال ومناقشة، يكافحون بها الضجر والملل في ذلك الجو الخانق.

وحده عباس كان يغالب الخوف من بين تلك المجموعة من البشر التي تملأ سيارة الجيب المسافرة إلى قرية العالية، على الطريق الجبلي المحفّر الوعر المملوء بالحفر، حاول طرد الخوف بالتفرج على الطريق، الوادي شديد العمق، قدّر عباس: لو انفجرت إحدى العجلات، لتدهورت السيارة، وغاب خبرها، ستكون أشلاؤه طعامًا للوحوش، وتبقى زوجته لائبة بين الباب والنافذة، وفراش الولد المريض، منتظرة عودته بالمال والدواء.

انحسر الوادي من مجال رؤية عباس خلف سياج من السرو، زاغ بصره، تخيل وجه سالم ابنه المريض، تشويه الحمى فيسيل العرق من جبينه المحتقن، ويهذي بكلام مفهوم تارة، غامض تارات، يطلب الماء البارد، ويطلب الموز، يراه معلقا في الدكان قبالة البيت كلما فتح عينيه ونظر من النافذة، يخاله قريبًا وهو بعيد صعب المنال، يعادل ثمن الكيلو منه ثمن ثلاثة أكياس من الخبز، تكفي البيت مؤونة يومين كاملين، تخيل عباس فرحة سالم حين يوقظه ليعطيه بعض النقود المعدنية ويطعمه الموز الذي يشتهيه، ويسقيه الدواء و...

أخ....

رفع عباس يده إلى رأسه يتحسس موضع الصدمة، ثم عاد ينظر إلى أصابعه ليتأكد من سيل دمه، فهذا الدرب اللعين مزروع بالحفر والمطبات، ما إن تنهض السيارة من واحدة حتى تسقط في الأخرى، فترتج بمن فيها، ويتطوح الركاب يمينا وشمالاً، الركاب معتادون هذه الأرجوحة، أما عباس فما حسب حسابا لها، لذلك، كان رأسه يضرب بسقف السيارة بعد كل قفزة من القفزات.

تمسك بمقعده، ومال على جاره يسأله: أما تزال قرية العالية بعيدة؟ التفت الجار، تأمله مليا، ثم أجاب عن سؤاله بسؤالين متتالين: أذاهب أنت إلى العالية؟ من تقصد من أهلها؟

ارتجت السيارة بمن فيها من جديد، ازداد عباس تمسكا بمقعده، وحنى جذعه إلى الإمام اتقاء لضربة أخرى قد تصيب رأسه، نظر بهلع إلى الوادي السحيق، عضّ أصابعه ندما لأنه لم يخبر أحدًا بوجهة سفره، لو مات هنا لاحتارت أمه وزوجته وأخواته في البحث عنه، سينتهي هنا نهاية كلب ضال، وستلتهم الحمّى جسد ابنه سالم حين يهمله الجميع ليبحثوا عن عباس.

بسمل عباس وحوقل، نظر من خلال الزجاج المغبر إلى السماء البعيدة يطلب منها العون ويستمدها النجاة له ولولده بقلب خاشع مرتعش، رفع يسراه قليلا، أزاح كمّ القميص عن معصمه، تذكر أن موعد استلام ساعته قد حلّ منذ أول أمس، وهو لا يملك من النقود ما يكفيه لدفع أجرة إصلاحها، عاد يفكر بقرية العالية أهي بعيدة؟ ليت سائق السيارة يسرع قليلاً، أعاد النظر إلى الوادي، لا ليت السائق لا يسرع أبدا، أتراه سيجد حسن آغا هناك؟ وإن لاقاه فهل سيشفق على حاله، ويقرضه بعض المال؟ هل سيطلب ربًا على قرضه هذا؟

حسن آغا ثري يعرفه معظم سكان الحي، كان أكثرهم فيما مضى فلاحين في أراضيه، وما تزال جذورهم مغروسة هناك، في المساحات الشاسعة التي يمتلكها، والتي ضاق رزقها الآن عن استيعابهم فنزحوا إلى المدينة، أما عباس فلقد سكن هذا الحي منذ سنوات قلائل وتعرف إلى حسن آغا عن بعد، كان يراه وهو يمشي مختالا مثل ديك الحبش، يقرع الأبواب بطرف العصا، ويزمجر مطالبًا بديونه، عباس يتوسم الخير في كل ما يراه، مادام الرجل يطالب بديونه، فلا شك أنه أقرضهم، وتأخروا في السداد.

مال عباس مرة أخرى على جاره يسأله عن قرية العالية، لكن سؤاله الخجول، ضاع بين حشرجة محرك السيارة، والجلبة الحاصلة من اصطفاق أواني اللبن الفارغة بين المقاعد، كان الركاب حينذاك ينصتون لحديث أحدهم وهو يشيد بفضائل رجل، يسكن قرية تبعد مسيرة نصف ساعة عن قرية العالية، في كل عام وفي مثل هذه الأيام الفضيلة ـ أيام شهر رمضان يوزع صدقات تعادل ما يوزعه سكان خمس قرى أو تزيد، يبعثرها كيفما اتفق، ولا يرد سائلا أبدًا.

بلع عباس ريقه بصعوبة، أوشك أن يبتسم، دق قلبه بعنف بين ضلوعه، ها هي ذي الفرصة تأتيه راجلة، بلا موعد، فليذهب إلى ذلك المحسن، يشرح له حاجته، ويسأله العون، فإن لم يعطه صدقة تكفيه، طلب منه قرضًا حسنًا، سيمنحه إياه لاشك، منزّها عن الربا، سالم، يجب أن يشفى ويعيش، فهو الولد الذكر الوحيد، وعليه تعلق الآمال والأماني.

توقف عباس يعاتب نفسه: أنت يا عباس؟ أنت تقف كالشحاذين على أبواب الأغنياء تطلب الصدقة؟ هانت عليك كرامتك يا عباس؟ لكن الوقوف بباب الرجل المحسن لن يكون أقل



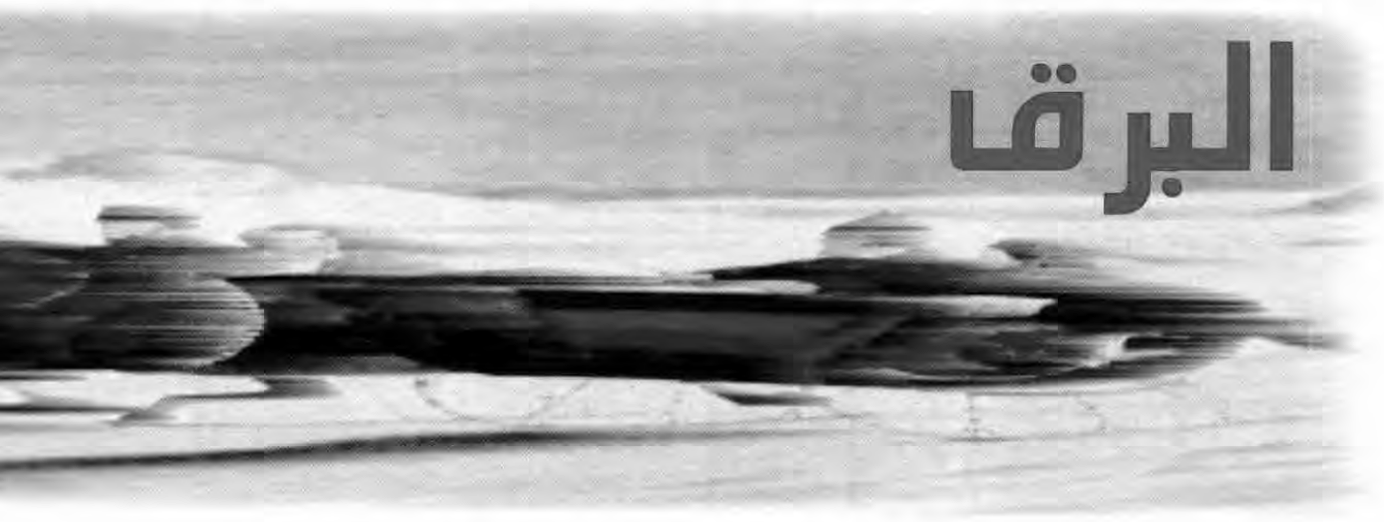
إذلالاً من الوقوف بباب حسن آغا، كان عباس يوازن بين كفة المحسن وكفة حسن آغا، ثم ما لبث أن تذكر العيد القادم بعد أيام، والبيت الخاوي من الطعام، فنكّس رأسه، وتوقف عن التفكير.

حانت من عباس نظرة شاردة إلى أرض السيارة، اصطدمت بمحفظة نقود، فتح عينيه بشدة، حملق جيدا، المحفظة حبلى بالأوراق، لابد أن السماء استجابت لرجائه، ورحمت ضعفه وذلّه، لا مبرر الآن للوقوف بباب أحد، الحل هنا، قريب جدًا، تحت قدمي عباس، المحفظة متخمة، يبدو أن صاحبها من الأثرياء، وبضع ورقات يأخذها عباس حلاوة إعادتها إليه لن تنقص ثروته، سيعيدها عباس إلى صاحبها، سيعيدها حتمًا بعد أن يأخذ ثمن الدواء والموز لابنه سالم، وثمن الخبز لبقية الأسرة، فإن استدل على صاحبها أعادها وإلا، سيأخذ منها مبلغا يشتري به الدقيق والسكر والزبدة، ليصنع حلوى يبيعها في العيد، ويحتفظ بربحها لنفسه، ويجعله رأسمالاً لحلوى يبيعها في الأيام القادمة.

صار قلب عباس يدق بعنف أكثر، ولكن باتجاه آخر، تجمع حول نفسه، نظره ما يزال مثبتا على المحفظة، حرّك قدمه، تلفت حذرًا، دق ركبته بقبضة يده، مد ساقا أتبعها بالأخرى، سحبهما معا، صارت المحفظة تحت قدميه، فأمال القدم الأخرى ليجعل منها دريئة تحجب ما تحتها عن العيون، وصلت السيارة إلى قرية العالية، لا أحد ممن في السيارة يعرف عباسًا، لذلك لم ينزل، بل تابع الانتظار والسيارة تتوقف ثم تمشي، الركاب ينزلون في القرى المتناثرة على ذلك السفح الوعر حتى نزل الراكب الأخير.

انحنى عباس بسرعة، والتقط المحفظة، دسّها بحرص في جيبه، وتنفس الصعداء، ثم أشار إلى السائق بالتوقف، استدارت السيارة وعادت من حيث أتت، قعد عباس على الأرض موليا الدرب ظهره، مشرفا على الوادي، أخرج المحفظة المنتفخة ليحصي غنيمته، ولعابه يسيل شوقًا وغبطة، ثم فتحها بعناية وحذر.

كانت المحفظة ممتلئة بالفواتير وما فيها قرش واحد، صفعته المفاجأة، ترك المحفظة على حافة الطريق، وقام بفتور، نظر باتجاه الغرب، كانت الشمس جمرة ملتهبة توشك أن تغيب خلف الأفق، أسند يديه على خاصرتيه وسار متجها إلى أقرب قرية محاولاً ابتلاع خيبته وخزيه، كان الطريق الزراعي خاليا من المارة فالناس في رمضان لا يتأخرون في العودة إلى البيوت، حمل عباس يأسه ومرارته على الدروب المحجرة، علّه يلتقي بشخص ما فيسأله أي القريتين أقرب إلى موقعه؟ فالعالية أم.. أم ماذا؟ لقد أنسته أحداث الساعة الماضية السؤال عن اسم ذلك الرجل المحسن أو اسم قريته، تابع السير ذليلا يلفه الخزي والخجل، دخل القرية يطلب عشاء، ومكانًا آمنا يبيت فيه حتى الصباح.



البرق

الكاتب البولندي: سلومير روزيك
ترجمة: محمود محمد أحمد مكي

بعد أن مررنا بـ (ن) مباشرة، اجتزنا المروج الرطبة المسطحة بين جذوم النباتات التي ظلت منتصبة كأنها رؤوس الشياطين، وانطلقت مركبتنا في خفة ورشاقة بسرعة كبيرة تحفها أخاديد قديمة، ومستنقعات في طريق طويل ضيق من الغابة، ارتفاعه أعلى من آذان الخيل التي تجر المركبة. وكان الطريق شاغراً كما هو الحال في هذا الوقت من السنة. ولقد كانت المرة الوحيدة التي رأيت فيها خيال رجل عندما كنا ذاهبين لقضاء بعض الوقت. استطعت أن أميزهُ، وأتبين ملامحه جيداً كلما اقتربنا منه. كان رجلاً ذا وجه مألوف في زي عامل مكتب بريد، يقف على جانب الطريق بلا حراك، وعندما مررنا به نظر إلينا غير مكترث، وما إن غاب عن نظرنا حتى ظهر لنا شخص آخر في زي مشابه، ويقف بلا حراك، تفحصته بدقة، ولكن ظهر لطليعتنا ثالث فرابع. كانوا قائمين ووجوههم نحو الطريق الرئيس، وعيونهم نعيسة، وثيابهم رثة. تمطيت على الكرسي حتى يتسنى لي الرؤية بوضوح من فوق كتف السائق، وبذلك تمكنت أن أرى شخصاً آخر قائماً، تملكني حب الاستطلاع بعد أن مررنا على اثنين آخرين قائمين. كانوا يقفون على مسافة ليست قريبة، ولكنها تسمح لهم برؤية بعضهم بعضاً في أوضاع ملائمة، ولا يعبؤون بالمركبة المارة كعمدان البرق التي لا تعبأ بالمسافرين المارين. حملقت مراراً وتكراراً إلى كل واحد نمر به فيظهر لنا آخر. وكنت على وشك أن أسأل السائق ماذا يفعل هؤلاء؟ عندما أشار بسوطه إلى آخر قائلاً دون أن يستدير: «إنهم في خدمة»، ومرة أخرى ظهر لنا شخص ثابت نظرت في وجهه غير مبالٍ بما تقع عليه عيني، فقلت مستفسراً: «ماذا تعني بالخدمة»؟!، قال: كما قلت آنفاً، ليس هناك شيء غريب، فهؤلاء قد وُضعوا لهذه المهمة، «اسرعي أيتها الجياد».

لم يظهر السائق رغبة في الحديث، أو ربما ظن أن التفسير غير مجد. زجر الجيادَ، وظل من حين إلى آخر يضربها بسوطه بطريقة آلية. وأيْكُ ثمار العُلَّيْق على جانب الطريق والمزارات، وأشجار الصفصاف تتقدم لتقابلنا، ثم تتراجع. بين هذه الأشياء استطعت أن أتبين الصورة بوضوح. «في أي خدمة»؟ سألت بإصرار: «ما الخدمة التي تعتقد أنهم يقومون بها؟ ».

«خدمة حكومية. إنه خط البرق». قلت في تعجب: «ماذا؟!! ولكن البرق يحتاج إلى أسلاك وأعمدة».

نظر إليّ السائق وهو يهز كتفيه، واستطرد قائلاً: «من الواضح تماماً أنك غريب عن هنا. فالكل يعرف أن البرق العادي يحتاج إلى أسلاك وأعمدة، ولكن هذا البرق من دون سلك. في هذه اللحظة كان من المقرر أن يكون بأسلاك، ولكن الأعمدة سُرِقَتْ، ولم يعد يوجد هنا أية أسلاك».

«لا توجد أسلاك؟» سألت نفسي. «ليس هناك شيء غريب. لا يوجد أي شيء. أسرعي أيتها الخيل». صمتُّ من شدة الدهشة، ولكن ليس إلى حد يجعلني أغير مسار الحديث.

«ولكن كيف يكون هذا البرق بلا أسلاك».

«كيف! ليس هناك مشكلة. يصيح الأول إلى الثاني بالرسالة، والثاني إلى الثالث، والثالث إلى الرابع، وهكذا دواليك حتى تصل البرقية إلى غايتها. لا توجد الآن رسائل ينقلونها ولكن إن جد جديد فستسمعهم بنفسك».

«أو يعمل برق هكذا!؟»؟

«ولِمَ لا! بالطبع ولكن غالبًا ما يحرفون محتوى الرسالة، والأمر يزداد سوءاً لو أن أحدهم كان سكران.



فسينطقون كثيراً من الكلمات على سبيل الدعابة، ولكنها تصل كما هي، ولكن - ناهيك عن هذا وذاك، فإنه أفضل من البرق العادي ذي الأسلاك والأعمدة. فالقاعدة تقول: إن الأحياء أكثر ذكاء، فالعواصف لا تتدخل في أثناء نقل الرسائل، وهناك أيضاً توفير الأخشاب: فكما تعرف: إن غاباتنا البولندية قد نقصت بشكل خطير. فقط في فصل الشتاء تعطل الذئاب العملية قليلاً.. أسرعي أيتها الجياد»

«حسناً» ولكن هؤلاء الناس هل هم سعداء في عملهم؟». سألت:

«لم لا يكونون سعداء؟ فالعمل سهل لا يحتاج إلى مجهود، فقط على الفرد أن يعرف لغة أجنبية. ذهب مديرنا فوراً إلى وارسو ليضع حداً لهذه الأشياء. فهم يُحقنون بحقن مستحدثة حتى لا تُمَزَّق رئاتهم إرباً من شدة الصياح.. أسرعي أيتها الخيل!»

«لنفترض أن أحد هؤلاء كان أصمَّ»

«لا مجال هنا للصمّ ولا لهؤلاء الذين يتلعثمون».

ذات مرة حدث أن كان شاب به لُثْغَة دخل هذا المجال، ولكن سرعان ما طُرِدَ، لأنه أغلق الخط. يقولون: إنه على بعد عشرين كيلو متراً يوجد شاب تخرج في مدرسة المسرح، حيث يخرج الألفاظ من مخارجها الصحيحة»

أربكتني هذه المناقشة، فأقعدتني عن الكلام، ولم أسجل أي ملاحظة على الرجال الذين هم على جانب الطريق. تحركت المركبة بسرعة عبر المضايق، واستدارت فجأة تجاه الغابة التي أصبحت تقترب أكثر فأكثر.

«حسناً» قلت: «ولكن ألا تحب أن يكون هناك برق جديد بأعمدة وأسلاك؟»

«لا سمح الله» أجاب السائق مؤكداً. ثم قال:

«بجانب هذا - إذا كانت الأمور كما هي - من السهل الحصول على وظيفة في مجال البرق، على فرض ذلك. وما هو أكثر من ذلك أن عامل عمود البرق يستطيع أن يعمل شيئاً إضافياً. لأنه من المهم جداً لأي شخص ألا تشوه برقيته.

فيأخذ المركبة ويتوقف عند الكيلو ١٠ أو ١٥، ويعطي كل واحد على الطريق هدية.

البرق من دون أسلاك يختلف عن ذي الأسلاك - أكثر تقدماً.. أسرعي أيتها الخيل».

وفوق أزيز الإطارات فاجأنا صوت، صوت ضعيف، كان صوتاً بين صفير الريح وغناء حزين بعيد. يعزف ما بين: أه... إي.... أو....

التفت السائق حوله، وأصغى بانتباه شديد، وهو في كرسيه: «إنهم ينقلون رسالة»، دعنا نتوقف لكي نستمع جيداً، وما إن توقفت قرقعة المركبة، حتى خيم صمت عميق على الحقول من حولنا. في أثناء هذا سمعنا الصرخة بوضوح وكأنها صوت الطيور في المستنقعات. العامل المختص بعمود البرق الأقرب لنا جعل يديه على شكل كوب فوق أذنيه.

«آه في أي لحظة سيصلنا هذا الصوت الآن؟ همس السائق في أذني، وصدقت قولته. وما كادت الآه الأخيرة تنتهي بصعوبة حتى علا صدى الصوت من خلف أجمة الأشجار التي كنا نمر بها.

«مات الأب ومراسم الدفن يوم الأربعاء». قيلت بصوت متهدّج تقطعه العبرات. «أراح الله روحه» قال السائق، ثم ضرب الجياد بالسوط.

الإطار

فاضل عمران

فزع من سريره مرتبكًا.. قذف ببصره نحو ساعة الحائط، أصابه الرعب:

- الساعة الثامنة والنصف، لقد بدأ الدوام منذ نصف ساعة.

لم يتجه بخمول إلى الحمام - كعادته -، ولا إلى المطبخ، بل انطلق كالصاروخ إلى شماعة الملابس، انتزع ما عليها، لبس ثوب العمل، اجتث الغترة والعقال من مكانهما بيد، وانتشل مفتاح السيارة باليد الأخرى، ثم طوى السلم نحو السيارة..

- يا للكارثة! الإطار الأمامي فارغ تمامًا، صباحٌ أسود.

فتح صندوق السيارة، أخرج عدَّة الفتح، ثم تذكر:

- كلا.. الإطار الاحتياطي فارغ منذ استبدلته قبل ثلاثة أشهر.

تسمر في مكانه كالمسمار، اتجه يمنة ويسرة.. ثم يمنة ويسرة، ثم تسمَّر وفكَّر:

- ترى هل أتصل بالشركة وأعتذر عن الذهاب.. لا ليس هذا من طبعي، إذن هل أطلب من زميلي صادق ليحضر من الشركة ويأخذني.. لا... لا أريد أن أحمله خطئي، فمديرنا أبو ناصر غضب عليه الأسبوع الفائت نتيجة خروجه لتوصيل أخيه إلى المستشفى دون إذن.. أبو ناصر، نعم المدير أبو ناصر هو الوحيد الذي يستطيع إنقاذي، فهو غالبًا ما يذهب متأخرًا إلى الشركة، أتمنى أن يفعلها اليوم، سأتصل به فورًا.

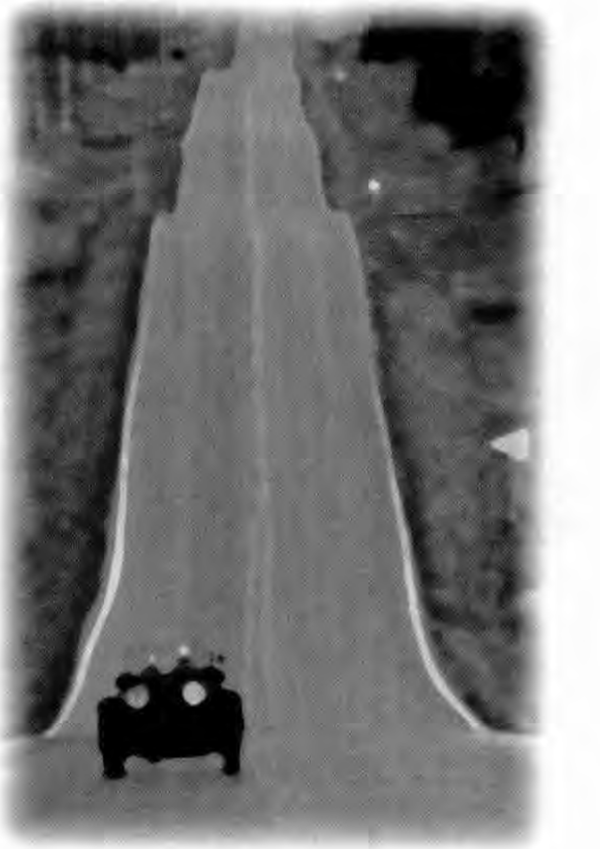
طوى خطاه نحو الهاتف.. انتزع السماعة واتصل، رن الهاتف كثيرًا، قبل أن تجيبه امرأة:

- ألو.

سألها من دون مقدمات:

- أبو ناصر موجود؟

سكتت قليلاً ثم قالت:



- لحظة

انتظره أكثر من المعتاد، ولكنه أتى في النهاية:

- ألو نعم.

- عفوا أبو ناصر، أرجو أن تمر علي، أنا جاهز وأنتظرك.

- حسنًا، لا تقلق، أنا قادم.

أغلق سماعة الهاتف وتمدد في مكانه باسترخاء كالغريق الناجي بعد صراع مرير مع الأمواج... لم يدرِ كيف مر الوقت عندما سمع بوق سيارة أبي ناصر يقرع أذنيه.. هب للخارج، فتح الباب... دخل السيارة... استدارت العجلات.

الجو هادئ داخل السيارة وخارجها، واستمر كذلك مدة خمس دقائق، ثم تبعتها خمس تشبهها تمامًا، ولم يمزق هذا الهدوء أحد غير صوت أبي ناصر:

- لم تقل لي يا سعيد، لماذا اتصلت بي، وإلى أين سنتجه؟!

- طبعًا لنفس المكان الذي أنت متجه إليه.

- ليس لي مكان محدد، فأنا عادة أتوه يوم الجمعة؛ لأنه يوم عطلة للشركة.

تجمد سعيد في مكانه تمامًا لولا ضربات قلبه التي كانت تخفق بقوة.

بسم الله الرحمن الرحيم

برنامج الخليج العربي لدعم
منظمات الأمم المتحدة الإنمائية

AGFUND . ARAB GULF PROGRAMME FOR
UNITED NATIONS DEVELOPMENT ORGANIZATIONS

إعلان

جائزة برنامج الخليج العربي الدولية السنوية

للمشروعات التنموية الرائدة

يعلن برنامج الخليج العربي لدعم منظمات الأمم المتحدة الإنمائية أنه سيبدأ، اعتباراً من هذا العام 1999م ، منح جائزته الدولية السنوية المشروعات التنموية الرائدة في الدول النامية ، وبذلك يدعو جميع الجهات المعنية العاملة في مجال التنمية البشرية المستدامة ، مشتملة على المنظمات الدولية والإقليمية والجمعيات الأهلية والجامعات ومراكز البحوث والمؤسسات العلمية ، لتقديم ترشيحاتها لهذه الجائزة .

تبلغ قيمة الجائزة (300.000) ثلاثمائة ألف دولار أمريكي، إضافة إلى شهادات وميداليات .
ويوزع هذا المبلغ على المشروعات الفائزة في ثلاثة ميادين تنموية هي :

1 - جائزة المشروعات التنموية الريادية المنفذة من قبل المنظمات الإقليمية أو الدولية . وموضوعها لهذا العام : " **محاربة الفقر والتخفيف من حدته في المجتمع** " عن طريق التدريب ومشروعات القروض صغيرة الحجم . والمشروعات التي يمكن ترشيحها لجائزة هذا الموضوع، هي فقط مشروعات المنظمات الدولية والإقليمية في الدول النامية .

2 - جائزة المشروعات التنموية الريادية المنفذة من قبل الجمعيات الأهلية . وموضوعها لهذا العام : " **تدريب المرأة الريفية للاعتماد على الذات** " . والمشروعات التي يمكن ترشيحها لجائزة هذا الموضوع ، هي فقط مشروعات الجمعيات الأهلية التي تخدم مجتمعاتها المحلية في العالم النامي .

3 - جائزة المشروعات التنموية الريادية المنفذة من قبل الأفراد . وموضوعها لهذا العام : "**تأهيل أطفال الشوارع والمشردين ودمجهم في المجتمع** " . والمشروعات التي يمكن ترشيحها لجائزة هذا الموضوع ، هي فقط المشروعات الفردية في مجتمعات العالم النامي .

تعاد استمارة الترشيح بعد تعبئتها إلى إدارة الإعلام والعلاقات العامة بالبرنامج في موعد لا يتجاوز **31 مايو 1999م** .

لمزيد من المعلومات يمكن الاتصال بـ :

إدارة الإعلام والعلاقات العامة

برنامج الخليج العربي لدعم منظمات الأمم المتحدة الإنمائية

رقم الهاتف : 4418888 1 966 رقم الفاكس : 4412963 1 966

بريد إلكتروني : prmedia@agfund.org

ص.ب ١٨٣٧١ الرياض ١١٤١٥ – تلفون ٤٤١٣٢١٨ – ٤٤١٦٢٥٧ – ٤٤١٨٨٨٨ – فاكس ٤٤١٢٩٦٣ – e-mail: agfund@khaleej.net.bh – المملكة العربية السعودية
P.O. Box 18371 Riyadh 11415 - Tel. 4413218 - 4416257 - 4418888 - Fax. 4412963 - e-mail: agfund@khaleej.net.bh - Kingdom of Saudi Arabia



الموسوعة العربية العالمية.. الرياض، ط٢، ١٤٢٠هـ

صدرت الطبعة الثانية من الموسوعة العربية العالمية، بعد الترحيب الواسع الذي لقيته في طبعتها الأولى من الوسط الثقافي العربي ونفادها بالكامل.

تقع الموسوعة في ثلاثين مجلدًا، وسبعة عشر ألف صفحة، وثلاثة وعشرين ألف عنوان رئيس، وأكثر من ثمانية عشر ألف إيضاح، منها ١٢٠٠٠ صورة، و٤٥٠٠ شكل تعليمي، و١٥٠٠ خريطة.

أعدّ هذه الموسوعة أكثر من ألف خبير ومستشار وعالم وباحث ومدقق ومراجع ومصحح من سائر أقطار الوطن العربي الكبير.

رعى هذا العمل الضخم، وقدم له الكثير صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبدالعزيز آل سعود، النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء ووزير الدفاع والطيران والمفتش العام بالمملكة العربية السعودية. والجهة الممولة والراعية لهذا الإصدار مؤسسة سلطان بن عبدالعزيز آل سعود الخيرية.



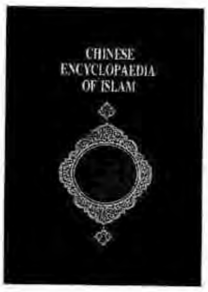
أبو السعود، خالد سليمان/ إستراتيجية البقاء في القرن الحادي والعشرين للدول وللأمة الإسلامية.. قليوب: مطابع الأهرام التجارية، ١٩٩٧م، ٣٣٤ ص.

يشير الكاتب إلى أن دافعه إلى إصدار هذا الكتاب هو قناعته بأن الأمة الإسلامية ستواجه كوارث كبيرة في بداية القرن الحادي والعشرين، وأنه يهدف إلى إقناع الشعوب والحكام والمفكرين وأصحاب المصالح الاقتصادية في الدول الإسلامية بأن أمتهم تعاني مشكلات خطيرة قد تؤدي إلى موت كثير من الدول الإسلامية سياسيًا واقتصاديا في بداية القرن الحادي والعشرين إذا استمر الحال كما هو عليه الآن.



فيروزي، هاني ماجد/ ملامح من تاريخ مكة والمدينة.. جدة: مؤسسة المدينة للصحافة (دار العلم)، ١٤١٩هـ، ج١، ٣٥٦ص.

يقع هذا الكتاب في جزأين. وقد حاول المؤلف من خلاله أن يوثق تاريخ المملكة المعاصر، وبخاصة ما بعد عام ١٣٤٣هـ متواصلاً مع الإنجازات التي تحققت في العهد السعودي الميمون، مع استقراء تاريخي لأهم المعالم المقدسة، والأعمال المنجزة خلال قرون التاريخ.



الموسوعة الإسلامية الصينية، ١٤١٩هـ، ٧٧٣ص

صدرت الموسوعة الإسلامية الصينية CHI-NESE ENCYCLOPAEDIA OF ISLAM في (٧٧٣) صفحة، بالإضافة إلى (٥٤) صفحة ملاحق، وقد احتوت الموسوعة على كثير من المعارف، وأوردت كثيرًا من المعلومات عن الأعلام، والأماكن المقدسة، والمصطلحات الدينية. الموسوعة كُتبت باللغة الصينية، وجاءت مرتبة حسب الحروف الإنجليزية.

احتوت الموسوعة على بعض الصور الملونة لبعض الأماكن المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة، كذلك صور بعض المخطوطات القرآنية. وبعض المساجد والأواني الفخارية الأثرية التي عليها كتابات إسلامية، وصور نماذج لبعض أنواع الخطوط العربية.



ترجمة باللغة الصينية لجزء عمّ وسورة الفاتحة، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

صدرت ترجمة جزء عم وسورة الفاتحة باللغة الصينية في كتاب واحد، وأورد المترجم الآيات القرآنية على اليمين وترجمتها إلى الصينية على الشمال، وكتب المترجم بالعربية الفهرس بأسماء السور، وبيان المكي والمدني منها ورقمها في المصحف، ورقمها في الكتاب المترجم.

جاءت الترجمة في ٢٤ صفحة.



كشاف الصور التاريخية للمملكة العربية السعودية.. الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، ٢٦٧ص.

قصدت المكتبة من إصدار هذا الكشاف الذي يأتي من واقع الحرص على العناية بتراث البلاد وتاريخها، إلى تحقيق عدة أهداف، وهي: التعريف بتراث البلاد وصور الشخصيات والمدن والمواقع والمعالم

والمنشآت وملامح الحياة الماضية في المملكة العربية السعودية، وتوثيق الصور القديمة المنشورة في الكتب والمجلات العربية وغير العربية، والإفادة من الصور بوصفها سجلات ومصادر تاريخية للمعلومات عن ماضي الحياة في المملكة، وتوفير أداة بحث تساعد الباحثين على الوصول إلى محتويات الكتب والدوريات من الصور المنشورة.



لوريمار، جون قوردن/ معجم لوريمان.- سلطنة عمان: جامعة السلطان قابوس بالتعاون مع شركة جارنت للنشر، ١٤١٩هـ.

قامت جامعة السلطان قابوس بسلطنة عمان بالتعاون مع شركة قارنت للنشر بإصدار معجم لوريمار باللغتين العربية والإنجليزية.

قام بتأليف هذا المعجم جون قوردن لوريمار JOHN GORDON LORIM-ER، الذي كان عاملاً في سلك الإدارة بمستعمرة الهند البريطانية، بطلب من السلطات البريطانية للاستعانة به في الإدارة.

قضى المؤلف عشر سنوات كاملة في إعداد هذا المعجم، وأخرجه في جزأين: نشر الجزء الأول منه عام ١٩٠٨م، وكان يشمل معلومات الجغرافية والإحصاء، ونشر الجزء الثاني عام ١٩١٥م وكان مختصا بالتاريخ.



خزاعلة، عبدالعزيز/ أمن الطفل العربي.- الرياض: مركز الدراسات والبحوث بأكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

هذا الكتاب دراسة علمية لمشكلة أمن الطفل العربي، وقد جاء الكتاب في ستة فصول، إذ جاء الفصل الأول عن الإطار المنهجي للدراسة، والفصل الثاني عن الأسس والمبادئ التي يتحقق على ضوئها أمن الطفل العربي، وكان الفصل الثالث عن أبرز النتائج التي توصل إليها من خلال تحليل التركيب العمري للسكان.

وفي الفصل الرابع يوضح المؤلف أهمية توافر أساليب الوقاية من الأمراض لأمن الطفل العربي، ثم أورد في الفصل الخامس جملة من المشكلات التي تعوق تحقيق أمن الطفل العربي.

وختم الكتاب بتصنيف الدول العربية من حيث تحقيقها لأمن الطفل العربي.



ضمن منشورات المتحف الوطني للمجاهد بالجزائر، صدر العدد الخامس من مجلة الذاكرة، وهي مجلة تعنى بالدراسات التاريخية للمقاومة الجزائرية.

وتهتم المجلة بالبحوث والدراسات التي توثق فترة المقاومة، وثورة التحرير الجزائرية، وقد جاءت هذه المقالات في شكل دراسات ووثائق وعرض كتب.

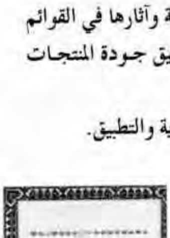


صدر العدد الأول من المجلد الثالث من مجلة البحوث المحاسبية، وهي دورية علمية متخصصة ومُحكّمة نصف سنوية، تصدر عن الجمعية السعودية للمحاسبة، المحرم ١٤٢٠هـ - أبريل ١٩٩٩م.

احتوى هذا العدد على ثلاثة أبحاث وهي:

تقويم الأداء الإستراتيجي المالي للشركات المساهمة السعودية، والمعالجة المحاسبية لبند الإعانات والمنح الحكومية وآثارها في القوائم المالية، ودور المعلومات ومقاييس الأداء المحاسبية في تحقيق جودة المنتجات والعمليات الصناعية.

وختمت المجلة بعرض وافٍ لكتاب: المحاسبة الضريبية - النظرية والتطبيق.



صدرت مجلة المسلم الصيني (٦ أعداد في مجلد واحد، يناير/ كانون الثاني - يونيو/ حزيران ١٩٩٨م)، وهي مجلة إسلامية ثقافية علمية جامعة.

المجلة تصدر باللغة الصينية ماعدا محتويات العدد التي تكتب باللغة العربية، وقد جاءت هذه الأعداد الستة محتوية على كثير من المواضيع التي تهتم بأمر المسلم في مختلف أوجه الحياة.

يقع العدد في ٤٧ صفحة، وقد حُليت هذه الأعداد بعض الصور الملونة.



صدر العدد الثاني - السنة الثالثة - من مجلة البيّنات، وهي مجلة إسلامية عربية فصلية تصدرها جامعة العلوم الإسلامية، علامة بنوري تاون كراتشي - باكستان.

وقد جاء هذا العدد محتويًا على عدد من الموضوعات التي تهم المسلم، مثل المعاهدات في الإسلام، ودعوة الإسلام إلى طلب العلم، والسنة النبوية ومكانتها، وغير ذلك من الموضوعات الدينية.



(الطفل والبحر)، هو عنوان شريط فيديو خاص بالأطفال من إنتاج سنا للإنتاج والنشر والتوزيع.

الشريط أُنتج خصوصًا للأطفال من أجل تعميق ثقافتهم الإسلامية وهويتهم العربية، وقد استغرق تنفيذه تلفازيًا مدة عشرة أشهر؛ لأنه صُوِّر في عدة بلدان عربية.

وهذا الشريط إصدار فني لأناشيد الأطفال تربط الصورة بالكلمة والصوت.

انتحار المثقفين العرب وقضايا راهنة في الثقافة العربية

محمد جابر الأنصاري   مراجعة: زياد معاشي العطية

بلغة بسيطة خالية من التعقيد يناقش الدكتور محمد جابر الأنصاري في كتابه «انتحار المثقفين العرب، وقضايا راهنة في الثقافة العربية» مواضيع عدة، أبرزها ما يسميه «بالظاهرة الانتحارية» ليضيف إسهامًا جديدًا إلى أدبيات ليست بالمألوفة في الثقافة العربية، وهي أدبيات ثقافة الانتحار، كما يتضمن الكتاب مواضيع مختلفة تتصل بالثقافة العربية، والأدب العربي والعالمي. وهذا الكتاب يصنّف على أنه من نوع «المعاد نشره» - إذا جاز التعبير - لأنه مقالات ودراسات سبق نشرها في مجلات وصحف عربية في فترات زمنية مختلفة، بالإضافة إلى عدد من المحاضرات والأوراق التي ألقاها و قدمها الدكتور الأنصاري في بعض منتديات ولقاءات ثقافية.

ويؤكد المؤلف في مقدمته أن هذا الكتاب لا يتقيد بحدود البحث ومناهجه، بل هو مجرد «تأملات فكرية طليقة في سبر الظاهرة الانتحارية العربية المعاصرة في ضوء الهزيمة القومية الكبرى وآثارها العميقة...»، ويميز المؤلف بين أنواع مختلفة لظاهرة الانتحار، كالجسدي، والأدبي، والفكري يسميها «ألوان أخرى من الانتحار»، والتي بالطبع لها أبطالها من المبدعين. وعلى الرغم من أن المؤلف يتناول في كتابه هذا قضية تعدّ (نفسية) إلا أنه يتحاشى التورط في عرضها على أنها قضية نفسية بحت، ويمر بأسبابها النفسية لمامًا، ويركز على أبعادها الفكرية والثقافية والاجتماعية.

ثوب سوداوي

فكتاب الأنصاري الجديد يشكّل امتدادًا لشواغله الفكرية، والأدبية، وإن لبس ثوبًا سوداويًا هذه المرة، فمقالات كُتبت في ثمانينيات هذا القرن لابد أن تكون سوداوية، على الأقل لتعكس الأوضاع التي مرت بها الأمة العربية من نكبات وأزمات. فالحديث عن الظاهرة الانتحارية للمثقفين العرب يخرج من رحم الألم والمأساة كما في «حالة خليل حاوي الانتحارية». ويرى الدكتور الأنصاري أن «الفنانين والأدباء والمثقفين بعامة هم أكثر الناس ميلاً للانتحار لغلبة الجانب المبدئي القيمي على تكوينهم وتفكيرهم»، ويأتي في مقدمة المشكلات المؤدية للانتحار - وفقًا للمؤلف - مشكلتان هما:

- استحالة الانسجام مع الآخرين، أو مع العالم، أو حتى مع النفس.
- مشكلة عجز أو قصور جنسي أو غرامي، أو إخفاق مرير في علاقة زوجية.

ولإثبات هاتين المشكلتين يستعرض المؤلف عدة حالات انتحارية لفنانين وأدباء ومثقفين كانتحار الروائي الياباني يوكويو ميشيما عام ١٩٧٠م، وانتحار الشاعر اللبناني خليل حاوي عام ١٩٨٢م.

ما الانتحار؟

ولا يفوت المؤلف أن يقوم بسبك تعريف للانتحار في قالب مأساوي، يصفه بأنه «هو ذروة الحرب الأهلية داخل النفس الإنسانية.. والتعبير النهائي عن تدمير جزء من الذات الواحد للجزء الآخر منها»، وأنه «التمزق في علاقة الذات بالجماعة»،

الانتحار ذروة الحرب الأهلية داخل النفس البشرية وتمزق علاقة الذات بالجماعة



محمد جابر الانصاري

وبعبارة أخرى أنه «هو إحساسه الملح الفادح بأنه قد تم التخلي عنه من أقرب المقربين إليه.. من عزوته وعصبته وأهل نصرته.. من الذين ظل يتصور مدى العمر أنهم معه وأنه معهم..» وهذا رسم دقيق لنبضات قلب المبدع أيًا كان مجاله عندما يرتطم بحواجز نفسية مجتمعية، وهو المثقل بهمٍّ ثقافي ما يحمله على عاتقه ويجعله رسالته الأولى في حياته، فتعمل تلك الحواجز النفسية التي خلقها الأقربون على تمزيق شفافية مشاعره، ونبل مقصده. ويشكك الدكتور الأنصاري بجدوى الانتحار، ويطرح بديلاً عنه الاستشهاد «لماذا لا يستشهد.. بدلاً أن ينتحر؟» مادام الأمر في نهايته لا يتعدى الموت شكلاً، ولكنه يختلف جوهراً، وأسمى مكاناً؛ لأنه حالة دفاع عن الأمة وشرفها.

وبلهجة تجيش بعاطفة قومية يتحدث المؤلف عن حالة «خليل حاوي الانتحارية»، ورؤيته لأوضاع الأمة العربية آنذاك، وتلك اللهجة ما هي إلا انعكاس لحالة سخط وتذمر شخصي انتابت المؤلف عند كتابته عن هذه الحالة الانتحارية؛ وذلك لعلاقته الشخصية بخليل حاوي، التي مكنته من معرفته عن قرب؛ ولأن انتحاره يجسد البعد المبدئي القومي. ومن ثم يعرض للتناقض في المشعل أو المسبب الإبداعي لكل من همنجواي، ولورانس كروائيين جمعهما الإبداع، وفرق بينهما الباعث له.

الانتحار الأدبي

ويأتي المؤلف ليطرح حالة انتحارية ذات لون جديد وصفها بـ «الانتحار الأدبي»، ويمثلها هذا مثقف عربي من القرن الرابع الهجري، وهو أبو حيان التوحيدي الذي عجز عن التوافق مع مجتمعه ونفسه، فأحرق كتبه احتجاجًا، واعتمر عمامة التصوف. وبعد ذلك يصل إلى حالة يافيم لاديجنسكي اليهودي الصهيوني الذي هاجر من الاتحاد السوفيتي لشعوره بالقهر والحرمان، ليصدم بأنها سجن لا يختلف عن سابقه إن لم يكن أسوأ، فينتحر ليعلن خيبة أمله في أرض الميعاد.

وعند الحديث عن التطبيع الثقافي العربي مع إسرائيل يجري المؤلف موازنة بين التطبيع عام ١٩٨٢م و ١٩٩٧م تحت عنوان «التطبيع الثقافي حوار.. أم انتحار؟»، حيث يشدد على أن المثقف هو موقف. ويستنكر حركة التطبيع التي بدأها المثقفون المصريون بعد اتفاقية كامب ديفيد ١٩٧٩م. أما نظرته إلى تطبيع التسعينيات فهي أكثر عمقًا؛ لأن مراده يتجاوز إدانة التطبيع إلى إنهاء التخلف المدني والحضاري الذي تعاني منه الأمة العربية، والكف عن الانشغال بالإدانة والشجب والاستنكار. ويختتم المؤلف باب الكتاب الأول بحالة انتحارية جديدة وهي الانتحار الفكري، وبطلها هنا هو الفيلسوف الفرنسي «جان بول سارتر»، الذي يعلن انتحاره من طريق تصريحه بعبارة تنسف فلسفته الإلحادية من الأساس.

قضايا ثقافية

وفي الأبواب الثلاثة الباقية يبتعد المؤلف عن ألوان الانتحار وحالاته، ليبدأ في الأدب العربي وقضايا ثقافية.. عربية وعالمية»، ففي الباب الثاني يطرح الأنصاري نظريتين في الخلق الفني إذ يرى أنه لابد من توافر شرطين جوهريين لأي عمل أدبي عظيم، وهما: سلامة البناء المادي للعمل (الشكل) والجوهر. ويطالب في المقالة الثانية والأخيرة في هذا الفصل بتأسيس نثر عربي جديد، لإنقاذ الأدب العربي ولاسيما الشعر العربي؛ لأن فساده من فساد خطب النثر، وأن «الإبداع يولد الإبداع، والعقم يولد العقم، والتفاهة تولد التفاهة.. ونثرنا الحالي لم يحرك غير الشعر العامي والنبطي و..السريالي!».

أما في الباب الثالث، فيغص بقراءات في الأدب العربي وأولها: «الزيات والرسالة: الناصرية قبل عبدالناصر» ويسأل الدكتور الأنصاري عن سبب التجاهل والإهمال تجاه عالم كبير مثل الزيات «بعد أن كانت رسالته الصحفية «مجلة الرسالة» مدرسة الأجيال العربية،



انتحار المثقفين العرب وقضايا راهنة في الثقافة العربية.
د. محمد جابر الأنصاري
بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط٢، ١٩٩٨م، ٢٩٦ ص

ثقافة الصورة حرمت الإنسان من الاستفادة من قدراته الذهنية التجريدية


جان بول سارتر

ورسالته القومية الفكرية من طلائع حركة التوحيد العربي المنطلق من مصر العروبة...؟»، ومن ثم يجيء دور العقاد وفكره، فيتحدث المؤلف عن شكوك مبكرة في فكر العقاد، وكيف تحول من حائر إلى مؤمن إلى داعية للإيمان؟! ويطرح الدكتور الأنصاري عدة أسئلة عن ما يسميه بالصورة العقادية المركبة. ويحلل المؤلف مجموعة أقاصيص للروائي نجيب محفوظ بعنوان «خمارة القط الأسود» تحت عنوان «بداية المرحلة الحزيرانية في الأدب العربي»، وكيفية استخدام الأسلوب الرمزي للتعبير عن آلام الهزيمة وآثارها الأليمة. وهنا أيضًا يأخذ توفيق الحكيم نصيبه من تحليل المؤلف من خلال مسرحيته «السلطان الحائر» التي ترمز لحيرة النظام الناصري في فترة كتابة الحكيم لها.

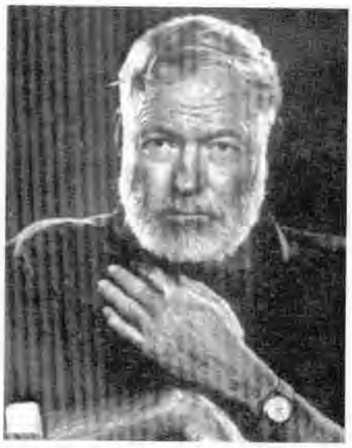
خطورة ثقافة الصورة

وفي غضون الباب الرابع، نطالع دراسات عدة تتعلق بمواضيع ثقافية منها العربي والعالمي، وتحت عنوان «ثقافة الصورة.. ومحذور التخلف العقلي للجنس البشري» يحاول المؤلف دراسة التأثير الأبستمولوجي (المعرفي) للتلفاز في الأجيال التي تعودت تلقي المعلومة، والمعرفة من شاشة التلفاز «بدل تلقيها كما اعتاد البشر عبر تاريخهم الحضاري المكتوب بالكلمة والفكرة والرمز الذهني التجريدي..»، وأن ثقافة الصورة المثلة بالتلفاز حرمت الإنسان من الاستفادة الكاملة من إمكاناته الذهنية التجريدية، ومن استخدام ملكاته اللغوية، فطغت صورة الحس على لغة المجاز. ومن ثم يتحدث المؤلف عن الفرق «بين الغزو الأيديولوجي والاستيعاب الحضاري»؛ إذ إن المسلمين يواجهون تحديًا في ساحة الصراع الأيديولوجي يختلف عن التحدي الذي يواجهونه في مضمار السباق الحضاري؛ لذا يدعو الدكتور الأنصاري لمشروع حضاري عربي - إسلامي محدد الملامح والقسمات لكي تصون الأمة وجودها، وتحقق التقدم الحضاري. وبعد ذلك يأتي موضوع «العرب والتقدم: أين الخلل؟»، وهو أحد الموضوعات الأساسية التي يهتم بها المؤلف في أعماله الفكرية على مختلف أوجهها. ولب طرحه الحضاري يتلخص في سؤاله: لماذا لم تحسم الأمة العربية مصيرها، وتكمل مسيرة نهضتها في وقت نجح فيه آخرون في الوصول إلى أهدافهم القومية النهوضية؟. ويدعو إلى امتلاك المعرفة وتقنياتها، والابتعاد عن الشعارات والأماني.

ويروي الدكتور الأنصاري وداع فرنسا لشاعرها وقصاصها لويس أراجون ذلك اليساري الذي أحب العرب، وقدّر القيم الروحية الإسلامية العربية، ويوجز نشأة أراجون وتطور فكره، ويطرح تعجبه من تعلق أراجون بالحضارة الإسلامية وقيمها. ويختتم المؤلف كتابه بمقالة عن الروائي الإنجليزي: جراهام غرين وقصته مع مدينة نيس الفرنسية، وكيف حاول فضح قضية فساد في هذه المدينة التي خلقت الكثير من الجدل حولها في فرنسا؟


جراهام جرين


لويس أراجون


إرنست هيمنجواي


عباس محمود العقاد

كتاب الدكتور الأنصاري هذا لا يمثل طرحًا جديدا له، بل هو طرح ما سبق طرحه في دراسات ومقالات ومحاضرات اختلط فيها «الوجدان» بـ «العقل»، و«الذات» بـ «الموضوع»، وهذا لا يضير مفكرًا مثل محمد جابر الأنصاري الذي لديه ما يقوله، ويحمل رسالة فكرية تقصد إلى خلق مشروع عربي - إسلامي للنهضة والتقدم. ولكن ما يبعث على الاستغراب والتساؤل هو: هل استبدل الدكتور الأنصاري نشر مقالاته وأوراقه القديمة بدراساته وأبحاثه الجديدة، وهل هذا يعني أن الدكتور الأنصاري لم يعد يملك جديداً، نأمل ألاّ يكون هذا هو العلة وراء نشر قديمه خصوصًا أن كتابه السابق لهذا «رؤية قرآنية للمتغيرات الدولية»، كان من نوع «المعاد نشره». وكلنا أمل وتطلع إلى ما في جعبة المفكر والباحث الدكتور محمد جابر الأنصاري من مشاريع مستقبلية.

العنف

في المدارس الأمريكية

مجموعة باحثين   مراجعة: محمد عبدالعليم مرسي

تعـــــدّ ظاهرة العنف VIOLENCE والتخريب VANDALISM في المدارس الأمريكية من أسوأ الظواهر التي يعاني منها المجتمع الأمريكي بصفة عامة، والعاملون في مجال التربية والتعليم على وجه الخصوص.

وحتى يتبين وجه الخطورة فيها نقول: إن الإحصاءات التي تصدر عن السلطات التعليمية، وعن أجهزة الأمن تبين أن الخسائر المادية الناتجة من هذا العنف المدرسي - إن جاز التعبير- تصل في حجمها المادي إلى مليارات الدولارات، بله تكلفتها النفسية والاجتماعية العنيفة التي يعاني منها رجال الإدارة التعليمية والمعلمون وأولياء الأمور والطلاب أنفسهم، ولا نغفل كذلك ما يعانيه رجال الشرطة في مقاومتهم للشباب الصغار المندفعين بفورات شبابهم وفتوتهم.

أما مظاهر ذلك العنف والتخريب فتظهر في الحرق والنسف والتدمير الذي يشمل معامل المدارس (معامل الكيمياء خاصة)، التي يجرب فيها الأولاد الصغار، بخاصة في المرحلة الثانوية، ما تعلموه من دروس الكيمياء وتفاعلاتها، كما يشمل مسارح المدارس ومطاعمها ومطابخها، كما تنسحب على سيارات مديري المدارس ومعلميها، وسيارات رجال الشرطة ذاتها في بعض الأحيان.

ومثل أيّ ظاهرة تعترض الحياة في المجتمع الأمريكي، أخضعها العلماء هناك للبحث والدرس وتقصّي كل الحقائق المتعلقة بها، وحاولوا أن يقفوا على أسبابها والعوامل الفاعلة فيها، وهل هي متعلقة بالتلاميذ أنفسهم، وبانحرافاتهم السلوكية فقط، أم إن هناك أسبابا لها تعود في جذورها إلى المدارس التي يتعلمون فيها؟ وهل للإدارة المدرسية دخل فيها، سواء بسبب ضعف تلك الإدارة، أم بسبب شدتها التي قد تزيد على الحد أحيانًا؟ أم إن الموضوع عائد إلى المعلمين في تعاملهم مع الطلاب في الفصول، فيكون بعضهم على الأقل السبب في ثورات نفوس هؤلاء الطلاب، بحيث يدفعون بهم إلى العنف والانفجار ضد مجتمعهم المدرسي، بل وضد المجتمع الأكبر ذاته..؟

كذلك كان هناك من العلماء والباحثين من اتجه ببحوثه ودراساته إلى المجتمع الأصلي، خارج المدرسة، فبحثوا فيه، وفتشوا عن أسباب لذلك العنف، بمعنى أنهم درسوا عينات من أسر التلاميذ وأولياء أمورهم، وهل البيوت المحطمة BROKEN HOMES، أي التي وقع فيها الشقاق والطلاق، كانت وراء انحراف الأبناء في المدارس وفي



Violence
in
American Schools

Delbert S. Elliott
Beatrix A. Hamburg
Kirk R. Williams

العنف في المدارس الأميركية
ديلبرت إليوت
بياتريكس هامبورج
كيرك ويليامز

المجتمع، أم إن وسائل الإعلام MASS MEDIA، ولاسيما التلفاز، كانت سببًا أساسيًا من أسباب الانحراف والعنف الذي تفجر في المدارس بلا حدود؟ وقد أثبتت هذه الدراسات أن الشباب الذين هم في مراحل المراهقة يقلدون ما يجري على الشاشة الصغيرة من حوادث العنف والإجرام فور مشاهدتهم لها.

ومعنى كل ما سبق أن ظاهرة العنف والتخريب ظاهرة لها جذور ضاربة في التربة الأمريكية كلها، وأنها لا يمكن إرجاعها إلى عامل واحد من العوامل الفاعلة في ذلك المجتمع الكبير الفوار بالشباب، والمتلئ والمتفجر بالحيوية، والذي يتفرّد بأعلى معدلات الدخول المادية في العالم، والذي تتاح فيه - كذلك - فرص شراء السلاح من دون ضابط يذكر، كما أن تعاطي الخمور والمسكرات فيه منطلق بلا ضابط ولا رادع، على الرغم من محاولات السلطات هناك الحد من ذلك، وعلى الرغم من البلايين التي تنفق في هذا المجال(١)، والتعاون المنقطع النظير بين قطاعات المجتمع كله، من القمة حيث الجالس في البيت الأبيض، مرورًا بالكونجرس الأمريكي وتشريعاته المتلاحقة، وباعتماداته المالية الهائلة، وكذا بالمؤسسات الكبرى في المجتمع الأمريكي، ولاسيما الجامعات ومراكز البحوث، بل والسلطات الأمنية الواعية التي أنشأت خطوطًا للتليفون ساخنة HOT LINES بينها وبين المدارس، حيث التعاون بين الجانبين أخّاذ ورائع؛ لأن الهدف هو حماية الصغار من الشباب من أخطار المسكرات والمخدرات ومآسيها بلا حدود (١).

وهذا الكتاب VIOLENCE IN AMERI-CAN SCHOOLS في حقيقة الأمر تعبير صادق عن هذه النظرة الشاملة في مواجهة ذلك العنف والتخريب والتدمير.

لقد سبقت ذلك الكتاب دراسات كثيرة جدًا، موسعة ومعمقة في ذلك المجال، ولكن معظمها ركّز على جانب من جوانب المشكلة، أما الجهد الذي نحن بصدده فهو عمل موسوعي ضخم شارك فيه عدد لا بأس به من كبار المتخصصين في مجالات عدة ومتنوعة.

وذلك كما يتضح من فصول الكتاب وكتابها.

ففي الفصل الأول، الذي جاء بعنوان VIOLENCE IN AMERICAN SCHOOLS AN OVER VIEW أي «العنف في المدارس الأمريكية.. نظرة شاملة»، كتب العلماء: ديلبرت إليوت DELBERT S. ELLIOTT وبياتريكس هامبورج BEATRIX HAMBURG وكيرك ويليامز KIRK R. WILLIAMS. وجاء الفصل الثاني بعنوان: UNDERSTAND-ING CHILD AND YOUTH VIOLENCE أي «فهم عنف الطفولة (الطفل) والشباب». وقد كتبت فيه متخصصة واحدة هي مارجريت هامسورج MAR-GARET A. HAMSURG. والفصل الثالث جاء عنوانه كالآتي: SOCIAL CON-TEXTS AND FUNCTIONS OF ADOLES-CENT VIOLENCE أي «المحتويات الاجتماعية ووظائف عنف المراهقين». وقد كتب فيه الأساتذة: جفري فاجون JEFFREY FAGON ودينا ويلكينسن DEANNA L. WILKINSEN، وعنوان الفصل الرابع هو: JUVENILE AGGRESION AT HOME AND AT SCHOOL، أي «عدوانية الحدث في المنزل والمدرسة» وهو يتعلق بالعدوان الذي يمارسه نفر من الشباب الصغار في منازلهم، ومع أفراد أسرهم سواء من الصغار أو من الكبار.

ولعلي في هذا المجال - بالتحديد - أذكر القارئ بأن ظاهرة الاعتداء على





التلميذان اللذان أثارا الرعب في كولورادو



طالبات ينتحبن بعد النجاة من حادث الاعتداء على المدرسة الثانوية بكولورادو

العنف والتخريب ظاهرة لها جذورها في التربة الأمريكية

الآباء والأمهات.. بل الأجداد والجدّات في المجتمع الأمريكي قد شاعت، وتفاقمت كظاهرة أخلاقية سيئة بل كارثة، وكتبت عنها الصحف كثيراً، وحاول بعضهم أن يتغاضوا عنها لكون حدوثها واقعاً في إطار الحوادث المتفرقة، ولكنها تفاقمت لدرجة أن الكونجرس الأمريكي شكل لجنة لبحث الحقائق حولها، وتقصّي مدى انتشارها، والكونجرس عادة لا يفعل ذلك إلا في الأمور الخطيرة، وقد جابت تلك اللجنة كثيراً من المدن الأمريكية، ودخلت بيوتاً كثيرة، وسألت أعداداً هائلة من كبار السن SENIOR CITIZENS الذين يكرمهم المجتمع، ويجلُّهم، ويحترمهم (بعد سن الخامسة والستين)، ويمنحهم الكثير من التسهيلات والتيسيرات في ركوب المواصلات العامة، ودخول المتاحف والمعارض، والغابات القومية NATIONAL PARKS إلخ... وذلك من فلسفة طيبة وكريمة مضمونها أن هؤلاء المواطنين من كبار السن قد أدّوا ما عليهم من واجبات تجاه أمتهم، وخدموا مجتمعهم قدر طاقاتهم، وبمقدار ما تحملوا، ومن هنا، فإن المجتمع يحاول أن يرد لهم بعض الجميل، كما أنه يحاول أن يجعلهم موضع التكريم والإعزاز والاحترام، ثم إنه يقول: إنه لم ينسهم، وإنه كذلك لن يفرط فيهم بسهولة ويسر، بل إنه سوف يواصل تكريمهم حتى آخر لحظة من أعمارهم.

وأعود فأقول: إن لجنة الكونجرس هذه، وبعد زياراتها المتعددة، وتقصيها للحقائق حول معاملة الشباب الصغار لكبار السن، خرجت بتقرير مذهل نشرته على الناس، وكان فحواه - باختصار شديد - أن ما وجدته كان صادماً لشعور البشر الأسوياء، بل

كان محطمًا لمشاعر الملايين من الناس الطيبين.

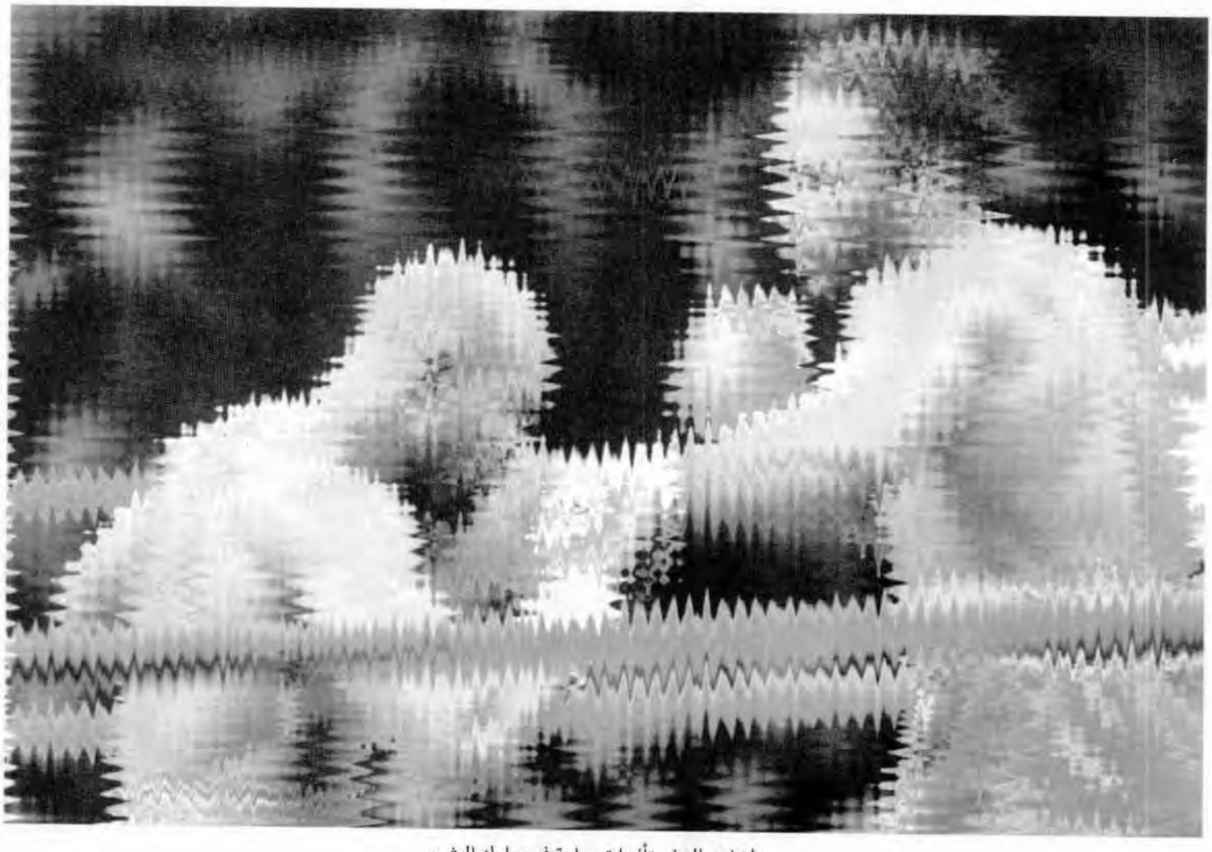
وتتعلق بقية هذا الفصل بالعدوان الذي يمارسه هؤلاء الشباب الصغار ضد إدارات مدارسهم، بل ضد معلميهم، وأحيانا ضد زملائهم، ولعل القارئ العربي ما زال يتذكر الحادثة البشعة التي ضرب فيها طفل صغير، في المرحلة الإعدادية، عدداً من زملائه وزميلاته وبعض مدرساته، بمدفع رشاش (!!!) وسقط منهم عدد كبير بين قتيل وجريح مما روع المجتمع الأمريكي بأكمله*، وأذهل ملايين من البشر كانوا يتصورون أن الحضارة الغربية تعني التقدم في الأخلاق والمثل، بجانب التقدم المادي الهائل.

أما الفصل الخامس الذي كتبه رايموند لورين RAYMOND P. LORION فقد اهتم فيه بالتعرض لظاهرة العنف في المجتمع المدني URBON ولاستشرائها في مدارسه، كما كتب فيه ستيفن مارونز STEVEN MARANS وكذا مارك شايفر MARK SCHAEFER ويبين دور المجتمع الذي يقوم بدور حفظ الأمن COMMUNITY POLICING، ويقصد هنا - بطبيعة الحال - دور المجتمع المحلي المحيط بالمدرسة على وجه التحديد، وهذان الكاتبان يهتمان كثيراً بالدور التعاوني أو التعاون بين مؤسسات المدرسة والمنزل ودوائر الأمن.

وفي القسم الأخير من هذا الفصل كتبت مارسيا شايكن MARCIA R. CHAIKEN عن البرامج التي أرسيت وفصلت بالفصل، لكي تناسب مرحلة ما بعد المدرسة، كي تقابل الواقع الفعلي للمناطق الحضرية والتي يطلق عليها AFTER SCHOOL PROGRAMS.

وخاتمة هذه الدراسة الشاملة بعنوان AN INTEGRATED APPROACH TO VIOLENCE PREVENTION ومعناه بوضوح «طريق متكامل، أو أسلوب متكامل لوقف العنف ومنعه»، وقد كتب فيه كل من ديلبرت إليوت DELBERT S. ELLIOTT وبياتريكس هامبورج BEATRIX HAMBURGE وكيرك ويليامز KIRK R. WILLIAMS.

وهذا الجزء الأخير من الكتاب هو الإضافة العلمية المتميزة التي نخرج بها من عصارات علم هؤلاء الكتّاب، ومن دون تكرار، يبين التعاون العلمي المنشود من هذه الأعمال العلمية كلها، بحيث توضع كلها في خدمة هدف نهائي ووحيد، هو الوقوف في وجه ظاهرة العنف والتخريب في المدارس الأمريكية، ليقي هذا الوقوف - عن طريق العلم والبحث العلمي - المجتمع المدرسي من ناحية، والمجتمع الكبير من ناحية أخرى، أخطار تلك الظاهرة التي تهدد الحاضر، وتوشك أن تهدد المستقبل في حياة المجتمع الأمريكي.



لمشاهد العنف تأثيرات سلبية في سلوك النشء

وهذا الجهد العلمي الرائع يبين الفائدة الكبرى التي تعود على المجتمع الكبير من تناسق جهود العلماء في عدد لا بأس به من التخصصات العلمية المتنوعة؛ فمن الصحة العامة إلى علم الجريمة ، ومن علم البيئة (بالتحديد علم العلاقة بين الكائنات الحية وبيئاتها) إلى علم نفس النمو، وكذلك العناية بأحدث البحوث العلمية التي حاولت تفسير أسباب العنف التي تجتاح الشباب الصغار في المدارس الأمريكية، وبخاصة في المناطق الحضرية، كما حاولت العمل على الحد من ذلك العنف، ولا سيما عن طريق التدخل المبكر.

لقد تناول هؤلاء العلماء، مجتمعين ومتكاتفين، العمل على وضع خطط (إستراتيجيات) لمنع ذلك العنف، أو على الأقل للحد منه قبل وقوعه، وذلك مما يتخطى ما كان معمولا به قبل ذلك من سياسات تبنت فرض العقوبات التي كان بعضها يصل حتى إلى الحبس أو الحجز.

إن هذا السفر العظيم - في مجاله - يقدم لنا خطةً جديدة لمعالجة مشكلة العنف المدرسي من خلال أهم الطرائق والوسائل، وأعظمها فاعلية في مجال التدخل لمعالجة هذه المشكلة باستخدام علوم مختلفة وشاملة، ومراعاة اختلافات مراحل النمو لدى أفراد هؤلاء الشباب، وكذلك خلفياتهم الاجتماعية، بل بيئاتهم التي أتوا منها من حيث أسرهم التي عملت على تنشئتهم، وجماعات رفاقهم PEER GROUPS التي يتعايشون معها، ويتأثرون بها، وأنواع المدارس التي تضمهم، بل جيرانهم في السكن، وكذا الجيرة التي توجد بها تلك المدارس.

ويقول ناشرو هذا الكتاب المفيد - إن شاء الله - إنه سوف ينتفع به المعلمون وإداريو المدارس، وكذا صناع السياسة التعليمية SCHOOL POLICY MAKERS،



أم إحدى الطالبات في المدرسة الثانوية بكولورادو لا تصدق نجاة ابنتها

وكذلك أولئك العاملون في مجالات الشباب المتنوعة، وبطبيعة الحال سوف يستفيد منه القارئ المثقف الذي تعنيه مشكلات مجتمعه وأمته.

إن هذا الكتاب جمع مؤلفوه بين العمق في البحث العلمي ، والخبرة العملية الواسعة في مجالات مشكلات السلوك المنحرف، ومجالات منع العنف والحد منه، وكذا مجالات الصراع النفسي وعلاقتها بالعنف والتدمير والانحراف، ومحاولات الضبط الاجتماعي، بل إن من بينهم من يرتبط عمله بمجال القضاء الأمريكي، وبعضهم ينتسب إلى جامعات أمريكية عريقة وعتيدة مثل جامعات هارفارد، وهذا يكفي.

الاعتداء على الآباء والأمهات، بل الأجداد والجدات ظاهرة أخلاقية سيئة استحقت دراسة الكونجرس

ظاهرة العنف لا تهدد الحاضر فحسب، بل المستقبل أيضًا

الهوامش:

١- يمكن في هذا المجال مراجعة كتاب: المعلم ومواجهة المخدرات، تأليف: جون إدي، ترجمة د. محمد عبدالعليم مرسي، إصدارات مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض ١٩٩١م. والمراهقون ومآسي تعاطي المسكرات، تأليف: لوريل هورتون، ترجمة د. محمد عبدالعليم مرسي ، إصدارات جامعة الملك سعود، الرياض، ١٩٩٣م.

*التحرير: حدث اعتداء مماثل في مدرسة ثانوية بولاية كولورادو الأمريكية في الأسبوع الأول من الشهر الماضي راح ضحيته ١٦ شخصًا، وأصيب ٢٥ آخرين،عندما هاجم اثنان من الطلبة زملاءهما بمدافع، ومسدسات رشاشة، ومفرقعات.

الطباعة والصحافة في حلب

سهيل الملاذي مراجعة: قسم التحرير

يقع هذا الكتاب في أربعة أبواب وخاتمة، ثم تراجم للأعلام الواردة فيه، وجدولاً بالمطابع الحلبية، وثانيًا بالصحف الحلبية الصادرة داخل حلب، وثالثًا بالصحف الحلبية الصادرة خارج حلب.

يتناول الباب الأول الطباعة والصحافة في حلب في العهد العثماني، وقد جاء في عدة فصول، تناول الفصل الأول منها: الطباعة والصحافة في حلب قبل الدستور.

والمعروف أن أهل سورية «أسبق المشارقة إلى الطبع بالأحرف العربية وأسبق المدن إلى هذا الفضل حلب»، كما ذكر ذلك جورجي زيدان في كتابه «تاريخ آداب اللغة العربية، ج٤». وتعود قصة حلب مع الطباعة إلى أواخر القرن السابع عشر عندما أسس ابن الدبّاس الدمشقي بطريك الروم الملكيين الأرثوذكس في أنطاكية والمشرق أول مطبعة تطبع بالحروف العربية.. وعلى الرغم من اتفاق المؤرخين على أن ابن الدباس هو أول من أسس مطبعة عربية في المشرق، فهم يختلفون في تاريخ تأسيسها ومصدرها ومصيرها، أما تاريخ تأسيسها فيحدده بطرس البستاني بعام ١٦٩٨م، بينما يذكر آخرون أنه كان في عام ١٧٠٢م، ويرى خليل صابات أستاذ الصحافة بكلية الإعلام في جامعة القاهرة أن إنشاءها كان عام ١٧٠٦م.

بدايات الصحافة الحلبية

أما في مجال الصحافة فقد كان قصب السبق أيضا للحلبيين، على الرغم من أن حلب لم تعرف قبل الدستور سوى ثلاث صحف ومجلة واحدة، ولم يبق منها عندما أعلن الدستور في ١٨٧٦م سوى صحيفة واحدة، وهي الصحيفة الرسمية «الفرات». وهذا يعكس الأجواء القاتمة التي كانت سائدة في بلاد الشام عموما، وفي سورية خصوصا، مما دعا السوريين إلى الهجرة خارج وطنهم، ونقلهم صحافتهم معهم.

وتعدّ صحيفة حلب الرسمية «الفرات» أقدم صحيفة في حلب، وثانية صحف سورية بعد صحيفة «سوريا» الرسمية، وقد أنشئت عام ١٢٨٤هـ / ١٨٦٧م، وعرفت في أول أمرها باسم «غدير الفرات»، وتغير اسمها بعد عامين من صدورها إلى اسم «الفرات»، بينما ظل الاسم القديم «غدير الفرات» يطلق على ملاحقها التي تصدرها عند الضرورة.

أما الفصل الثاني في الباب الأول فقد كان خاصًا بالطباعة والصحافة، في حلب بين عامي (١٩٠٨ - ١٩١٤م).

فبعد الانقلاب العثماني، وإجازة الدستور، وإطلاق حرية الصحافة انتشرت المطابع انتشاراً عظيمًا في حلب، وأصبح للكثير من الصحف مطابع خاصة بها.

ففي عام (١٩٠٨ - ١٩١٣م) أنشئت في حلب ثلاث مطابع، هي:

- مطبعة الكمال: التي أسسها عزرا حاييم جويجاتي، أحد أبناء الطائفة اليهودية، وكانت مطبعة صغيرة اقتصر

على الرغم من الكبت والقمع الذي مارسه المستعمر الفرنسي ضد الصحافة الوطنية إلا أنها لم تهن، ولم تلن، ولم تتخاذل

نشاطها على طبع المطبوعات التجارية.
- مطبعة البهاء: وقد أسست نحو عام (١٩٠٩م)، وكان مقرها قرب دار الحكومة، وهي ذات حروف عربية وفرنسية ولم تعش طويلاً.
- مطبعة لوكس: وقد أسسها جوزف ستون من طائفة اليهود نحو عام (١٩١٢ - ١٩١٣م).

أما بالنسبة إلى الصحف فقد أُلغيت الامتيازات، وأصدرت نظارة المعارف رخصاً سمحت بمقتضاها لصحف الأخبار بالصدور. وبالفعل، صدر كثير من الصحف، وأقبل الناس على قراءتها؛ لأنهم حرموا منها زمناً طويلاً في الماضي، ولكن أغلب هذه الصحف توقفت بعد فترة قصيرة من صدورها لعدة أسباب، من بينها الإفلاس. ومن الصحف التي صدرت في تلك الفترة: التقدم، وحلب الشهباء، وصدى الشهباء، ومجلة فوائد، والخطيب، والشعب مسخرة، والكشكول، والأهالي، ولسان الأهالي، والإعلان، ومجلة الوفاء، وتنوير الأفكار، ومكتبلي، والمرسح، والنهار، والصدق، والعفريت، وهوبالا، والغول، وتشبث.

الصحافة الحلبية في فترة الحرب العالمة الأولى

أما الفصل الثالث من الباب الأول فقد اختص بالطباعة والصحافة في حلب بين عامي (١٩١٤ - ١٩١٨م). ففي هذه الفترة كانت العداوة بين الاتحاديين «دعاة العنصرية والتتريك والذين يمسكون بزمام السلطة» والعرب على أشدّها، مما جعل ثورة الصحافة تخبو بعد أن التهبت بعد إجازة الدستور.

وعندما دخلت تركيا الحرب إلى جانب الحلفاء حاولت استرضاء العرب، ولكنها أخفقت في ذلك، وحدث من المشكلات ما عجّل بإعلان العرب الثورة العربية الكبرى التي انطلقت من مكة، وخرجت بلاد الشام من حكم العثمانين في تشرين الأول /أكتوبر عام ١٩١٨م. وقد تأثرت الصحافة كثيراً من أجواء هذه الحرب؛ وذلك لانعدام الورق ومدخلات الطباعة الأخرى.

أما الفصل الرابع، وهو الأخير في الباب الأول فقد جاء بذكر ملاحظات عامة عن الطباعة والصحافة في العهد العثماني.

يقول المؤلف إن العثمانيين كانوا يرون الطباعة أكبر عدوٍّ لهم، لأن فيها بارقة وعي تشرق في أذهان الشعوب المحكومة، وتصلهم بأجواء الوعي الفكري الذي كان يصطخب في دنيا الغرب؛ مما ينذر بتمرد هذه الشعوب وخروجها عن النفوذ العثماني.

ولكن الدولة العثمانية أجبرت، رغما عنها، على قبول دخول الطباعة إلى البلاد العربية؛ لأن للدول الغربية نفوذًا دينيًا وسياسيًا في المنطقة، فدخلت الطباعة عن طريق رجال الدين المسيحي، وحاول العثمانيون جاهدين إبقاءها بعيدة عن متناول أيدي المسلمين، وهذا يفسر فيض الكتب الدينية المسيحية التي صدرت عند أول إنشاء المطابع، وقد اضطر الحلبيون من جراء ذلك إلى قراءة الكتب باللغة التركية أو الكتب القادمة إليهم من خارج بلادهم.

وكان عهد السلطان عبدالحميد هو عهد الكبت الحقيقي للصحف والصحافة، فقد علق الدستور، وأصدر عدداً من اللوائح والمراسيم التي تكبح حرية الصحافة، ولم يسمح بإصدار مجلة أو صحيفة نسائية لأن ذلك خروج عن الديانة والعادات الاجتماعية الإسلامية، كما منع أيضاً إصدار أي مجلة أدبية دورية، وقد دعا ذلك كثيراً من الصحفيين إلى الهجرة خارج بلادهم.

ومع أن هذه الإجراءات القمعية أضعفت الحركة الأدبية والصحفية في



الطباعة والصحافة في حلب

سهيل الملاذي

دمشق: دار يعرب للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٦م، ٧٢٣ص.



السلطان عبد الحميد

حلب، إلا أنها أسهمت في النهضة الفكرية العربية الحديثة.

وعموماً يمكن أن نقول عن صحافة حلب في العهد العثماني - حسب رأي المؤلف - : إنها بدأت كصحف تجارية تهتم بالكسب المادي، وتكيل الثناء للحكام وأتباعهم، ويتم ذلك بلغة ضحلة وطباعة رديئة.. ولكن هذا الحال تبدل بعد إجازة الدستور، فظهر المقال، والتحقيق الصحفي، وعُرفت وظائف المخبر والمراسل والمحرر.

أما الباب الثاني فقد جاء الفصل الأول منه مختصاً بالطباعة في حلب في العهد الفيصلي (١٩١٨ - ١٩٢٠م): وقد واجهت الطباعة في سورية مشكلات عدة خلال الحرب العالمية الأولى، فقد شدد عليها الأتراك الخناق، وسدوا عليها المنافذ، وحرموها من مدخلات الطباعة من حبر وورق وغيرها، ولكن الحال تبدل بعد نهاية الحرب، فتحسنت أحوال الطباعة، وقام كثير من المطابع، مثل: المطبعة المارونية، ومطابع المعارف، والكمال، ولوكس ،والثبات، وغيرها.

هذا في سورية عموماً، أما في حلب نفسها فلم تظهر مطابع جديدة خلال هذا العهد، فلم تكن حلب في حاجة إلى إنشاء مطابع جديدة، فقد كان يكفيها أن تبعث النشاط في المطابع القديمة التي أسست من قبل، والتي جمدّها أو أوقفها عن الصدور العثمانيون.

أما الفصل الثاني من الباب الثاني فقد جاء عن الصحافة في حلب في العهد الفيصلي (١٩١٨ - ١٩٢٠م). فقد عادت إلى الصحافة العافية، وزال كل ما فرضه عليها الأتراك من رقابة وتشديد، هذا ما كان من أمر الصحافة بصفة عامة في سورية، أما في حلب فقد كان الأمر فيها عكس ما كان عليه بالنسبة إلى المطابع فقد صدر فيها كثير من الصحف، وكان أكثرها ذيوعاً وانتشاراً صحف: العرب، والراية، والمصباح، وحقوق البشر، والوطن، والصاعقة، والنهضة والبريد السوري، وغيرها.

وفي الفصل الثالث من الباب الثاني ذكر المؤلف ملاحظات عامة عن الطباعة والصحافة في العهد الفيصلي (١٩١٨ - ١٩٢٠م).

ويمكن أن نطلق على هذا العهد بصفة عامة صفة العهد الذهبي للصحافة في سورية، فقد اتفق رأي الحكومة ورأي الصحافة في التصدي للأخطار الخارجية، والدعوة إلى الوحدة العربية، ومؤازرة الحكم الجديد، والتنديد بالأتراك، ولم تختلف الصحافة مع الحكومة إلا في نطاق ضيق جداً. ولم تبخل الحكومة على الصحافة، بل رعتها، وأمدتها بالمال، وأعانتها على الصدور.

أما الباب الثالث فقد أفرده المؤلف للطباعة والصحافة في عهد الانتداب الفرنسي (١٩٢٠ - ١٩٤٦م)، وجاء الفصل الأول منه خاصاً بالطباعة في هذا العهد.

فقد وقعت سورية ضحية اتفاقية سايكس بيكو التي دخلت بموجبها تحت الانتداب الفرنسي، والذي استمر زهاء ستة وعشرين عاماً، إلى أن تم جلاء القوات الأجنبية عن الأراضي السورية في ١٧أبريل/نيسان١٩٤٦م.

كانت سياسة المندوبين الفرنسيين تختلف من مندوب إلى آخر، وكانت تراوح بين المهادنة المؤقتة والبطش والقسوة، وكان لهذه المواقف المتنوعة انعكاس واضح على الصحافة في سورية.

تميزت هذه الفترة بكثرة المطابع والصحف الأرمنية، وقصة الطباعة



أهل سورية أسبق المشارقة إلى الطبع بالأحرف العربية وأسبق المدن إلى هذا الفضل حلب

والصحافة الأرمنية في حلب قديمة، فقد بدأت منذ عام ١٨٦٨ ـ ١٨٦٩م في جريدة «فرات» الرسمية الأسبوعية حيث خصصت بعض أقسامها للكتابة باللغة الأرمنية. ومع أن هذا القسم أُلغي سريعًا، إلا أن علاقة الأرمن بالصحافة والطباعة في سورية ظلت مستمرة ومتصلة. وقد ازدادت هذه العلاقة رسوخًا بعد المجازر التي تعرض لها الأرمن في الأعوام (١٨٩٤ ـ ١٨٩٦)، (١٩٠٥م)، (١٩٠٩م)، و(١٩١٥م).

وبعد نهاية الحكم العثماني نشطت مشاركة الأرمن بصورة أكبر، وزادت المشاركة في عهد الانتداب، وخصوصا في عهد الانقلاب الذي قام به مصطفى أتاتورك، والذي نجم عنه نزوح أعداد كبيرة من الأرمن إلى حلب، وقد قام الأرمن بإنشاء ٢٨ مطبعة في حلب بالإضافة إلى دخول الحروف الأرمنية إلى بعض المطابع العربية.

عهد الانتداب الفرنسي

أما الصحافة في حلب في عهد الانتداب الفرنسي (١٩٢٠ ـ ١٩٤٦م)، والذي خصص له المؤلف الفصل الثاني من الباب الثالث، فلنبدأها بعهد الجنرال غورو، ففي عهد هذا الجنرال توقفت جميع الصحف التي كانت تصدر في العهد الفيصلي، وأغلقت أبوابها، وسافر بعض أصحابها، ولحقوا بالملك، وظل الباقون في منازلهم ما عدا جريدتي «الفتى العربي»، التي وزّعت عددًا خاصا عند دخول الجيوش الفرنسية هاجمت فيه العهد الماضي، وجريدة «المقتبس».

وعمومًا يمكن أن نقول عن الطباعة في حلب في عهد الانتداب: إن كثيراً من المطابع الحديثة قد نشأت، إلا أنها ـ مع كثرتها في رأي المؤلف ـ لم تخدم الأدب والثقافة بقدر ما خدمت السياسة والتجارة.

نوّه المؤلف بالدور البارز والرائد الذي قام به الأرمن في حلب في إغناء حركة الصحافة والطباعة. وعلى الرغم من الكبت والقمع الذي مارسه المستعمر الفرنسي ضد الصحافة الوطنية إلا أنها لم تهن، ولم تلن، ولم تتخاذل، فقد كانت «صحافة كفاح ونضال، لا صحافة مظهر ونشر أخبار».

في عهد الاستقلال

أما الباب الرابع والأخير فقد أفرده المؤلف للحديث عن الطباعة والصحافة في حلب في عهد الاستقلال (١٩٤٦ ـ ١٩٨٠م) متناولاً أولاً ـ الصحافة منذ الجلاء في ١٩٤٦/٤/١٧م حتى الانقلاب الأول في ٣٠ مارس/ آذار ١٩٤٩م.

فبعد الاستقلال تغيّر محور النشاط السياسي، ووجد الحكام من رجال الكتلة الوطنية «الحزب الوطني»، وجدوا أنفسهم أمام مواجهة صعبة مع المعارضة التي دعت إلى الوحدة مع العراق، واستمر الصراع بين الحكام والمعارضة حتى كان الانقلاب الذي قاده حسني الزعيم في ١٩٤٩/٣/٣٠م، فاتحاً موجة من الانقلابات في سورية.

ثانيا ـ الصحافة منذ الانقلاب الأول في ٣٠مارس/ آذار ١٩٤٩م حتى قيام الوحدة في ٢٢فبراير/ شباط ١٩٥٨م. فقد أصدر قائد الانقلاب الجديد حسني الزعيم عدداً من القرارات، فأقال عدداً من المسؤولين، وأعلن بعض الإصلاحات الداخلية ليكسب التأييد لحكمه الجديد، كما أصدر عدداً من المراسيم أوقف بموجبها عدداً من الصحف والمجلات، وشكّل لجنة خاصة لتقدير التعويضات المناسبة لأصحاب هذه الصحف والمجلات.

وحين حاول الزعيم التوجه نحو الوحدة مع العراق، وجد هذا الأمر معارضة قوية من الجيش الذي قام بانقلاب عسكري أطاح بالزعيم، وعاد من جديد للاقتراب من أمريكا ومصر.


مصطفى كمال أتاتورك


سلطان باشا الأطرش

وفي عام ١٩٥٤م عاد لسورية الحكم الديمقراطي بعد موجة الانقلابات العسكرية، وقد كانت الصحافة طيلة فترة الانقلابات العسكرية «أمام أمرين لا ثالث لهما، إذ كان عليها إما أن تسبح بحمد كل انقلاب، وتجعل نفسها داعية لزعيمه؛ وإما أن تحتجب من تلقاء نفسها، وإذا لم تحتجب كان زعيم الانقلاب يصدر أمره بإقفالها وزج صاحبها في السجن دون محاكمة أو تبرير، كما حدث لكثير من صحفيي دمشق وحلب».

ثالثا - الصحافة في عهد الوحدة، من ٢٢فبراير/ شباط ١٩٥٨م إلى ٢٨سبتمبر/ أيلول ١٩٦١م، قامت الوحدة بين مصر وسورية في ٢٢ديسمبر/كانون الأول ١٩٥٨م، وقد واكب ذلك كثير من التغيرات في تركيبة بنية الدولة والمجتمع، وحلت الأحزاب نفسها، وقام مكانها تنظيم سياسي واحد هو «الاتحاد القومي».

وكان لابد من تنظيم مهنة الصحافة حتى تواكب هذه التغيرات، فصدرت قوانين ومراسيم وقرارات تحد من سيطرة رأس المال على الصحافة، وتربطها بالنظام الحاكم وتوجهاته السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وألغيت كثير من الصحف، وأصبح الأمر مقتصراً على صدور ست صحف في دمشق، وصحيفة واحدة في حمص، فضلاً عن عدد من المجلات الحكومية».

رابعًا- الصحافة في عهد الانفصال ٢٨سبتمبر/ أيلول ١٩٦١م - ٨ مارس/ آذار١٩٦٣م:

وفي ٢٨سبتمبر/ أيلول ١٩٦١م، ألغيت الوحدة مع مصر وألغيت تبعًا لذلك القرارات المصاحبة لها، وعاد الوضع كما كان عليه قبل الوحدة.

خامسًا- الصحافة في المرحلة الراهنة ٨ مارس/ آذار١٩٦٣م وحتى عام ١٩٨٠م

أصدر المجلس الوطني لقيادة الثورة قراراً بإيقاف كل الصحف والمطبوعات ومنع صدورها إلا بإذن مسبق ، عندها انطلق بعض المتظاهرين نحو مقار الصحف الانفصالية وأحرقوها. ووجهت السلطة الحاكمة الإعلام لشرح أفكارها، والترويج لها، والدفاع عنها.

وبالنسبة إلى مدينة حلب، فمنذ صدور صحيفة «الجماهير العربية» في أول فبراير/ شباط ١٩٦٥م حتى وقتنا الحاضر لم تصدر أية صحيفة أخرى، وبقيت هي الصحيفة السياسية الوحيدة في حلب، وصارت كل الصحف والمجلات تلتزم الخط السياسي المؤيد

ارتفع عدد الصحف والمطابع في سورية كلها بعد الاستقلال بعد أن زالت كل المعوقات التي وضعها الاستعمار الفرنسي

للدولة، وهي لا تتبع أي فرد بل تملكها مؤسسات حكومية، أو تنظيمات شعبية، وأصبح الصحفيون موظفين تابعين للقطاع العام في الدولة.

ثم أجمل المؤلف ملاحظات عامة عن الطباعة والصحافة في عهد الاستقلال في الفصل الثالث من الباب الرابع.

فقد ارتفع عدد الصحف والمطابع في سورية كلها بعد الاستقلال بعد أن زالت كل المعوقات التي كبلتها أيام الانتداب أو الاستعمار الفرنسي.

وفي هذا العهد أيضًا تحولت الصحافة إلى صحافة تجارية، وذلك مع تطور أهمية الإعلان التجاري. وكانت بعض الصحف تنشر المواضيع المثيرة جرياً وراء الكسب المادي، ولكن هذا الوصف لا ينطبق على كل الصحف، فبعض الصحف كان ممتازاً ورصيناً.

وفي الخاتمة يذكر المؤلف «أن حلب كانت رائدة في مجال الطباعة والصحافة، وكانت أسبق بلاد الشرق لفتح نوافذها لرياح الحضارة الغربية ومن ثم كانت أسرع للأخذ بهذين الفنين».

في نهاية الكتاب ذكر المؤلف تراجم موجزة لأعلام الكتاب. ثم أورد جدولاً بأسماء المطابع الحلبية ذاكراً اسم المطبعة، ومؤسسها، وتاريخ بدايتها وتاريخ نهايتها، والتحولات الطارئة التي مرت عليها، بادئًا بأول مطبعة «الدبّاس»، التي أسست عام ١٧٠٢م وانتهت عام ١٧٢١م، ومنتهيًا بآخر مطبعة «بصمة حيان»التي أسست عام ١٩٨٠م، ومازالت مستمرة حتى الآن، حاصراً بذلك ١٤٠ مطبعة.

ثم يعطي قائمة بأسماء الصحف الحلبية داخل حلب، ذاكراً اسم الصحيفة، واسم مؤسسها، وبداية عملها وانتهاءها، بادئًا بأول صحيفة «فرات»، التي تأسست عام ١٨٦٧م واستمرت حتى عام ١٩١٨م، وآخر صحيفة «اقتصاديات حلب»، التي تأسست عام ١٩٨١م ومازالت مستمرة. فيصل الرقم إلى ٢٣٦ صحيفة داخل حلب.

أما الصحف الحلبية التي تصدر في الخارج فبدأ بأول صحيفة مهاجرة «مرآة الأحوال» التي صدرت في الأستانة عام ١٨٥٤م، واستمرت عاماً ونصف العام. ومنتهيًا بآخر صحيفة حلبية في الخارج «أرفه» والتي تأسست عام ١٩٨١م، وهي تصدر في سويداد بوليفار (فنزويلا) ومازالت مستمرة بالعربية والإسبانية ليصل الرقم إلى «٢٠ صحيفة حلبية في الخارج». ثم ختم الكتاب بثبت المصادر والمراجع.

نظامي «الكنوز الخمسة» وفن المنمنمات

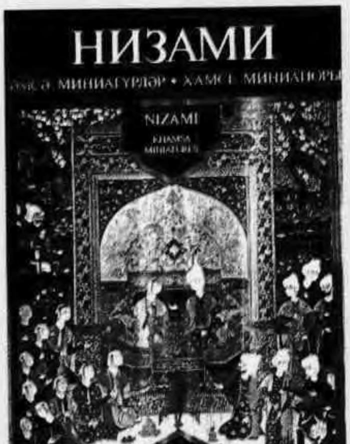
كريم كريموف   مراجعة: هاشم حمادي

قد يكون هذا الكتاب، الذي تضعه «الفيصل» بين أيدي قرائها، فريداً من نوعه، ونسيج وحده، فهو يجمع بين الكلمة المنطوقة والصورة الناطقة، ويسلط الأضواء على الموروث الشعري لواحد من عمالقة الشعراء الفلاسفة المسلمين، الذين انتشروا في مشارق الأرض ومغاربها، ويحاول قراءة هذا الموروث من خلال ترجمته إلى الصورة الحية، التي أبدعتها ريشة كبار الخطاطين والفنانين المسلمين، على مدى عدة قرون، إنه قراءة فنية في هذه الملاحم الخالدة، ومحاولة لرصد التزاوج بين الأدب والفن.

الكنوز الخمسة

يتميز فن المنمنمات بغنى ألوانه وتنوع موضوعاته، والتركيز على أمات الكتب، وبخاصة ملاحم الفردوسي ونظامي، فلا غرابة أن ينسب إلى هذين العملاقين الفضل الكبير في تطور فن صناعة المخطوطات، واتساع جغرافية انتشاره، وظهور جيش من الخطاطين والنقَّاشين والمذهِّبين والمجلِّدين الذين تركوا للأجيال اللاحقة هذا العدد الكبير من المخطوطات الإسلامية التي لا تقدر بثمن، ومن بينها كنوز نظامي الخمسة، التي تركت بصمات لا تمحى على مسيرة الأدب والفن في الشرقين الأدنى والأوسط، وشكلت معيناً لا ينضب لإلهام كثير من أساطين الأدب، ومصدراً يستقي منه الفنانون موضوعات إبداعهم.

وإنه لمن الصعوبة بمكان تحديد تاريخ ظهور الأعمال الفنية الأولى، المقتبسة من «الكنوز الخمسة»، لكن الراجح أن عمر هذه الأعمال لا يقل عن عمر الملاحم نفسها إلا قليلاً. فحتى عهد غير بعيد كان الاعتقاد السائد أن أقدم مخطوطات نظامي المعروفة هي تلك المحفوظة في المكتبة الوطنية في باريس، والتي تعود إلى عام ١٣٦٠م، وأن أول منمنمة هي تلك التي تزين كتاب: مبحث الوجود «الأنتولوجيا»، والتي تعود إلى عام ١٤١٠م. لكن المعروف الآن أن ثمة مخطوطة نظامية أقدم من «الكنوز



نظامي
الكنوز الخمسة والمنمنمات
كريم كريموف
باكو:١٩٨٣م

الخمسة» تعود إلى عام ١٣١٨م، وهي تلك المحفوظة في جامعة طهران، وأنها أقدم منمنمة قد ظهرت في ستينيات القرن الرابع عشر الميلادي، وتزيّن المخطوطة الآنفة الذكر.

ومع هذا فإن بعض الباحثين المتخصصين في موروث نظامي، يعتقدون بوجود مخطوطات ومنمنمات أقدم.

على أن أحد أقدم الأعمال الفنية المستوحاة من ملاحم نظامي الخمس، هو ذلك الصحن الخزفي، المصنوع عام ١٢١٠م، والمزخرف بأحد المشاهد المقتبسة من ملحمة «خسروف وشيرين»، حيث يطالعنا خسروف وهو يتأمل شيرين.

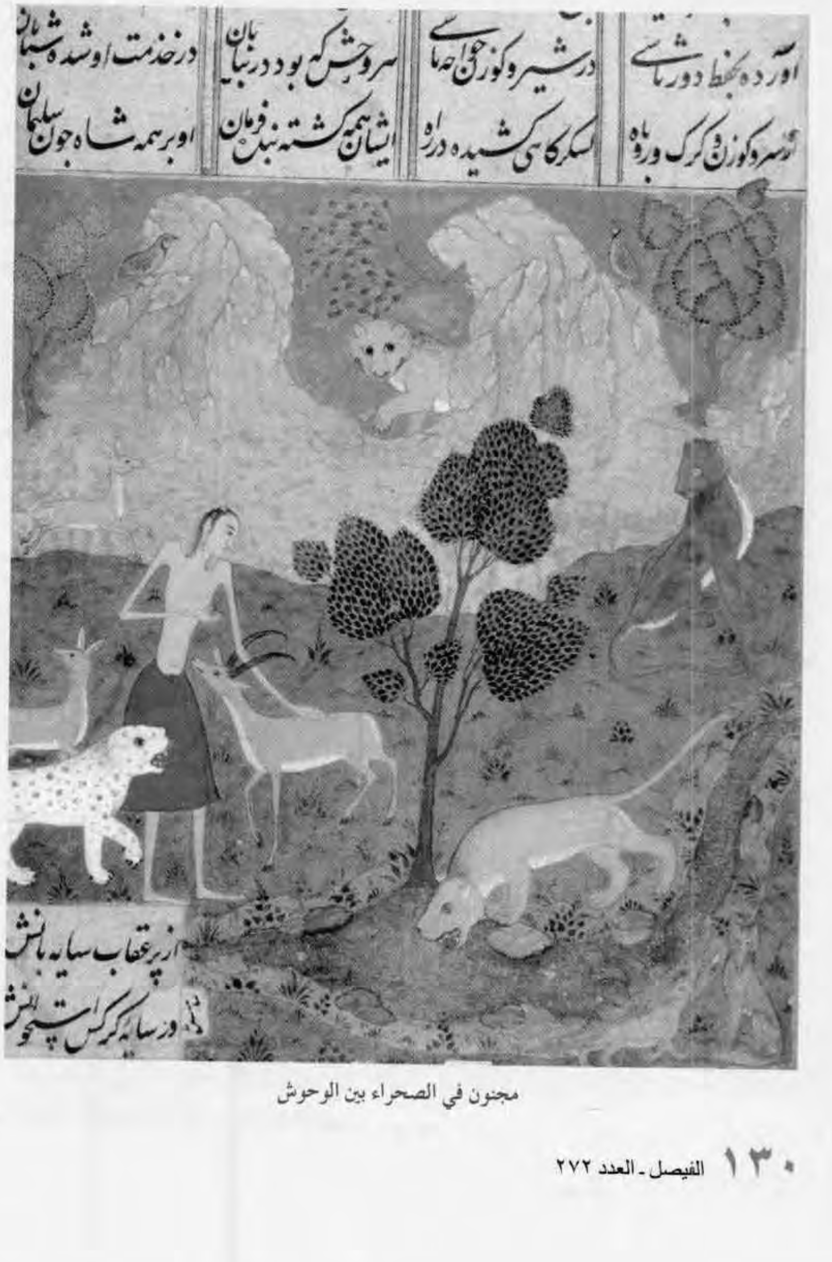
وإلى هذه الفترة بالذات - العقد الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي - يعود صنع الإبريق الفخاري الذي عثر عليه في هاوز - خانا «جمهورية تركمانيا»، والإبريق مزدان بصورة العملاق فرحات، وهو يشق الجبل، لإنقاذ شيرين من السقوط عن جوادها. وفيما بعد أصبحت صورة فرحات، وهو يحمل الجواد والفارسة بيديه الجبارتين، أحد الموضوعات التقليدية في فن المنمنمات.

النظاميات في فن المنمنمات

تزامن العصر الذهبي لـ «الكنوز الخمسة»، من حيث اتساع نطاق شهرتها، مع بداية عصر النهضة، ففي القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين راحت مدارس المنمنمات الشرقية تتبارى فيما بينها في زخرفة مؤلفات اثنين من عمالقة الأدب الشرقي - «الشاهنامة» للفردوسي، و«الكنوز الخمسة» لنظامي. ومن المعروف أن مخطوطات الملاحم النظامية تحتل، من حيث عدد المنمنات المقتبسة منها، المرتبة الثانية بعد «الشاهنامة»، وأن هذه المخطوطات تشكل تحفًا فنية نادرة في كنوز أكبر المتاحف والمجموعات الخاصة في باريس ولندن ونيويورك وواشنطن وإستانبول وطهران، والقاهرة، وباكو، وبطرسبورغ، وغيرها من العواصم العالمية. ويعود معظم هذه المخطوطات إلى القرون ١٤-١٧م، وهي مزخرفة برسوم مختلف المدارس الفنية: الشيرازية، والتبريزية، والمشهدية، والأصفهانية، والبخارية، وغيرها.

على أن أوسع هذه المخطوطات شهرة، وأكبرها أهمية وقيمة من الناحية الفنية، تلك التي تعود إلى عام ١٤١٣م، والمحفوظة في متحف «الأرميتاج» في بطرسبورغ، والمزدانة بـ ٥٦ منمنمة، ثم مخطوطة ١٤٩٠م المزدانة بـ ٥٦ منمنمة، والمحفوظة في متحف فنون شعوب الشرق في موسكو، تليها مخطوطة ١٤٩٤ - ١٤٩٥م، المزدانة بروائع المنمنمات، بريشة الفنانَيْن البارزين بيهزاد وقاسم علي، والمحفوظة في المتحف البريطاني. ثم مخطوطة مدرسة بخارى، وغيرها.

ولا بد من الإشارة أيضًا إلى مخطوطة ملحمة «خسروف وشيرين»، التي تعود إلى مطلع القرن الخامس عشر، والموجودة في غاليري فرير بواشنطن وإلى النسخة المشهورة من «الكنوز الخمسة»، التي تعود إلى



مجنون في الصحراء بين الوحوش



خروف يحمل جواد شيرني

عام ١٥٣٩ - ١٥٤٣م والموجودة في المتحف البريطاني بلندن، وإلى المخطوطة النادرة جداً لهذه الكنوز، التي تعود إلى عام ١٤٨١م، وهي من مقتنيات متحف توبكابا بإستانبول»، المزخرفة بمنمنمات مدرسة تبريز في نهاية القرن الخامس عشر، وبداية القرن السادس عشر.

ويتفق الخبراء على أن مخطوطة ١٥٣٩ - ١٥٤٣م، المحفوظة في المتحف البريطاني، والتي كتبت خصوصاً للشاه طهماسب الأول، من أفضل المخطوطات، وأن منمنماتها من أروع ما أبدع الفنانون، ليس على مستوى مدرسة تبريز في أوج

ازدهارها فقط، بل في مجمل فن الزخرفة الشرقي، في القرن السادس عشر.

كنوز الأسرار

يختلف الباحثون في تقدير عدد المخطوطات النظامية المنمنمة، كما يختلفون في تقدير عدد المنمنمات، التي تزينها، حيث يشير «دليل منمنمات ملاحم نظامي»، الصادر في لينينغراد عام ١٩٧٨م، إلى أن عدد هذه المنمنمات يربو على الألفين، لكن هذا الرقم متواضع جداً، إذ يوجد في متحف إستامبول وحده ٦٧ مخطوطة نظامية، يربو عدد منمنماتها على ١٦٠٠ منمنمة.

ولابد من الإشارة إلى أن حظ ملاحم نظامي من النمنمة ليس واحداً. فبعضها لم يحظ إلا بنصيب ضئيل من الزخرفة، بينما تجاوز نصيب بعضها الآخر كل الحدود، وفاق كل تصور، ومن البدهي أن أقل نسبة من الزخرفة كانت من نصيب «كنوز الأسرار»، بسبب مضمونها الوعظي - الفلسفي الجاف، لكنّ كلاً من المقالات العشرين، الواردة في هذه «الكنوز»، كانت تنتهي بحكاية تلخص مضمونها، وهذه الحكايات بالذات هي التي سمحت للفنانين بتجسيد أفكار الشاعر الإنسانية الداعية إلى العدل والمساواة، وفي طليعة هذه الحكايات تأتي «السلطان سنجار والعجوز»، و«أنو شروان وحديث البومين»، و«الطاغية والشيخ العادل»، و«مباراة الحكيمين».

خسروف وشيرين

حظيت هذه الملحمة، التي اقتبسها الشاعر من الوقائع الساسانية، والحكايات الشعبية بعدد هائل من المنمنمات، ولا غرابة في ذلك، إذ استطاع الشاعر أن يرسم فيها للمرة الأولى، الطبيعة البشرية بشكل واقعي، ومتعدد الجوانب، بكل ما يميزها من تناقضات وتبدلات.

كتب نظامي هذه الملحمة عام ١١٨١م، ولم يمض على ظهورها عقود ثلاثة حتى انتشرت على نطاق واسع، ليس بين أوساط الشعراء وعشاق الشعر فقط، بل بين الفنانين، لا في مسقط رأس الشاعر فحسب، بل بعيداً جداً عن حدود بلاده.

والواقع أن نظامي لم يكرر أيّاً من الروايات المعروفة لهذه الحكاية الشعبية، بل أبدع ملحمة جديدة تماماً، ملحمة الحب، القادر على تذليل كل الصعاب، ومن هنا جاء اهتمام فناني المنمنمات الكبير بهذه الملحمة وإكبابهم على تصوير أبطالها - خسروف، وشيرين، وفرحات.

ليلى ومجنون

تعد ملحمة «ليلى ومجنون» من روائع الأدب العالمي، وقد كان تأثيرها في تطور الأدب والفن أكبر من تأثير أي من الملاحم النظامية الأخرى، فلا غرابة أن تحظى بمثل هذه الشهرة، التي طبّقت الخافقين، ولا غرابة أن تصبح الموضوع المفضل لفن المنمنمات، حتى إنه يصعب تحديد عدد الأعمال الفنية التي اهتمت بتخليد هذه الملحمة، التي تروي قصة حب طاهر، وأدّته التقاليد البالية، واغتالته قوى الشر والبغضاء. ولم يترك الفنانون شاردة ولا واردة من هذه الملحمة إلا صوروها، بدءاً من ليلى والمجنون في الكتّاب، وانتهاء بموت العاشقين البائسين، ولعل من أوسع هذه المنمنمات شهرة «مجنون في الصحراء بين الوحوش»، و«لقاء مجنون وليلى»، و«لقاء مجنون مع أبيه»، و«مجنون أمام خيمة ليلى»، و«اللقاء الأخير»، و«مجنون على قبر ليلى».

الحسناوات السبع

استلهم الشاعر موضوع هذه الملحمة من القص الشعبي عن بهرام القدام وبطولاته ومآثره. فقد بنى بهرام شاه لزوجاته الأميرات السبع، قصراً رائعاً بسبعة أجنحة، لكل جناح لونه المناسب لأحد أيام الأسبوع، وللكوكب المرتبط به، وفي كل يوم كان بهرام يقصد أحد الأجنحة السبعة، حيث تروي له زوجته الأميرة حكاية مسلية.

في البداية كان اهتمام الفنانين من جميع الدارسين يقتصر على تصوير مجالس بهرام وزوجاته، من دون تجاوز هذا الإطار، لتصوير حكايات الأميرات، لكن بعض الفنانين لم يلبث أن تمرد على هذا القانون، وبدأت تظهر المنمنمات «المتمردة»، ولعل أفضلها تلك التي تعود إلى مطلع القرن السادس عشر، والتي أبدعتها ريشة اثنين من كبار فناني مدرسة تبريز.

إسكندر نامه

جاءت هذه الملحمة الخامسة والأخيرة، غنية بالموضوعات المسلية والممتعة، وقد قصدت إلى تصوير حياة الإسكندر المقدوني ومآثره، ليس كفاتح وغاز، بل بوصفه بطلاً ومحرراً، وقائداً إنسانياً عادلاً، وهذا ما يتجلى بكل إقناع في تلك المنمنمات التي تصوره عند احتضار داريوس.

هذا ويخصّص الفنانون الكثير من زخارفهم لرصد مغامرات الإسكندر ورحلاته، بما فيها البحرية، مما رفد فن المنمنمات بعدد من الأعمال الجديدة، سواء من حيث الشكل أو المضمون، وساهم في تطوير الأجناس المستقاة من واقع الحياة اليومية.

أخيراً فإن فن المنمنمات مدينٌ بالكثير لملاحم نظامي والفردوسي، وهذه الملاحم مدينةٌ - بدورها - لهذا الفن، الذي وسع رقعة انتشارها، وساهم في تخليدها.

إمبراطوريات الرياح الموسمية

١٠٠٠ عام من تاريخ المحيط الهندي

ريتشارد هول　　مراجعة: كامل يوسف حسين

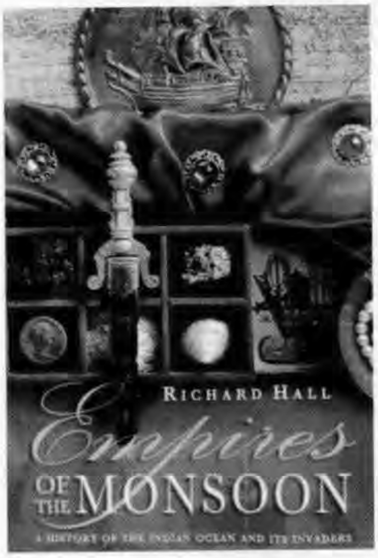
نادراً ما تحمل دور النشر العالمية الى قرائها كتاباً في أهمية كتاب «إمبراطوريات الرياح العالمية: «تاريخ المحيط الهندي وغزاته» الذي أصدرته دار هاربر كولنز اللندنية للباحث البريطاني ريتشارد هول، مؤخراً، في ٥٧٥ صفحة مزوداً بالخرائط والصور وقوائم المراجع والإحالات والإشارات المطولة.

والمؤلف، ريتشارد هول، ارتحل طويلاً في أرجاء المحيط الهندي، واشتهر كاتباً متخصصاً في التأريخ لأحداث هذا المحيط، وإفريقية بشكل خاص. وقد أمضى ثلاثة عشر عاماً في إفريقية، عمل خلالها رئيساً لتحرير صحيفة «تايمز أوف زامبيا»، وعمل مراسلاً لـ «الأوبزرفر» لشؤون الكومنولث، وكاتبا في «الفاينانشيال تايمز»، وأصدر نشرة «أفريكا أناليسيس» المتخصصة في الشؤون الإفريقية، ونشرت له مجموعة من الكتب، منها: «اكتشاف إفريقية»، و«ستانلي: المكتشف المغامر»، و«تاريخ زامبيا»، و«ثمن المبادئ الغالي».

ويقع كتاب «امبراطوريات الرياح الموسمية: تاريخ المحيط الهندي وغزاته» في ثلاثة أجزاء يضمها مجلد واحد، الأول بعنوان: «عالم قائم بذاته» يلقي الضوء على تاريخ تفاعل القوى السياسية والاقتصادية في المحيط الهندي، والثاني بعنوان «مدافع العالم المسيحي» ويبرز بصفة خاصة انقطاع التطور الطبيعي للحياة في المحيط بفعل الغزو البرتغالي، ثم تدفق باقي القوى الأوربية إلى مياهه، والثالث بعنوان «تبعية مفروضة»، ويوضح أوضاع المحيط الهندي حتى اليوم، ليكتمل تأريخ ألف عام من حياة هذا المحيط.

وجوهر هذا الكتاب هو الاقتناع بأن عناصر الجغرافيا، ممثلة في الرياح الموسمية قديماً، وفي ما تواصل اليوم فرضه من علاقات ومصالح نابعة من الجوار، هي التي حسمت مصير مليارين من البشر أو أكثر، في الماضي، وستتحكم الجغرافيا في مصيرهم في المستقبل، وهم ينطلقون لتحقيق مصالحهم، وليس التاريخ.

هذه الرؤية هي نفسها التي تدفع المؤلف في ختام الكتاب إلى القول: إنه بعد أربعين عاماً من ملحمة السويس، فإن شرق إفريقية يجد من المحتم عليه - اقتصادياً في المقام الأول - أن يوثق علاقاته مع آسيا، وليس مع أوربا. وهو



إمبراطوريات الرياح الموسمية:
تاريخ المحيط الهندي وغزاته

EMPIRES OF THE MONSOON
A HISTORY OF THE INDIAN AND
ITS INVADERS

ريتشارد هول
لندن: هاربر كولينز

HAPER CALLINS PUBLISHER
,77 - 85 FULHAM PALACE ROAD,HAMMERSMITH,
LONDON W6 8JB ،

٢١ نوفمبر / تشرين الثاني
١٩٩٦م،٥٧٥ص.



يرى أن هذا تطور منطقي وطبيعي، فالأرض الممتدة من البحر الأحمر إلى رأس الرجاء الصالح عندما تتقارب اليوم مع آسيا إنما تعيد أصداء ألف عام من التقارب، الذي استمر إلى أن قطعه التدخل الاستعماري الغربي بشكل تعسفي، وأنه من هنا عندما بنى الصينيون أول خط للسكك الحديدية من إفريقية المستقلة، والذي امتد ألف ميل من دار السلام إلى زامبيا، إنما كانوا يرددون أصداء زيارات قامت بها إلى إفريقية الشرقية، قبل خمسة قرون، سفن من أساطيل الأدميرال الصيني زينج همس.

أبعاد أهمية الكتاب

ويستمد هذا الكتاب أهميته من مجموعة محددة من الاعتبارات، لكل منها عناصرها الفرعية، ويكفي هنا أن نتناول خطوطها العريضة:

أولاً ـ بُعد الأمن القومي: إذا كان هناك من لا يتردد في تأكيد أن التاريخ هو المختبر الكبير للعلوم السياسية، فإن هذا الكتاب يتيح لنا ساحة اختبار هائلة، نخرج منها بدروس ثمينة، تتعلق بالأمن القومي، قد يكون أبرزها أن التخطيط للأمن القومي من أجل ضمانه وترسيخه، والتصدي لما يتهدده، ينبغي أن يمر بالتغيرات المستقبلية المحتملة، وبالأخطار المتوقعة.

وقد كان عدم القيام بذلك هو الخطأ الكبير الذي وقعت فيه الكيانات السياسية للمحيط الهندي، ومن بينها كاليكوت، قبل أن تستيقظ على هدير مدافع الأساطيل البرتغالية.

ثانياً ـ البُعد الاقتصادي: أيًا كان الإطار الفكري الذي تصاغ فيه عمليات فرض السيطرة الأجنبية التي شهدها المحيط الهندي، فإن الهدف منها ظل، على مدار القرون هو ذاته، أي التحكم في المقدرات الاقتصادية.. والكتاب يكشف هذه الحقيقة بقوة واقتدار، ولهذا لم يكن من قبيل المصادفة أن يلقي الضوء على الثروات التي نهبها البرتغاليون والهولنديون والفرنسيون والإنجليز من المحيط الهندي.

ثالثا ـ البعد الحضاري: يوضح المؤلف، عبر رصد تاريخي لا يقل مداه عن ألف عام، أنه بينما كان أبناء المحيط الهندي يعيشون في ظل تعايش الحضارات وتعاونها وتثاقفها، فإن ما فُرض عليهم لم يكن إلا تجسيداً حقيقياً لصراع الحضارت. وهو صراع لا يتردد بعضهم في المضي به إلى حدود الإفناء الكامل للحضارات، إذا كان ذلك ممكناً.

رابعًا ـ البُعد التوثيقي: يتميز هذا الكتاب باعتماده على مصادر توثيقية نادرة، كالمصادر الصينية، لإضاءة مساحات من التاريخ الإنساني، قصرت كل المصادر الأخرى عن إلقاء الضوء عليها، ثم على امتداد فصوله أعطيت الأولوية لرؤية شهود العيان، في متابعة الوقائع والأحداث، ومحاولة الإمساك بأسرارها.

وشأن أي جهد بحثي كبير، يتصدى لتغطية ألف عام من تاريخ محيط بأسره في أقل من ٦٠٠ صفحة، فقد كان من الطبيعي أن تكون لهذا الكتاب نقاط ضعفه، ومواضع قوته.

نقاط القوة

ومن أبرز نقاط القوة في هذا الكتاب مايلي:

ـ هذا الكتاب ـ خلافًا لكتب عديدة أخرى تتصدى لموضوعه ـ يتميز بأنه يقوم بالدفاع عن طرح محدد، هو أن عناصر الجغرافيا، ممثلة في الرياح الموسمية قديمًا، وفي ما تواصل اليوم فرضه من علاقات ومصالح نابعة من الجوار، هي التي حسمت مصير مليارين من البشر، أو أكثر، هم سكان المحيط الهندي في الماضي، وستتحكم في مصيرهم في المستقبل، وهم ينطلقون لتحقيق مصالحهم.

ـ يتسم الكتاب بالانتماء إلى الجهود البحثية الكبيرة، التي تتميز بالشمول، حيث يصل ارتفاع سقف طموحه إلى رصد أحداث ألف عام على امتداد محيط بكامله، ويتدرج في غمار ذلك حشد هائل من المعلومات، سيجده القارئ في معظم الأحوال، جديداً ونافعاً.

ـ حرص المؤلف، حيثما كان ذلك ممكناً، على الاعتماد على المصادر الأولية،

وبصفة خاصة شهود العيان، من خلال الوثائق المؤكدة والمذكرات واليوميات ومشاهدات الأشخاص الذين عاينوا الأحداث.

- حرص الكاتب، من الناحية المنهجية، على الحفاظ على حد أدنى من التوازن في عملية تقويم الأحداث، بحيث لا تقوم التطورات، في نهاية المطاف، من جانب واحد في صراع متعدد الأطراف.

- لم ينسق الكاتب للتفسيرات الخارقة للمألوف للأحداث والوقائع، على الرغم من الإغراء القوي بالقيام بذلك، بالنسبة إلى عدد من مراحل تاريخ المحيط الهندي، ومع أن مثل هذا الانسياق يلقي قدراً ليس بالقليل من الحماسة، من جانب بعض شرائح جمهور القراء الغربيين.

مكامن الضعف

وعلى الرغم من نقاط القوة الملحوظة في كتاب «إمبراطوريات الرياح الموسمية: تاريخ المحيط الهندي وغزاته» فإنه لا يخلو من نقاط ضعف، يتعين إدراكها، ومنها:

- إذا كان هذا الكتاب بمنزلة صورة شاملة (بانوراما) هائلة لألف عام من تاريخ المحيط الهندي، فإن القارئ يشعر بأن هذه (البانوراما) تقدم إليه انطلاقاً من الشاطئ الإفريقي، بحيث تزيد مساحة الضوء عند هذا الشاطئ، وفي الواقع عن كل ما يتعلق بإفريقية، وتأخذ في الانحسار مع إيغالنا باتجاه جزر المحيط، وصولاً إلى الهند، وامتداداً حتى ملقا، وربما كان مرد ذلك إلى أن المؤلف متخصص في الشؤون الإفريقية، في المقام الأول.

- يشعر القارئ عند الانتقال من الفصل الأخير في الكتاب إلى الخاتمة أن المؤلف قد خانه، ولم يكمل معه الرحلة، حتى النهاية، وصولاً إلى التطورات المعاصرة. وبالطبع، فإن أحد مصادر العزاء يتمثل في أن المؤلف قد أطلعنا على المنهاج الذي يمكننا أن نتبعه في التعامل مع المصادر المتعلقة بمختلف المراحل التاريخية، ولكن كم كان يغدو جميلاً لو أن الرحلة امتدت حتى أدق تفصيلاتها!

- في انعكاس واضح لطبيعة المصادر المتاحة لدى المؤلف، نجده أكثر اطلاعاً على طبيعة المشروعات البريطانية في المحيط الهندي، بما يتجاوز بكثير اطلاعه على المشروعات البرتغالية، أو الهولندية، أو الفرنسية.

- مع الأهمية الكبيرة لمنطقة الخليج في أي تأريخ للمحيط الهندي، إلا أن المؤلف لم يتطرق لأحداث الخليج بالتفصيل الذي تستحقه عن جدارة.

- يتحول الكتاب، في بعض مواضعه، إلى كابوس حقيقي بالنسبة إلى الباحثين، فالمؤلف في هذه المواضع يشير إلى إحصاءات، أو وقائع، أو حتى شهادات شهود، من دون أن يوضح لنا، بالضبط، في أي موضع من المراجع التي استند إليها يوجد هذا النص، أو ذاك، على وجه التقريب.

وأياً كان الأمر، فإن القارئ يجد بين يديه كتاباً قوياً، في موضوع عملاق، وهو ينجح إلى حد كبير في المضي بنا إلى استشراف آفاق علاقات القوى بين العناصر المؤثرة في حياة المحيط الهندي وتطوره. وهو أمر يعنينا، نحن العرب، إلى حد كبير.

عناصر الجغرافيا لا التاريخ هي التي حسمت مصير مليارين من البشر في الماضي، كما إنها هي التي تؤثر في مستقبلهم



مانيه

رائد الفن الحديث

صلاح الدين كامل مشرف

كان أحد المعالم المميزة في طريق التحرر.. شكلت أعماله الحروف الأولى في اللغة التشكيلية للعصر الحديث، ووجهت خطا المجددين، ودفعتهم إلى التمرد على التلقين، ورفض القواعد والأنماط الموضوعة، ليكون الفن انبثاقا حراً من ذات الفنان ورؤيته الخاصة، كان بحق رائد الفن الحديث بكل ما للرواد من فضل، وبكل ما يلقونه من عناء.

حياة إدوار مانيه

بين عامي ١٨٣٢و١٨٨٣م عاش إدوار مانيه، وفي تلك الحقبة من القرن التاسع عشر جرت أحداث خطيرة، ومضت عجلة التحول بمعالم العصر صوب كشوف هائلة في العلوم، وتطور في الصناعة وأفكار ديموقراطية جديدة، وشهدت أيضا الحرب السبعينية بضروراتها، وبما أحدثته من هزة عنيفة في فرنسا وفي أنحاء أخرى من العالم.

وفي إطار هذا التحول مضت حياة إدوار مانيه.. ولد بباريس في ٢٣ كانون الثاني/يناير ١٨٣٢م لأسرة تنتمي إلى البورجوازية المستنيرة. كان أبوه موظفاً كبيراً في وزارة العدل، وكانت أمه تمثل الثقافة الفرنسية في رهافتها ووضوحها وارتباطها الوثيق بجماليات الفنون. عمل أبوها معظم حياته في السلك السياسي بالسويد، وصاهر أسرة برنادوت.

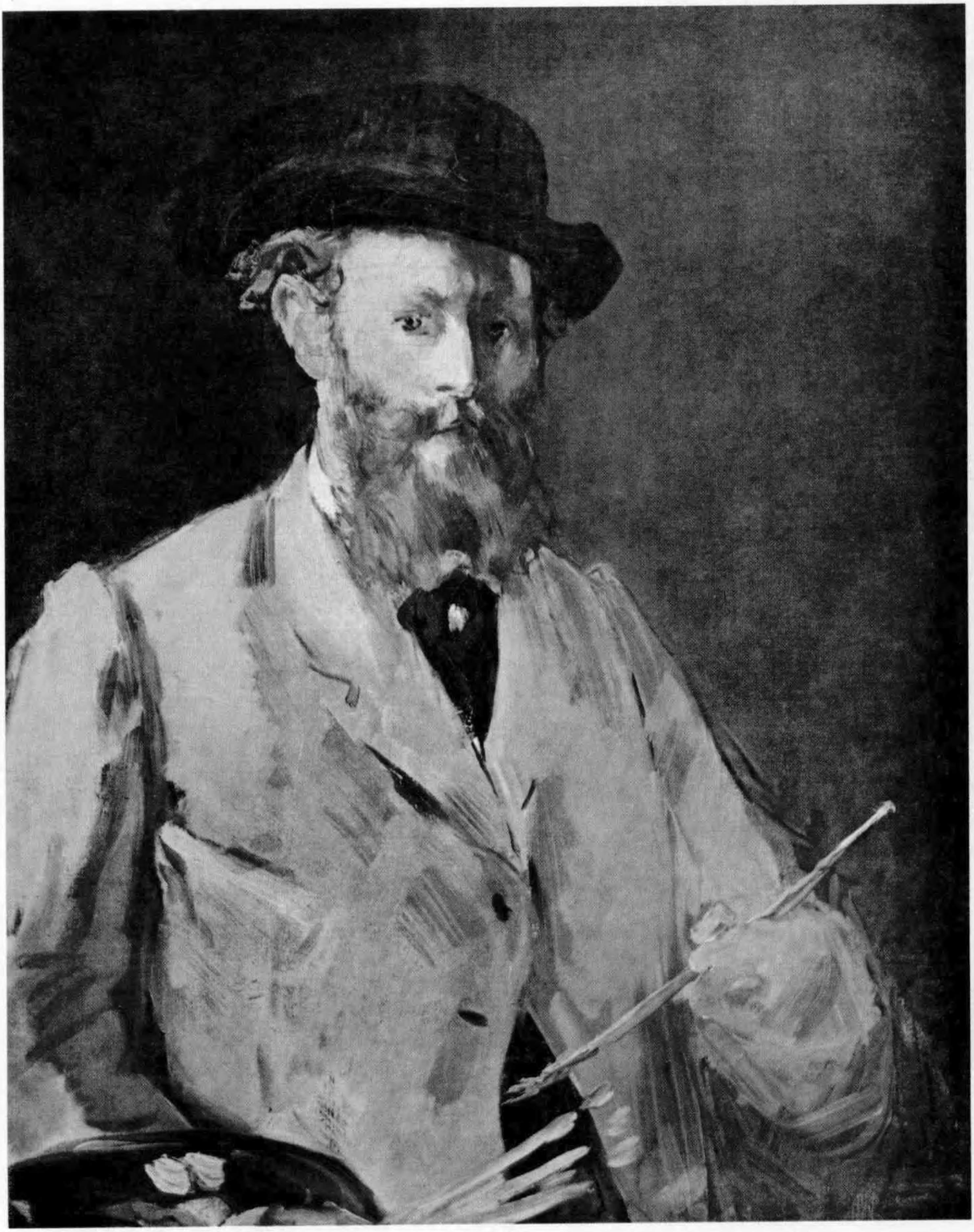
وفي الثانية عشرة من عمره التحق مانيه بكلية «رولان»، حيث عرف أنطونان بروست الذي ظل أوفى أصدقائه، وكان فيما بعد سنداً له عندما كان وزيراً مسؤولاً عن الفنون الجميلة في فرنسا.



في معهد الموسيقى

وبدأ شغف إدوار مانيه بالرسم مبكراً، وملأت عليه هواية الفن حياته، ولكن والده عارض اتجاهه إلى دراسة الفنون عندما حان وقت الاختيار، وعرض عليه المفاضلة بين دراسة القانون أو البحرية.

وآثر مانيه البحرية لما يمكن أن



مانيه بريشته

يتيح له عالمها من انطلاق، ورحل إلى ريودي جانيرو على مركب تجاري، ولكنه عاد محملاً بمجموعة من العجالات المرسومة من مشاهد، فكان التعبير الفني هو كل ذخيرته من رحلة البحار الطويلة.

وفي جو هذه الأسرة الذي كان يسوده سلامة الإدراك والاستقرار النفسي والبعد عن تحيّز الطبقات الجديدة وتعقيدها.. في هذا الجو كان من الممكن أن تذوب معارضة أوجست «مانيه الأب»، وأن يراجع موقفه في ظل إصرار موهبة ابنه التي تبحث عن طريقها، ووجد إدوار مانيه أول الطريق في مرسم المصور كوثير أحد فناني العصر الذائعي الصيت حيث قضى ست سنوات يتعلم أصول الفن وقواعده، وخلال هذه السنوات كان اللوفر مدرسته الحقيقية، كما أتاحت له الرحلة إلى إيطاليا، وسياحاته في هولندا والنمسا أن يلتقي بأعمال ميتسيان وتينتوريتو وفلاسكيز وفرانزهالز لقاء حميماً.

وأدرك مانيه أن تعاليم كوثير أضيق من طموحه، فترك مرسمه ليبحث في عالم سريع التحول، حثيث الخطا عن المعالم الصادقة لتعبيره عن بيئته وعصره.

وأصبح مرسمه في شارع «لافوازييه» بباريس منذ سنة ١٨٥٩م ملتقى للفنانين من أصحاب الأفكار الحرة الذين كانوا مثله يسعون إلى اكتشاف الوجه الصحيح للأشياء، وإلى أن يكونوا شهوداً صادقين على عصرهم.

وأتاحت له الظروف صحبة عباقرة عصره، فعرف الشاعر شارل بودلير، وتأثر بأفكاره، وصادق أميل زولا، وتيوفيل جوتيبه، والشاعر ملارميه، وفتح بودلير عيني مانيه على أفق جديد: مظاهر الحياة اليومية بما تحتويه من كنوز الشعر لمن يعرف كيف يراها فكان أروع ممثل لكلمات بودلير: «إن المصور الصادق هو من يستطيع أن يستحوذ على مواقع الشعر في الحياة، هو من يجعلنا نرى وندرك كم نحن كبار وشاعرون بأرديتنا الجميلة، برباط العنق والأحذية اللامعة!».

وكان مانيه نفسه بملامحه الوضاءة، وملابسه الأنيقة، وقامته المديدة مثالاً لشباب القرن التاسع عشر الهائمين بالتأنق والرفاهية والحرية. هجر مقهاه الراقي بشارع الإيطاليين إلى حي «الباتينيول»، حيث مقهى «جيربوا» ملتقى الفنانين والأدباء الذين كانوا يسعدون بالفقر من أجل الحرية، ويرددون شعار البوهيميين: «لنبق نبلاء ولنسعد بفقرنا»، وأدّى هذا المقهى، وبعده مقهى أتينا الجديدة دوراً هائلاً في تطور فنون وآداب تلك الحقبة. هنالك عاش مانيه حياته وأفكاره بصحبة رينوار، وديجا، وفانتان لاتور، وكذلك مع سيزان، وسيزلي، ومونيه، وبيسارو الذين كانوا يحرصون على لقاء تلك المجموعة الباهرة من الفنانين والأدباء، عندما يقدمون من الضواحي التي يعيشون فيها حول باريس.. كان العصر عصر البوهيمية والتحرر، وكانت هذه الجماعة بأرديتها الغريبة وملامح حياتها تمثل شيئاً ثميناً في جو باريس، وترسل فيه شراراتها من خلال مناقشاتها الحادة، وأفكارها الطليقة، كان كل منهم يشعر أنه يمتلك العالم امتلاكاً شعرياً، وإن كان لا يملك ثمن شرابه، حتى أطلق عليهم دي بنيثيل: «جماعة شاربي الماء، لأن نبيذ فرنسا الرخيص كان فوق متناولهم».

الفن التقليدي

ولكن عهد مقهى «جيربوا» كان مسبوقاً بمعارك خاضها مانيه



وبأعمال هزّت الفن التقليدي، وأثارت عليه هجمات النقاد والجمهور.

وإذا كان للتاريخ دلالات، فإن عام ١٨٦٣م يعدّ في تاريخ الفن عام



مـانيـه، وهو يتـلاقى مع مـوت ديلاكـروا فنان الرومـانسـيـة الذي انطفأ بذهابه وميضها، وغاب معه عـالم مـحلق في رؤى الأسـاطيـر ومشاهد التاريخ ليبدأ على يد مانيه عالم زاخر بملاحم الحياة اليومية، وبشعر الحدث الواقعي.

كـان مـانيـه قـد عـرض قبل ذلك بسنتين لوحته الشهيرة «الموسيقى في التويليري»، وهي أولى لوحاته التي تغنى فيها بروح الحياة المعاصرة، وصور بعض شخصيات عصره الشاعرين بودلير، وتيوفيل جوتيه، والموسيقي أوفنباخ، والمصور فانتان لاتور، هي غناء للتجمعات الباريسية


عازف الناي

في العصر الجميل، مثل نشيد «رينوار» لهذه التجمعات في لوحته «طاحونة لاجاليت».

وبهذه اللوحة لفت مانيه رؤية معاصريه إلى شعر الحياة اليومية الذي يستطيع فن التصوير أن يقيم منه رومانسية جديدة للعصر من دون حاجة إلى أن يحلق، كما حلق ديلاكروا في عالم الأساطير الإغريقية، والأحداث الرومانسية والمعارك الحربية.

وفي سنة ١٨٦٣م، تقدم مانيه إلى الصالون الرسمي بلوحته «الغذاء فوق العشب» التي أثارت هزة صاخبة في عصره، فكان نصيبها الرفض، فلما شهدها الإمبراطور نابليون الثالث مع بعض اللوحات المرفوضة أمر بإقامة معرض خاص لأعمال الفنانين المرفوضين، وافتتحه مع الإمبراطورة بقصر الصناعة، وعرضت منه أعمال لفنانين آخرين مثل: لويسلر وبيسارو وفانتان لاثور من مصوري العصر الجديد.

كانت لوحته «الغذاء فوق العشب» خروجاً على مألوف الرؤية، فلا هي لوحة من لوحات المنظر الطبيعي التي سبقه إليها المصور الفرنسي كور، ولا هي حفظت لتقاليد لوحات المراسيم تلك السمة المثالية التي كانت من سمات مصور عصر النهضة الإيطالي جيورجيون في تصويره لمناظر الطبيعة، وإنما هي لوحة تأثر فيها بنماذج رافاييل، ولكنه صاغها في لغة عصره. وأحدث بها صدمة بذلك الحضور الغريب للمرأة العارية على العشب بين الرجلَين الجالسين.

لم يغفر له ثناء إميل زولا الذي قال: «إن مانيه حقق بهذه اللوحة حلماً عزيزاً على المصورين، هو المواءمة بين المنظر البري والأشخاص الطبيعيين في لوحة واحدة»، وتغنى



بورتريه لفيكتورين ميورند

برحابة اللوحة وامتلاء جنباتها بهواء برع مانيه في التعبير عنه. ارتفعت صيحات الاستنكار فوق ثناء المعجبين، وبدأ من هذا التاريخ الصراع الدائم بين الفنان وتقاليد عصره، وعاد مانيه إلى الصالون الرسمي بعد عامين بلوحة أشد جرأة وصراحة هي لوحته الشهيرة «أوليمبيا»، فأحدثت ضجة أبعد من ضجة «الغذاء فوق العشب».

أنكر النقاد نظراتها الجريئة الغريبة، وسفورها الذي أصبح غريباً على فن التصوير.

والحقيقة أن مانيه كان في هذه اللوحة أقرب إلى «فينيس أوربيو» للمصور الإيطالي تيسيان، كما ذكروا بها قصة غادة الكاميليا لديماس الصغير، وكانت من روايات العصر الذائعة؛ ولكن مانيه كان أشد واقعية من تيسيان، وأبعد عن أوصاف ديماس، وكان يمثل بأوليمبيا سفوراً بعيداً عن أجواء الأساطير.

إن أوليمبيا هي صديقته ونموذجه فيكتورين ميرنيد التي لقيها مصادفة في قصر العدالة بباريس، وجذبه تعبير وجهها الغريب، فسألها أن تكون نموذجًا له، وظلت ملامحها تتردد في لوحاته، فهي تبدو في لوحة «عازف القيثارة»، وفي «الغذاء فوق العشب»، بل هي نموذجه لوجه الصبي في لوحة «المزمار».

الرحلة إلى إسبانيا

جاءت الرحلة إلى إسبانيا بعد ضجة «أوليمبيا»، تلك الرحلة التي عكف فيها مانيه على دراسة فن فلاسكيز، ولوحات جويا، ونقلها لتعرف أسرارها، وكانت إسبانيا تشغل خياله من قبل مثل جوها الساحر في لوحته «لولا الفالنسية»،

ولكنه مع شغفه بالفن الإسباني يكشف رؤية جديدة كانت من سمات هذا العصر هي رؤية الفن الياباني الذي استهواه لنضارة زخارفه الحية، وحيوية هبة التكوين في اللوحة اليابانية، وهذا التقابل الرائع بين القيم اللونية المشعة والقيم اللونية القاتمة.

وأضفى أسلوب التعبير الياباني ثراء على لغة مانيه التشكيلية، وظهر ذلك في لوحته «المزمار» سنة ١٨٦٦م، واستطاع مانيه بما يملكه من قدرة التركيز والإيجاز في اللون أن يحقق للوحته عنصر الضوء الذي كان حريصًا على أن يمتلكه في لوحاته، ويستحوذ على أسراره، وهو في هذا يمضي على نهج يخالف نهج الأقدمين، إذ يبدأ باللون الساطع، ثم يضيف إليه طبقات من الألوان القاتمة، ويستبقيه في خلفية اللوحة، وتحت تدرجات ألوانها، مشعًا بنور نافذ من خلال طبقات الألوان.

وتمثل هذه اللوحة عملاً مميزًا بين إنتاج مانيه فهو يفتتح بها اللوحة ذات البعدين، وتؤثر المنمنمات الشرقية في طريقة أدائه وجرأته في استخدام المقابلات اللونية الرائعة في قوةٍ من التركيز والإيجاز.

وتتوالى أعمال مانيه بين رفض معاصريه، ومساندة عباقرة عصره، رائدًا لهذه الجماعة من الفنانين الأحرار الذين عرفوا فيما بعد باسم «التأثريين»، ولكن المعارض الرسمية ظلت تنكره، ورفضت أعماله في المعرض الدولي سنة ١٨٦٧م، ولكنه فعل مثل «كوربيه» فأقام جناحًا خاصًا لأعماله في مواجهة المعرض الدولي، ووقف «إميل زولا» إلى جانبه، وأعلن أن مكان مانيه قد تحدد في اللوفر، كما تحدد مكان كوربيه، وأسف زولا لما كان يلقاه صديقه من إنكار، فيقول: «قد نسخر اليوم من مانيه، ولكن أبناءنا سيجتمعون بزهو وإعجاب حول لوحاته».

واعترافًا من مانيه بفضل زولا يصور لوحته الشخصية وسط الأجواء التي كانت تستهوي الأديب الفرنسي العظيم، والأعمال التي التقيا على الإعجاب بها.. ملامح من الفن الياباني، ولوحات لفلاسكيز، ولوحة مانيه «أوليمبيا» التي دافع عنها زولا.

وسام جوقة الشرف

وتعصف الحرب السبعينية بأجواء الفنانين، وتفرق بينهم في معسكرات الجيش، فيجند مانيه، ثم يهاجر إلى الريف فرارًا من قتامة باريس، وجوها الكئيب في أيام المعركة.

ولكنه إذ يعود يلقي تاجر اللوحات الشهير ديران رييل الذي كان اقتني مجموعة ضخمة من أعماله بخمسين ألف فرنك، وتتيح له هذه الصفقة إعداد مرسم فخم جديد بشارع سان بطرسبرغ بباريس، كما أتاحت له القيام برحلة إلى هولندا ليعايش أعمال فرانز هالز في بيئتها التي خرجت منها.

ويعد التأثريون لمعرضهم الأول عند المصور الفوتوغرافي نادار سنة ١٨٧٤م، ويدعون مانيه هذا الذي فتح أعينهم على آفاق الحقيقة الجديدة ليعرض معهم، ولكنه يرفض الاشتراك، فعلى قدر تلاقيه معهم حول الحاجة إلى فن جديد، كان يختلف معهم في اتجاههم إلى الوقوف عند المنظر الطبيعي، والبحث عن انعكاسات النور.

إنه مثلهم داعية الصدق الشخصي في التعبير والاستقلال عن الأنماط التقليدية، ولكنه يود أن يكون شاهد عصره بكل سماته وملامحه وبيئاته، ومع اتجاهه إلى تصوير مناظر الطبيعة تحت تأثير إعجابه بالمصورة برت موريزو، إلا أنه يود أن يخلق عالمًا من نماذج عصره البشرية، يضم متحفًا من الصور الشخصية، ويتطلع إلى تصوير كل ما في الحياة اليومية من شعر، ويرنو



شارع مزدان بالأعلام

إلى أن يسجل باريس في كل مظاهر حياتها.. وباريس الأسواق.. باريس السكك الحديدية وباريس الليل.

وتتوالى أعمال مانيه: لوحات من مناظر أرجنتي التي صورها بصحبة مونيه ورينوار، ولوحات الطبيعة الصامتة لوحة نانا في سنة ١٨٧٧م التي أوحت لإميل زولا اسم روايته الشهيرة، كما يتحقق نوع من المصالحة بين الفنان والجمهور حين يعرض لوحته «كأس الجعة»، ثم يأتيه التقدير على يد صديقه أنطونان بروست الذي أصبح وزيرا للفنون الجميلة، فيمنحه وسام جوقة الشرف سنة ١٨٨١م.

وفي سنة ١٨٨٢م، أتم لوحتيه «الربيع» و«البار» في ملهى «الغولي برجير»، وعرضهما في صالون الفنون، غير أن المرض دهمه منذ سنة ١٨٧٩م تحت وطأة الصراع، ومرارة النكران يختتم حياته سنة ١٨٨٣م.

راعي الحركة الواقعية

وقبل موته كتب لأحد نقاده الذين أسرفوا في الهجوم عليه يقول: «كم أود أن يتاح لي قبل أن أمضي مطالعة مقالك الرائع الذي ستختصني به عندما أموت».

وصدق توقع مانيه، كما صدق توقع زولا عن مكانه في متحف اللوفر، فبعد عام من وفاة مانيه أقيم معرض لأعماله بمدرسة الفنون الجميلة، وأخذ هؤلاء الذين كانوا يتهمونه بفحش التعبير وإهدار القيم ينكرون اتهامهم، ويشيدون بفنه.

وفي سنة ١٩٠٧م، فتحت لأوليمبيا أبواب متحف اللوفر من كليمنصو رئيس وزراء فرنسا، ما زالت هنالك تحتل مكانها بين أعمال الخالدين.

لقد كان إدوار مانيه بحق رائد الفن الحديث، عدّه بعضهم داعي



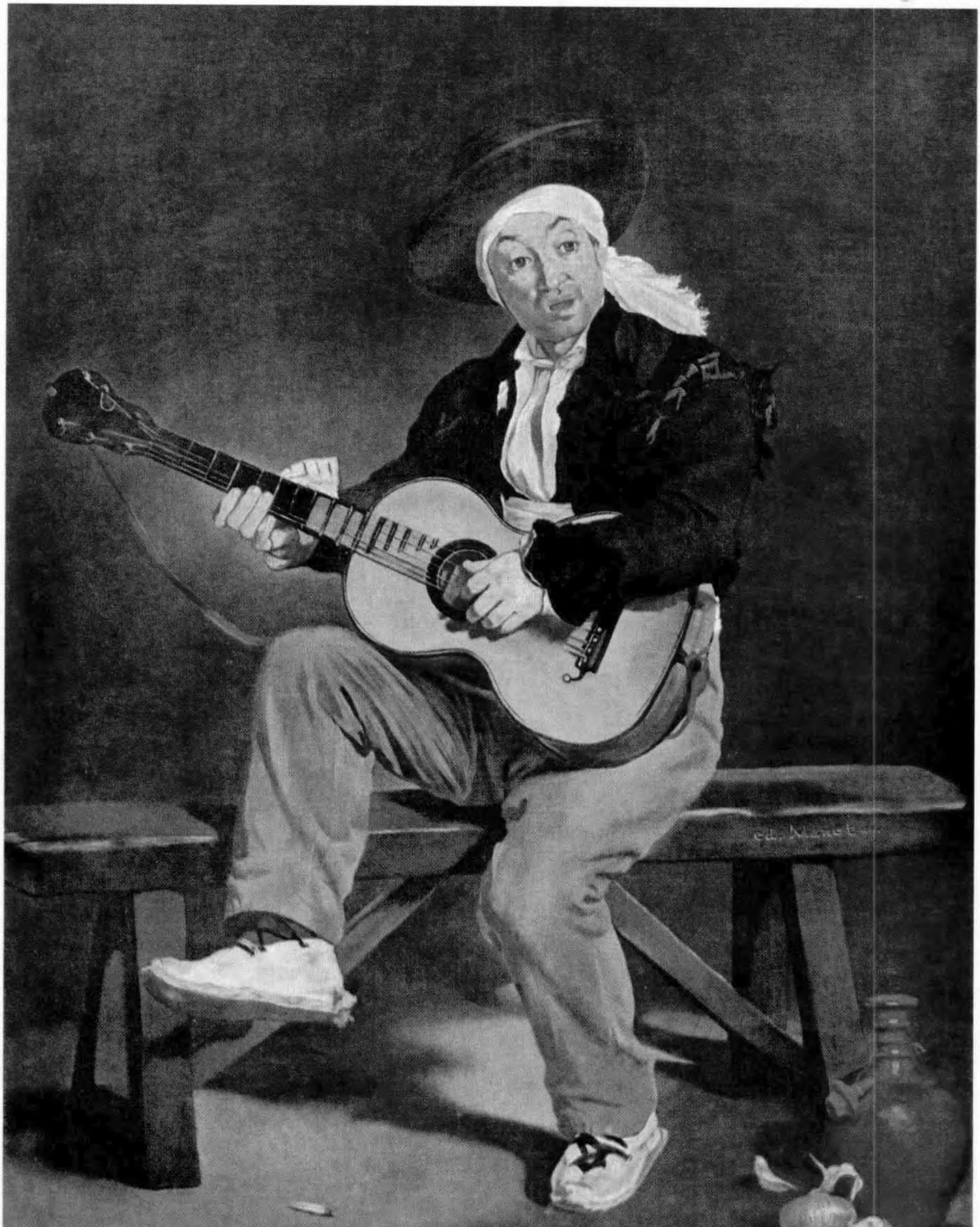
الشرفة

الحركة الواقعية مع كوربيه، ولكن واقعية كوربيه واقعية الموضوع مع العودة إلى أساليب القرن السابع عشر، أما واقعية مانيه فهي واقعية الفنان الحر الذي يقتحم رؤى جديدة، ويتمرد على أنماط الأساليب التقليدية، ليحقق أسلوبه الذاتي. يتمرد على الضوء المحسوب وفقا للقواعد والمقاييس من أجل الضوء المحسوس، ويتمرد على تزييف الحقائق تحت ستار جماليات الأكاديميين من أجل إعادة بناء الحقيقة بصدق وتلقائية وانطلاق، ويتمرد على الرؤية المفروضة من أجل الملاحظة المباشرة وملامسة الأشخاص والأشياء، ويرفض أن يشحن لوحاته بعناصر أدبية أو درامية، ويرد التصوير إلى لغته الحقة لغة الأشكال والألوان.

ولكنه مع ما يمثله في تاريخ الفن من لحظة تحول مهمة إلا أنه كان شديد الولاء للأسلاف. حريصًا على أن يفيد من وصاياهم، شديد التواضع، لم يزعم خلق شيء جديد، وإنما كان حريصًا على أن يؤكد أنه مجرد محاول يسعى لأن يحقق في التصوير ذاته.

المراجع

- «الفن التشكيلي»، بدر الدين أبو غازي، دار الهلال مايو/آيار ١٩٨٤م
- «بين جدران القصور»، حبيب جاماتي، الدار القومية للطباعة والنشر، يونيو/حزيران ١٩٦٦م.
- «بين العمل والأمل»، جيمس ستوكلي، ترجمة مصطفى محمد البلقيني، دار الهلال، مارس/آذار ١٩٧٠م.



عازف الجيتار